

دراسات بيانية في الأسلوب القرآني

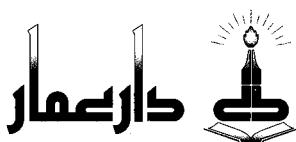
١

التجزئي القرآني

الذكور فاضل صالح السامرائي

أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُل لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَاتَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

قرآن كريم



الطبعية القراءة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

م ٢٠٠٤ - هـ ١٤٢٢

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الإجازة المتسلسل ١٩٩٨/٢/١٩٨

رقم التصنيف : ٢١١٦

المؤلف ومن هو في حكمه : فاضل صالح السامرائي
عنوان الكتاب : التعبير القرآني
الموضوع الرئيسي : ١ - الديانات
٢ - اعجاز القرآن

رقم الإيداع : ١٩٩٨/٢/٢٤٦

بيانات النشر : عمان : دار عمار

* - تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطباعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

هاتف ٤٦٣٧٧٢١ - ٤٦٣٧٢٢٣ - فاكس

ص. ب ٨٥٧ - عمان ١١١١٨ الأردن

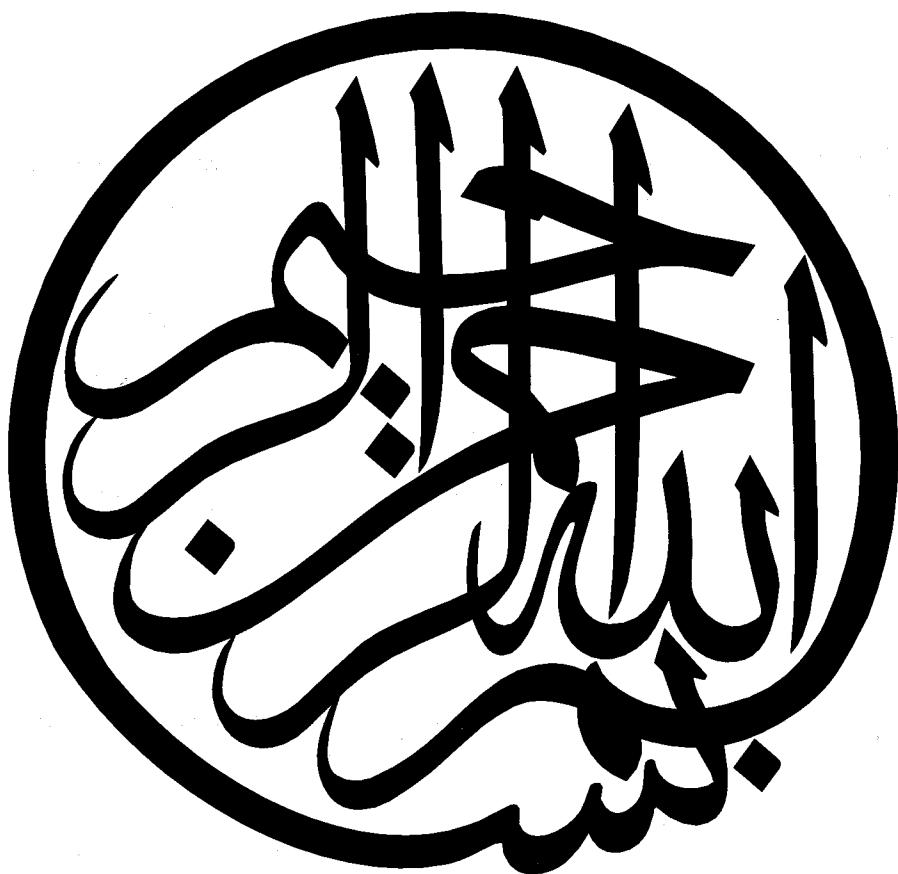


عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص. ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن

«إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلاوا مأدبتة ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور والشفاء النافع. عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبّعه، لا يزيغ فيستعبد ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسناً. أما إني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

حديث شريف



تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلة
والسلام على رايع الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته
وبعد:

فقد كنت أسمع من يقول: إن القرآن معجز وإنه أعلى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مداراته وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا. وقد قرأت في كثير من الكتب نحواً من هذا القول. و كنت أرى في هذا غلواً ومبالغاً، دفع القائلين به حماستهم الديني وتعصبهم للعقيدة التي يحملونها. و كنت أقرأ كثيراً من التعليقات التي يستدل بها أصحابها على سمو هذا التعبير كارتباط الآيات بعضها وارتباط فواتح السور بخواتيمها وارتباط سور بعضها ببعض واختيار الألفاظ دون مرادفاتها ونحو ذلك فلا أراها علمية وأجد كثيراً منها متكلفاً، و كنت أقول: إنه لو كان التعبير على غير ذلك لعلّوه أيضاً فإن الإنسان لا ي عدم تعليلاً لما يريد، إلا أنه بمور الزمن وبعد اطلاعي على مؤلفات أحسبها غير قليلة في كتب اللغة والتفسير والإعجاز والبلاغة ونحوها - وذلك بحكم اختصاصي - بدأت أميل إلى تصديق هذه المقوله، فقد اتضح لي أن قسماً غير قليل مما كتب كتب بروح علمية عالية وأن كثيراً مما كتب لا أزال أراه الآن كما كنت أراه من قبل.

ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسي فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والمحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنى وافحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة. وجدت تعبيراً فنياً مقصوداً حسب لكل كلمة فيه حسابها بل لكل حرف بل لكل حركة.

وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازدلت بذلك يقيناً وبصيرة. وانتهيت إلى حقيقة مسلمة بالنسبة إليّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن

يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وأخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا
مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا.

وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلم بهذه الحقيقة فإن هذا طلب لا مطعم منه
لمجرد القول والادعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنْه جلباب العصبية
وينظر بروح علمية مجردة. وأنا لاأشك في أنه سيصل إلى ما وصلت إليه.

صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلمات اللغوية وليس
لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتدى هؤلاء إلى أمثال
هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدخلهم على مواطن الفن والجمال
ويُبصّرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يعونها ويفهمونها. وهذا
الكتاب أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن
والجمال ويُبصّر بقسم من أسرار التعبير.

أنا لا أقول إني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيل
إليّ أنني فعلت ذاك، ولا أفترض أن القارئ سيسسلم بكل ما يجده فيه ولا أطلب
منه ذاك ولكنني أدعو القارئ أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقطان وأن يصبر على
ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يعيها وذلك ليس بأمر عسير.

وأظنه متى فعل ذاك سيبصر ما أبصرناه ويتهي إلى ما انتهينا إليه.

نسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب.

فاضل السامرائي.

التعبير القرآني

لخلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبر فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه. وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإitan بمثله مع أنه تحداهم أكثر من مرة.

لقد تحدى القرآنُ العربَ ثُمَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بَأَنْ يَأْتُوا بِمَثْلِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَنْ يَأْتُوا بِمَثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. فَقَدْ تَحْدَاهُمْ أَوْلَىً بَأَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مَّثْلَهِ إِنْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مُفْتَرٌ فَقَالُوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا قُلْ فَإِنَّا بِعَشْرِ سُورٍ مَّثِيلٍ، مُفْتَرَيْتُ وَأَدْعُوكُمْ أَسْتَطِعُكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴾[٢] فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ فَأَعْلَمُوْا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمٍ اللَّهُ وَأَنَّ لَأَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٣] [هود].

فَلَمَّا انْقَطَعُوا وَقَامَتِ الْحَجَةُ عَلَيْهِمْ تَحْدَاهُمْ بَأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مَّثْلِهِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَنْ يَفْعُلُوا فَانْقَطَعُوا أَيْضًا وَقَامَتِ الْحَجَةُ عَلَيْهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَرَّنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مَّثِيلِهِ، وَأَدْعُوكُمْ شَهَادَةَ كُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴾[٤] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْتُمُ الظَّالِمُونَ وَقُوْدُهُمَا أَنَّاسٌ وَالْمُجَاهَرَةُ أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[٥] [البقرة].

وَأَكَدَ التَّحْدِي بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَّيْسَ أَحْتَمَعَتِ الْأَيْشُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَقْعِدُ ظَهِيرًا ﴾[٦] [الإِسْرَاءَ].

دعا القرآنُ العربَ إِلَى أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مَّثْلِهِ وَيُشَمَّلُ هَذَا التَّحْدِي قُصَارُ السُورِ كَمَا يُشَمَّلُ طَوَالُهَا فَهُوَ تَحْدَاهُمْ بِسُورَةِ الْكَوْثَرِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْمَعْوذَتَيْنِ وَالنَّصْرِ وَالإِيَّالِفِ قُرْيَشُ أَوْ أَيْةُ سُورَةِ يُخْتَارُونَهَا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَحَاوِلُوا أَنْ يَفْعُلُوا ذَاكَ فَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ عَجْزَهُمْ عَنْهُ، وَرَأَوْا أَنْ سَبِيلَ الْحَرْبِ وَالدَّمَاءِ وَتَجْمِيعَ الْأَحْزَابِ أَيْسَرُ عَلَيْهِمْ مِّنْ مَّقَابِلَةِ تَحْدِيَ القرآنِ.

وَمِنَ الثَّابِتِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَانَ يَأْخُذُهُمْ بِرُوعَةٍ بِيَانِهِ وَأَنَّهُمْ لَا يُمْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ وَلَذِكْ سَعَوْا إِلَى أَنْ يَحْوِلُوا بَيْنَ الْقُرْآنِ وَأَسْمَاعِ النَّاسِ. سَعَوْا إِلَى أَنْ لَا يَصْلُ إِلَى الْأَذْنِ لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَجْرِدَ وَصُولِهِ إِلَى السَّمْعِ يُحَدِّثُ فِي النَّفْسِ دَوْيًا هَائِلًا وَهِزَّةً عَنِيفَةً وَقَدْ حَكَى اللَّهُ

عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْءَانَ وَالْغَوْنَ فِيهِ لَعْنُكُمْ تَغْبِلُونَ﴾ [فصلت].

وكان صناديد قريش وأع霎هم محاربة للرسول وأشدتهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس ابن شريق يأخذ نفسه خلسة لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانتهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا ولو رأكم بعض سفالئكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا^(١). وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذَهُمْ يَغْوَى إِذَا يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَبِعُونَ إِلَّا رُجَلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء].

وما قول الوليد بن المغيرة بـسِرِّه. فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال:

«والله إنّ لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلى عليه»^(٢).

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، ولم تُرَاعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

(١) تفسير ابن كثير ٤٤/٣ ، سيرة ابن هشام ١/٢٠٧-٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢-٤٤٣/٤ ، سيرة ابن هشام ١/١٧٤-١٧٥.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً وهكذا^(١).

جاء في (ملاك التأويل) في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة: «إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثُر تَرداده فيما ترکب من كلمها. ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحرف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيبياً أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها»^(٢).

واستندوا إلى الإحصاء، جاء في (ملاك التأويل) عن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (ألم) وسورة يونس بـ (ألل): «أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي أطول منها. والوارد فيها مما ترکب على الراء من كلمها مائتا كلمة مع زیادتها في الطول عليها»^(٣).

وانتبهوا إلى شيء آخر وهو أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار نصف حروف المعجم ترددت في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر حرفاً وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المطبقة نصفها، ومن المفتحة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها، وقد ذكر من هذه الأنضاف ما هو كثير الدوران في الكلام، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته^(٤).

(١) انظر البرهان ١٦٩/١.

(٢) ملاك التأويل ١/٣٠.

(٣) ملاك التأويل ١/٤٨٣ وانظر ٢/٥٤٨.

(٤) انظر الكشاف ١/٧٨-٧٩.

وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء أخرى في كتاب الله العزيز لترى العجب؟

لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً و لا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق.

لقد تبين :

أن (الدنيا) تكررت في القرآن الكريم بقدر (الآخرة) فقد تكرر كل منها ١١٥ مرة.

وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكرر كل منها ٨٨ مرة.

وأن (الموت) ومشتقاته تكرر بقدر (الحياة) فقد تكرر كل منها ١٤٥ مرة.

وهل الموت إلا للأحياء؟

وأن (الصيف) والحر تكررا بقدر لفظ (الشتاء) والبرد فقد تكرر كل منها خمس مرات.

وأن لفظ (السيارات) ومشتقاتها تكرر بقدر لفظ (الصالحات) ومشتقاتها فقد تكرر كل منها ١٦٧ مرة.

وأن لفظ (الكفر) تكرر بقدر لفظ (الإيمان) فقد تكرر كل منها ١٧ مرة.

وتكرر لفظ (كفراً) بقدر لفظ (إيماناً) فقد تكرر كل منها ثمانية مرات^(١).

وأنه تكرر ذكر (إبليس) بقدر لفظ الاستعاذه فقد تكرر كل منها ١١ مرة.

وأن ذكر (الكافرين) تكرر بنفس عدد النار. وهل النار إلا للكافرين؟

وأن ذكر (الحرب) تكرر بعدد الأسرى^(٢). وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب.

وأن لفظ (قالوا) تكرر ٣٣٢ مرة «ومن عجب أن يتساوى هذا مع لفظ (قل) الذي هو أمر من الله إلى خلقه، فسبحان من قال (قل)، ٣٣٢ مرة فكان القول ٣٣٢ مرة».

(١) انظر الإعجاز العددي للقرآن الكريم ج ١٥/١، ٢١، ٣٥، ٥٨، ٧٠، ١٢٤، ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢/١٥، ٤٩.

وأن لفظ (الشهر) تكرر ١٢ مرة بعدد شهور السنة .

وأن لفظ (اليوم) تكرر ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة^(١) .

وأن لفظ (الأيام) تكرر ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر^(٢) .

وقد تقول : ولِمَ لم يعكس فيذكر اليوم ثلاثين مرة بقدر أيام الشهر و(الأيام) ٣٦٥
مرة بقدر أيام السنة؟

والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزاً لأقل العدد وهو من ثلاثة إلى عشرة فإذا زاد على العشرة جاءت بالمفرد فتقول : ثلاثة رجال ، وأربعة رجال . وعشرون رجال ، فإن زاد على العشرة وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول : عشرون رجلاً . ومائة رجل ، وألف رجل . فالجمع يوقعونه تمييزاً للقلة والمفرد يوقعونه تمييزاً للكثرة .

وكثيراً ما يوقعون المفرد للكثرة بخلاف الجمع من ذلك الوصف بالمفرد والوصف بالجمع .

فالوصف بالمفرد يدل على الكثرة ، والوصف بالجمع يدل على القلة فقولك (أشجار مثمرات) يدل على أن عدد الشجرات قليل بخلاف ما لو قلت (أشجار مثمرة) فإنه يدل على أن الأشجار كثيرة .

ويوقعون ضمير المفرد للكثرة وضمير الجمع للقلة . ألا ترى أن قولك : « الرماح تكسّرن » يعني أن الرماح قليلة وذلك لمجيء نون النسوة بخلاف قولك : « الرماح تكسّرت » فإنها تعني أن الرماح كثيرة . والنون في الأصل للجمع والتاء للمفرد .

ألا ترى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الْشَّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حِرْمَانٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبه]^(٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

كيف لما قال: (إثنا عشر شهراً) قال: (منها). ولما قال: (أربعة) قال: (فيهن)
فاستعمال المفرد (منها) للكثرة والجمع (فيهن) للقلة. وغير ذلك.

فهو جرى على سنتن كلام العرب في التعبير. والقرآن أنزل بلسان عربي مبين
وغير ذلك وغيره. فأي إعجاز هذا أيها الناس! أي إعجاز هذا أيها العلماء! أي
إعجاز هذا أيها المفتونون بالعلم!

ومن يدرى ماذا سيجده بعد في دراسات القرآن الكريم وماذا سيرى الناس
من عجائبها؛ فإن هذا الكتاب كما قال رسول الله ﷺ: «لا تنقضي عجائبه ولا
يخلق من كثرة الرد».

ثم إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ: فقد اختص كثيراً من
الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن
ذلك أنه :

استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة
 واستعمل (الريح) في الشر والعقوبات^(١) قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يُرِسِّلُ الْرِّيحَ
 بُشَّارَاتٍ يَدَى رَحْمَتِهِ» [الأعراف: ٦٣] وانظر الفرقان ٤٨ والنمل ٦٣.

وقال: «وَمَنْ أَيَّنِيهِ أَنْ يُرِسِّلَ الْرِّيحَ مُبَشِّرًا وَلَذِيقًا مِّنْ رَحْمَتِهِ» [الروم: ٦١].

في حين قال «كَمَثَلِ الريحِ فِيهَا صُرُّ أَصَابَتْ حَرَقَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
 فَاهْلَكَهُمْ» [آل عمران: ١١٧].

وقال: «رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» [الأحقاف: ٦١] . وقال «فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرَصِيرٍ
 عَاتِيَّةً» [الحاقة: ١] . وغير ذلك وغيره.

ولم يستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر وهو قوله تعالى: «إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ إِلَيْمٍ بِرِيحٍ طِينَةٍ وَفَرَحُوا إِلَيْهَا جَاءَهُمْ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ
 الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» [يونس: ١١] وهي خاتمة غير حميدة.

(١) - البيان والتبيين ٢٠ / ١.

ومن ذلك ذكر المطر فإنك «لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام»^(١) بخلاف الغيث الذي يذكره القرآن في الخير. قال تعالى : «وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [٦٨]» [النمل] وانظر الشعراة ٧٣. وقال : «وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [٨٤]» [الأعراف]. وقال : «وَلَقَدْ أَنْوَاعَ الْقَرْيَةَ أَلَّا تَأْمُرَ مَطَرَ السَّوْءِ [٦٩]» [الفرقان].

في حين قال : «وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ أَلَوَّنُ الْحَمْيدِ [٢٤]» [الشورى]. وقال : «إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ [٢٥]» [يوسف].

ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين. فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء. وقد وردت كلمة (العيون) في القرآن الكريم في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى : «فِي جَنَّتِي وَعَيْنِي [٦٦]» [الحجر] وقوله : «فِي طَلَلٍ وَعَيْنِي [٦١]» [المرسلات].

في حين جمع العين الباصرة على أعين^(٢) مثل قوله تعالى : «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي [١١]» [الكهف] وقوله : «سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ [١٢]» [الأعراف] وقوله : «رَأَى أَعْيُنَهُمْ تَفَيَضُ مِنَ الدَّمْعِ [١٤]» [المائدة].

ومن ذلك استعمال (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصى) بالتشديد فهو في الدين والأمور المعنوية وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية.

قال تعالى : «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بْنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَطَ لَكُمُ الْلَّذِينَ فَلَا تَمُؤْنَنَ إِلَّا وَأَنْشُرُ مُسْلِمُونَ [٢٣]» [البقرة] وقال : «سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الْلَّذِينَ مَا وَصَّعَ بِهِ بُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الْدِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ [٢٤]» [الشورى] وقال : «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ أَتَقْعُدُوا اللَّهُ فِي أَوْكَدِ كُمْ لِلَّدَّارِ [٢٥]» [النساء]. في حين قال : «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْكَدِ كُمْ لِلَّدَّارِ

(١) انظر البرهان ٤/١٠-٩.

(٢) انظر دراسات في اللغة لإبراهيم السامرائي ٩١.

مِثْلُ حَظِّ الْأَنْثَيْنِ ﴿١﴾ [النساء] وهو في المواريث. وقال : «مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوَحِّي
بِهَا أَوْ دَيْنَ ﴿٢﴾ [النساء].

وهي كما ترى كلها في الأمور المادية.

ولم ترد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقتربت فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى : «وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكُورَةِ مَا
دَمْتُ حَيًّا ﴿١﴾ [مريم] فإنه قال (أوصاني) لما اقتربت الصلاة بالزكاة والرثوة أمر مادي يتعلق بالأموال كما هو معلوم.

ومن ذلك قوله تعالى : (يشاقي) و (يشافق) وهما لغتان : الفك لغة الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرسول فك الإدغام. وحيث لم يرد ذكر الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدمغ. قال تعالى : «ذَلِكَ يَأْتُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [الأనفال].

وقال : «وَمَنْ يُشَاقِقُ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴿١﴾ [النساء] في حين قال : «ذَلِكَ يَأْتُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [الحشر].

ولعله وحد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين.

وخصوصيات الاستعمال القرآني كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لتتبين (القصد) والدقة في اختيار ألفاظ القرآن.

ومع هذا الاستعمال الرياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن .

فإنك إذا نظرت إلى أي ضرب من ضروب التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نبوء ولا اختلاف. فإذا نظرت إلى التوكيد مثلاً وجدته على تباعد مواطنه وتفرقها في القرآن وحدة فنية متكاملة متناسباً في كل موطن

مع السياق الذي ورد فيه متسقاً معه ومنسقاً مع كل المواطن الأخرى التي ورد فيها التوكيد.

فالقرآن قد يؤكّد بـ(إنّ) وحدها مثلاً أو قد يؤكّد باللام أو يجمع بينهما، ولو أنعمت النظر لوجدت أن كل موضع يتضيّع التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزاد اللام في الموضع المتزوج منه ولا تُحذف في مواطن الذكر أينما وردت في القرآن وكذلك (أنّ) ونحوها.

فهو يقول مثلاً: (إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَقَابِ) مؤكداً بـ(إنّ) وحدها في مواطن عديدة من القرآن.

ويقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعَقَابِ﴾ [الرعد] مؤكداً بـ(إنّ) واللام.

ويقول: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعَقَابِ﴾ بلا توكيد.

ويقول: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بلا توكيد في مواضع متعددة تبلغ ثلاثة عشر موضعاً.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مؤكداً بـ(إنّ) في أكثر من عشرين موضعاً.

ويؤكّد بـ(إنّ) واللام في مواضع أخرى متعددة.

ويُحذف ويؤكّد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يتضيّع السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مؤكّد في مكان غير مؤكّد ولا ما أكّد بأكثر من مؤكّد في مواطن أكّد بـ(مؤكّد واحد).

وكذا الأمر في غير (إنّ) فهو يقول مثلاً: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِّنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود] بلا توكيد.

ويقول مرة أخرى: ﴿وَلَمْ يَرْجِعْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنْكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب.

ويقول مرة ثالثة: ﴿لَمْ يَرْجِعْ لَنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب وبذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يتضيّع الموطن والسياق، ولا يصح البتة وضع آية من هذه الآيات في غير سياقها وموطنها كما سنبيّن ذاك.

فلو نظرت إلى التوكيد في القرآن لوجده لوحنة فنية عالية متناسقة على سعة التوكيد واختلاف المؤكّدات وتنوعها.

وَقُلْ مِثْلُ ذَلِكَ عَنِ الْاسْتِفْهَامِ . فَهُوَ قَدْ يَسْتَفْهِمُ مَرَّةً بِالْهَمْزَةِ وَمَرَّةً بِـ(هَلْ).
فَهُوَ مَرَّةً يَقُولُ : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْتُ شَكُونَ لِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَوْبِيَةً عَنْدَ اللَّهِ ﴾ [المائدة] ١١.

وَمَرَّةً يَقُولُ : ﴿ أَفَأَنْتُ شَكُونَ لِشَرِّ مِنْ ذَلِكُمْ ﴾ [الحج] ٧٧.

وَمَرَّةً يَسْتَفْهِمُ بـ(مَا) وَمَرَّةً بـ(مَاذَا) وَالْقَصْةُ وَاحِدَةٌ . فَيَقُولُ مَرَّةً فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إِذَا قَالَ لِأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء] ٦٧.

وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى : ﴿ إِذَا قَالَ لِأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الصَّافَات] ٨٥ . وَغَيْرُ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ .

وَقُلْ مِثْلُ ذَلِكَ عَنِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ . فَهُوَ قَدْ يَقُولُ كَلْمَةً فِي مَكَانٍ وَيَؤْخِرُهَا فِي مَكَانٍ . أَوْ يَقُولُ عَبَارَةً فِي مَكَانٍ وَيَؤْخِرُهَا فِي مَكَانٍ فَهُوَ يَقُولُ (السَّمَاءَ) عَلَى (الْأَرْضِ) مَرَّةً ، وَمَرَّةً يَقُولُ (الْأَرْضَ) عَلَى (السَّمَاءِ) ، وَمَرَّةً يَقُولُ (الإِنْسَنُ) عَلَى (الجَنِّ) ، وَمَرَّةً يَقُولُ (الجَنِّ) عَلَى (الإِنْسَنِ) . وَمَرَّةً يَقُولُ (الرُّكُوعُ) عَلَى (السُّجُودِ) وَمَرَّةً يَقُولُ (السُّجُودُ) عَلَى (الرُّكُوعِ) فَهُوَ مَرَّةً يَقُولُ : ﴿ يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوهُ وَاسْجُدُوهُ وَاعْبُدُوهُ وَرَبُّكُمْ ﴾ [الحج] ٧٧ . وَمَرَّةً أُخْرَى يَقُولُ : ﴿ يَنْهَرِمُ أَقْتَنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدُهُ وَآرْكَعُهُ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران] ٣٧ .

وَيَقُولُ مَرَّةً : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ [إِبْرَاهِيمَ] ١٨ .

وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ [البَقْرَةَ] ١١٦ .

وَهُوَ قَدْ يَذَكُرُ كَلْمَةً أَوْ عَبَارَةً فِي مَوْطِنٍ لَا يَذَكُرُهَا فِي مَوْطِنٍ آخَرَ يَبْدُو شَبَيْهًا بِهِ فَهُوَ يَقُولُ مَثَلًا فِي مَوْطِنٍ : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البَقْرَةَ] ١٦٠ . وَيَقُولُ فِي مَوْطِنٍ آخَرَ : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران] ٦٩ . فَيُزِيدُ عَبَارَةً (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) . وَغَيْرُ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ .

كُلُّ ذَلِكَ يَضْعُهُ وَضْعًا فِي غَايَةِ الرُّوْعَةِ وَالْجَمَالِ .

ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويؤلف بينها في حشد فني عجيب لا يملك العارف بشيء من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً ﴿أَللّٰهُ تَعَالٰى أَحْسَنُ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي نَقْشَرُ مِنْهُ جُلُودَ الْأَلْدِينِ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَأْتِيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللّٰهِ ذَلِكَ هُدًى اللّٰهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَالْمُمْلٰءُ مِنْ هَادِ﴾ [الزمر].

لقد دُرس التعبير القرآني دراسات مستفيضة وأولي من النظر مالم يتلئه نص آخر في الدنيا .

فقد دُرس من حيث تصويره الفني فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية^(١). ودرس من حيث نظمه وموسيقاه فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية. وهل يشك أحد في فخامة نظمه وحلاؤه موسيقاه وعدوبه جرسه وحسن اختيار الفاظه وجمال وقع آياته؟!

ودرس تناسب سورة سورة وتناسب آياته آية آية وتناسب فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فنية واحدة محكمة الربط فخمة النسج، وكان كما قال الفخر الرازي: إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض^(٢) بل هو كآلية الواحدة^(٣)

ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لا تحصى . أهُو في أسلوبه وتعبيره. أم هو في تشريعه وفقهه، أم في معالجته جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم هو في إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة^(٤). أم هو في إخباره عما سيقع^(٥). أم هو فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسماً منها، أم هو فيما وضعه من

(١) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/٢١٤ وانظر ٣١٩ .

(٣) التفسير الكبير ٣٢/١٠٤ .

(٤) انظر كتابنا: نبوة محمد من الشك الى اليقين.

(٥) انظر المصدر السابق.

قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب واللغوس. أم هو فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق أو فيما ذكره من أصول علم الاجتماع أو غير ذلك وغيره. أم هو في كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!

أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك فوق ذلك؟!

عجب أمر هذا الكتاب!

يراه الأديب معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً ويراه المربيون معجزاً، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخ في علمه معجزاً.

لقد كشف لهم وهو يبحثون في وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا في لحج ليس لها قعر، وكل عاد بلوؤة كريمة أو عقد نظيم وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر لم يلجهها الوالجون وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدي، تفني الدنيا ولا تفني، ويبلى كل جديد ولا تبلى. فيها من عجائب صنع الله ما لو أطلعت عليه لم تعرف كيف تصنع ولا ستدرك بك عجب لا ينتهي وتمكن منك انبهار لا ينضي. ومفتاح ذلك تدبره والنظر فيه.

فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسراره ما لم يكن منك ببال. إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.

إن هذا الكتاب يمنحك من نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من الطافه ما يجعل عن الوصف فلا تُضيّع هذه الصفقة الرابحة وإلا فأنت والله مغبون.

أدركت الآن سر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَنَالَهَا﴾ [محمد].

أَمَا أَنْهُمْ لَوْ تَدْبِرُوهُ لَفَتَحْتَ أَفْقَالَ الْقُلُوبِ وَلَا نَمَّا كَانُ عَصِيًّا مِّنَ الْأَفْنَدَةِ ،
وَلَا وَقَدَتْ مَصَابِيحُ عَهْدِهَا بِالنُّورِ بَعِيدٌ ، وَأَشْرَقَتْ دُرُوبٍ لَمْ يَسْقُطْ عَلَيْهَا فِيمَا مَضَى
نُورٌ ، وَلَحِيتْ نُفُوسٍ مَا عَرَفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ حِيَاةً .

أَلْمَ يَسْمِهُ اللَّهُ نُورًا فَقَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مِّنْ نَّارٍ ۚ ﴾ [النساء] .

أَولَمْ يَسْمِهُ اللَّهُ رُوحًا فَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا أَلِيمَنُ وَلَا كِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴿ الشُّورَى ۝ ۷۱﴾ [الشورى] ؟

فَهُوَ رُوحٌ وَنُورٌ – وَهُلْ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ ! وَهُلْ قَبْلَهُ شَيْءٌ !

لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَفْقَهُ النَّاسُ ؟

أَلَا لَيْتَ النَّاسُ يَفْقَهُونَ .

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:

١- فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتتجدد والاسم يدل على الثبوت^(١) تقول: هو يتعلم وهو متعلم. فـ(يتعلم) يدل على الحدوث والتتجدد أي: هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف: (متعلم) فإنه يدل على أن الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها. ومثله: هو يحفظ وهو حافظ. فـ(يحفظ) يدل على الحدوث والتتجدد وـ(حافظ) يدل على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله: هو يجتهد ومجتهد.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أتراه سيفشل في مهمته؟ فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررته أي: لأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: «إِنَّ جَاءُلُ فِي الْأَزْرِ خَلِيقَةً» [البقرة: ٢٣]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكانه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لتوح عليه السلام: «وَلَا تُخَطِّبِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَفُونَ» [٢٧] [هود] فلم يقل: سأغرقهم أو إنهم سيغرون. ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: لأن الأمر استقر وانتهى. ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ» [٢٩] [العنكبوت] ولم يقولوا: سنُهلك. فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي: لأن الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

(١) انظر كتابنا: (معاني الأبنية في العربية) باب: (الاسم والفعل).

فمن ذلك قوله تعالى: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّمَا تُوفِّكُونَ» [الأنعام] فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج) واستعمل الاسم مع الميت فقال: (مخرج) وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتتجدد ولأن الميت في حالة همود وسكون ونبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: «وَمَخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ» [الأنعام].

وقد تقول: ولماذا قال في سورة آل عمران «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» [آل عمران] بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين؟

فنقول: إن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو يتزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة.

قال تعالى: «قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ شَاءَ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ شَاءَ وَتُعِزُّ مَنْ شَاءَ وَتُذِلُّ مَنْ شَاءَ يُدِيكَ الْعَيْرِ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ» [آل عمران] تُؤْتِي النَّيْلَ فِي الْأَنَهَارِ وَتُؤْتِي النَّهَارَ فِي الْأَيَّلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءَ يُغْنِي حَسَابِ» [آل عمران].

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدره وفضله على خلقه قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ فَالِّقُ الْمُعْتَدِلُ وَالنَّوَّافِعُ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّمَا تُوفِّكُونَ» [آل عمران] فالإِبْصَارُ وَجَعَلَ الْأَيَّلَ سَكَانًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» [الأنعام].

فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسمياً أيضاً ثم جاء بعده بسميين آخرين هما (مخرج الميت) و (فالق الإِبْصَار) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغيير والحركة. فالسياق مختلف ولذا تتواتي الأفعال في هذه الآية. فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَيْنُكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُ صَانِعُهُمْ﴾ [الأعراف].

«فرق» بين طرفي التسوية فقال: (أدعوتهم) بالفعل ثم قال: (أم أنت صامتون) بالاسم ولم يسوّ بينهما فلم يقل: أدعوتهم أم صمتهم بالفعالية. أو: أنتم داعوهم أم صامتون.

وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له. ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاتّهمته في عقله. فالكلام طارئ يحدّث الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسوّ بينهما بل جاء للدلالة على الحالة الثابتة بالاسم: (صامتون) وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل: (دعوتهم) أي: أحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالتكم من الصمت^(۱). جاء في (الكشف) في هذه الآية: «إن قيل: هلا قيل: أم صمتكم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم... فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم^(۲).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ يُظْلِمُ وَاهْلَهَا غَنِفُلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ يُظْلِمُ وَاهْلَهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود].

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك) وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيمة

(۱) معاني الأبنية ۱۱-۱۲.

(۲) الكشف ۱/۵۹۲.

عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَثِرُ الْجِنُّ فَلَا أَسْتَكْرِئُ مِنْ أَلِئِنْ ۚ وَقَالَ أُولَئِكَ أُولُوْهُمْ مِنَ الْأَلِئِنِ ۖ رَبَّنَا أَسْتَمْعَ بَعْضُنَا يَعْصِي وَبَلَغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجْلَتْ لَنَا ۖ قَالَ النَّارُ مَتَوْكِمُ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَرَّكَهُ عَلَيْهِ ۝ وَكَذَلِكَ تُؤْلِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَمْعَثِرُ الْجِنُّ وَالْأَلِئِنُ أَلَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْقِي وَيُنَذِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا ۖ قَاتِلُوا شَهِيدَنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝ ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَلِّكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلَهَا غَنِقُونَ ۝ ۝ [الأنعام].

فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يكفلوا ولم يأتهم رسول ينذرونهما . فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى : ﴿ لَنُنَذِّرَ قَوْمًا مَا أَنْذَرَ إِبْرَاهِيمَ فَهُمْ غَنِقُونَ ۝ ۝ [يسن] . فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت .

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَنْطَعِفُ إِنَّهُ يِمَا تَعْمَلُونَ بِصَدِّيقٍ ۝ وَلَا تَرْكُنْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا أَكْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۝ وَأَقِمِ الْعَصْلَوَةَ طَرَفِ الْهَارِ وَرَدِلَفًا مِنَ الْأَيْلِ إِنَّ الْمُحَسِّنَتْ يُذَهِّبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَرَى لِلَّذِكِيرَتْ ۝ وَأَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقَرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بِيَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلَهَا مُصْلِحُونَ ۝ ۝ [هود].

فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنت البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا . فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك). ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على المضي (ذلك أن لم يكن ربك) لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة . وجاء هنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرَى ۝ ۝ [هود].

أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: «**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّ رِفِيْعَهُمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**» [الأنفال] ٣٣.

فقد جاء في صدر الآية بالفعل: (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم: (معدبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه - أي العذاب - موقف بيقائه بينهم. فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الإسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: «**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرَعَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**» [القصص] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الإسمية للدلالة على الثبات. ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الإسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الإسمية (ظالمون). فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين: «**وَإِذَا قَوَّا الَّذِينَ أَمْتَنُوا قَالُوا إِمَّا مَنَا**
وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِنِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا يَخْشَى مُسْتَهْزِئُونَ» [آل عمران] ١٤٦.

«فقد فرق بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد حاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (آمنا)، وحاطبوا جماعتهم بالجملة الإسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام (إنما معكم) ولم يسوّ بينهما فلم يقولوا: (إنما مؤمنون) كما قالوا: (إنما معكم) وذلك إنما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحيه وصدق رغبة... وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة

ووفر نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو راجح عنهم متقبل منهم
فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد^(١).

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ أَيْلَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر].

فاستعمل مع الليل الفعل (تسكنوا فيه) ومع النهار الاسم (مبصراً) ولم يسوء
بينهما فلم يقل: ساكناً وبصراً ولا تسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال
ال حقيقي هو: (لتباصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية
واحدة لفاقت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال ﴿هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ أَيْلَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس]. ولو قال: «هو الذي جعل لكم الليل
ساكناً» لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة
ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة
والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً
لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساج، فتحويله إلى
الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة في
صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذاك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال:
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير
ال حقيقي والمجازي ودل على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة
بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً. ولو قال: «تسكنوا فيه ولتبصروا فيه» لفافت
التعبير الفني الجميل تعبير المجاز. ولو قال: «ساكناً وبصراً» لفاقت الدلالة على
النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية. ولو قال: «ساكناً ولتبصروا فيه» لفافت
المجاز في التعبيرين ولكن التعبير سمعاً لا معنى تحته كما أوضحتنا قبل قليل.

(١) انظر الأبنية ١٢-١٣ ، والكشف ١/١٤٢.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره. فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدي. هذا علاوة على ما في جعل النهار مبصراً من جمال وزيادة في المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين:

الأول: أنا نصر فيه كما قيل: ليل نائم والمقصود: نائم أهله.

والمعنى الآخر: أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا بالخير والشر فكأن له عينين تبصران. فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته. جاء في (الكتشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: لِمَ قرن الليل بالمفوعول له والنهر بالحال؟ وهلَا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدي الآخر، ولأنه لو قيل: «لتبرصوا فيه» فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي. ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز»^(١).

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة (الكافرون) وهو قوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَنِّيْدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَنِّيْدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ ۚ». (٢)

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين: الفعلية والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) وبال فعلين: المضارع والماضي (تعبدون) و (عبدتم). ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية: (ولا أنت عابدون ما أعبد).

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتعددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال. إذ لو اقتصر على الفعل لقيل: إن هذا أمر

(١) الكتشاف . ٥٨ / ٣

حادث قد يزول. ولو اقتصر على الاسم لقليل: صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارق، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً، بل معناه أن هذا وصفه في غالب أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجود قد يأتيه وقت لا يوجد فيه إذ هو ليس في حالة جُودٍ مستمر لا ينقطع، والرحيم قد يأتيه وقت يغضب فلا يرحم. ولئلا يظن ذاك في الرسول أعلم براءته من معبداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية: الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلم براءته منها في كل حالة. ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط. فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أدوم وأبقى من النفي عنهم.

ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلاً: (قل يا أيها الكافرون) نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: (ولا أنت عابدون ما أعبد). فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً. وهو تناظر جميل. ومن جميل استعمال القرآن لل فعل والاسم أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث في الحياة فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعماله بالصورة الفعلية وإذا لم يكن كذلك استعماله بالصورة الاسمية.

فمن ذلك مثلاً استعمال القرآن لل فعل (ينفق) فإنه يستعمله بالصيغة الفعلية لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِإِيمَانٍ وَالنَّهَارِ سِرًا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة] فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدث لأن الإنفاق أمر يتجدد. ونحوه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْقِدُونَ فِي أَسْرَاءِ وَالصَّرَاءِ وَالْكَظِيمَنِ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء].

ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿الْصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَدِيرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

بِالْأَسْتَحْارِ ﴿٦﴾ [آل عمران] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى : «أَفَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» ﴿٦﴾ [السجدة]. وقال : «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْبَمًا» ﴿١٧﴾ [طه] وقال : «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا أَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ» ﴿١٨﴾ [الروم]. وغيرها وغيرها.

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى : «وَاقْسُمُوا بِاللهِ جَهَدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ مَا يَرِيدُونَ إِلَيْهِ لَيَقُولُنَّ إِهَا» ﴿٣﴾ [الأنعام] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنها أمر دال على الحدوث لا الشبوت فإنه لم يحصل بعد. ومثله قوله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا أَمْسَيْتُمْ كَمَا عَاهَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا عَاهَنَ السَّفَهَاءُ» ﴿٢٧﴾ [البقرة] وغير ذلك وغيره. جاء في (البرهان) : «وَمَنْ هَذَا يَعْرِفُ لَمْ قِيلَ : (الذين ينفقون) وَلَمْ يَقُلَّ : (المنفقين) فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؟

وقيل كثيراً: المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقة أو مجازية تستمر وأثار تتجدد وتنتقطع، فجاءت بالاستعمالين إلا أن لكل محل ما يليق به. فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال. وحيث يراد الاتصاف بها بالألسماء»^(١).

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى : «الَّذِينَ يَمْلُؤنَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَيِّحُونَ بِمُحَمَّدٍ رَّبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ مَأْمُونُوا» ﴿٧﴾ [غافر].

(١) البرهان ٤/٦٧.

وقال : «وَالْمَلِكَةُ يُسَيْحُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوكَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» ﴿٦﴾ [الشوري].

ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى : «الظَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَدِيرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ إِلَّا سَحَارٍ» ﴿١٧﴾ [آل عمران] أي أصحاب هذه الصفات.

ومثل ذلك التسبيح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى : «وَيُسَيْحُونَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوْنَ» ﴿٢٩﴾ [الأعراف]. و «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» ﴿١﴾ [الجمعة].

ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين : إحداهما : في وصف النبي الله يومنا عليه السلام قال : «فَقَالَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيْحِينَ لَلَّذِي فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ» ﴿١١﴾ [الصفات]. بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت. فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف. والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يومنا إنما نجا من هذه الشدة بمداؤمة التسبيح.

والثانية : في صفة الملائكة «وَإِنَّا لَعَنِ الظَّافِرِينَ وَإِنَّا لَعَنِ الْمُسَيْحِونَ» ﴿٣٥﴾ [الصفات] أي هذه صفاتهم الثابتة. وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة «يُسَيْحُونَ إِلَيْهِ وَإِلَيْهِ لَا يَنْتَهُونَ» ﴿٣٦﴾ [الأنبياء] إذن فالتسبيح وصف ثابت فيهم.

«وانظر هنا الى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصال به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى : «وَيُضَلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ» ﴿١٣﴾ [إبراهيم] وقال : «وَلَنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا» ﴿٦٦﴾ [الحج] «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادِ» ﴿٧﴾ [الرعد].

ومنه قوله تعالى : «تَذَكَّرُوا إِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ» ﴿٦٧﴾ [الأعراف] لأن البصر صفة لازمة للمتّقي، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا تذكر

رأى المذكور ولو قيل: (يصررون) لأنّا عن تجدد واكتساب لا عود صفة»^(١).

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلal وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارئ يفعله من يستحقه ولم يستند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعتوه قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر] وقال: ﴿كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ الْكُفَّارِ﴾ [البقرة] ﴿وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة].

في حين وصف الشيطان بذلك فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا عَدُوُّ مُضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجده أ أيضاً فقال: ﴿وَتَبَعَّمُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ كتب عليه أنه من قوله فأنا يُضلّه ويهديه إلى عذاب السعير [الحج] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿وَلَا أُضْلِلُهُمْ وَلَا مُؤْمِنُهُمْ﴾ [النساء].

فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلal، كما جعل الله وصف ذاته العلية الثابت والمتجدد الهدایة فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَا إِلَّاَنَّمَنَّأَمْنَوْ﴾ [الحج].

وقال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان] وقال: ﴿يَهُدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَكُمْ شَبَّلَ السَّلَامَ﴾ [المائدة] وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهُدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس] فشتان ما بين الوصفين.

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ﴾ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا فَأَلَّ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [الذاريات].

«فرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثانى بالرفع ولم يسوء بينهما، وذلك لأن قوله: (سلاماً) بالنصب تقديره: سَلَّمُ سلاماً أي بتقدير فعل. وقوله: (سلام) تقديره: (سلام عليكم) أي: بتقدير اسمية الجملة. والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حيا الملائكة

(١) البرهان ٦٨/٤

بخير من تحبّهم»^(١)). قال تعالى: «وَإِذَا حُبِّيْتُم بِحُبَّةٍ فَحِبُّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ زُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا»^(٢) [النساء] فرد التحية بخير منها.

وجاء في «التفسير الكبير» أن «إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتي بالجملة الإسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار»^(٣).

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: «وَجَاءَوْ عَلَىٰ قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِيبٍ قَالَ بْلَ سَوْلَتْ لَكُمْ أَفْسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ»^(٤) [يوسف] فجاء بالصبر مرفوعاً أي: بتقدير الجملة الإسمية لأنّه وَطَنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل: (صبراً) بالنصب بتقدير الفعل أي: لأصبر صبراً، لأنّه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فشمة فرق بين الاستعملين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: «الَّطْلَقُ مَرَّاتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٌ بِإِحْسَنِهِنَّ»^(٥) [البقرة] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنّها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، إما الإمساك بالمعروف أو التسرّع الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأنّ النصب موقوت. ألا ترى إلى قوله تعالى: «فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبُوهُنَّا مِنَ الْرِّقَابِ»^(٦) [محمد] كيف جاء بـ(ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنّه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائمًا.

ومثله قوله تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لِمُنْزَهٍ»^(٧) [الهمزة] فانظر كيف قال: (وييل) بالرفع ولم يقل: (ويلاً) بالنصب وذلك لأنّه بالرفع جملة إسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به. ولو قال: (ويلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم. ثم انظر كيف قال

(١) معاني الأبنية ١٥.

(٢) التفسير الكبير ٢١٢/٢٨ وانظر الكشاف ١/٣٨-٣٩، ١٦٩/٣، بدائع الفوائد ٢/١٥٧.

في آخر السورة: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤْكَدَةٌ ٨٦ فَأَخْبَرَ أَنَّ أَبْوَابَهَا مُغْلَقَةٌ عَلَيْهِمْ لَا تَنْفَتِحُ إِشَارَةً إِلَى دَوْمِ الْعَذَابِ وَخَلْوَدِهِ، وَكَيْفَ نَاسِبُ ذَلِكَ أَوَّلَ السُّورَةِ بِرْفَعِ الْوَيْلِ».

فانظر هذا التناقض الجميل في التعبير والمعنى بين المفتاح والختام. وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.

٢ - وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجبياً ويضعها وضعياً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاء فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبَّتَّلًا ٨٦ [المزمول]» فإنه جاء بالفعل (بتل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتل) وذلك أن مصدر بتل هو (البتل) فإن مصدر (تفعل) يكون على (التفعل) كتعلم تعلمًا وتقدم تقدماً. وأما (التبليل) فهو مصدر بتل لا بتل فإن (التفعيل) هو مصدر (فعل) كعلم تعلمًا وعظم تعظيمًا. وكان المتوقع أن يقول (وتبتل إليه بتلًا) غير أنه لم يقل ذاك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنئي التبتل والتبيل، وذلك أن بتل على وزن تفعل و (تفعل): يفيد التدرج والتکلف مثل: تجسس وتحسس وتبصر وتدرج وتمشى وغيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرجًا وتکلفًا. ألا ترى أن في (تبصر) من التدرج وإعادة النظر والتکلف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشي) من التدرج ماليس في (مشي)؟

وأما (فعل) فيفيد التکثير والبالغة وذلك نحو: كسر وكسر، فإن في كسر المضاعف من المبالغة والتکثير ماليس في كسر الثلاثي فقولك: (كسرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كسرتُ القلم) فإنه يفيد أنك كسرته مرة واحدة. وكذلك قولك: (قطعت اللحم) فإنه يفيد أنك جعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضييف فإنه يفيد أنك قطعته مرة واحدة. وتقول: (موتت الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال:

(موت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبتل) فقال: (وتبتل إلية تبتلاً) لم يفدي غير التدرج وكذلك لو قال (ويتبّل نفسك إلية تبتلاً) لم يفدي غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبتل إلية تبتلاً و بتل نفسك إلية تبتلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعًا فنياً فكسب المعنيين في أن واحد وهذا باب شريف جليل.

جاء في (التفسير القيم) : «ومصدر تبتل إليه: (تبتل) كالتعلم والتفهم ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعل) لسر لطيف . فإن في هذا الفعل إيداناً بالتدريج والتكلف والتعلم والتكرر والمبالجة . فأنتى بالفعل الدال على أحدهما وبال المصدر الدال على الآخر فكأنه قيل : بتل نفسك إلى الله تبتلاً وتبتل إلية تبتلاً ، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره .

وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز»^(١) .

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالجة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدريج في العبادة وانته بالكثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالجة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالجة حتى يكون وصفاً ثابتاً له . فهو وضعها وضعًا تربوياً أيضاً .

(١) التفسير القيم ٥٠٢-٥٠١

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجياً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتتجدد فقال: (وتبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المراده في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقعة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

ومثله قوله تعالى: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضْلِلُهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» [النساء] والقياس أن يقول: (أن يُضلهم إصلاً بعيداً) «لأن مصدر (أصل): الإضلal أما الضلال فهو مصدر ضل، قال تعالى «فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» [النساء] والمعنى أن يُضلهم فيضلوا ضلاً بعيداً، وقد جمع المعنين: الإضلal والضلal في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يضلوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُثمنونها. فهو يريد منهم المشاركة في أن يتبعوا الضلال وينتهيوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو^(١).

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنين. والمعنيان مرادان والله أعلم.

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيتحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يتقتضيه السياق والمعنى.

فمن ذلك قوله تعالى: «بَلْ يَعْبُرُونَ أَن جَاءُهُمْ مُنذِرٌ مُتَّهِمٌ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَيْبٌ» [ق].

(١) معاني النحو ٢/٥٨٩.

وقوله: ﴿قَاتَتْ يَوْنِيَّةً إِلَّا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود].

وقوله في مكان آخر : ﴿أَجَعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [صـ].

فأنـت ترى أنه قال في سورة قـ: (هـذا شيء عـجـيب) وفي هـودـ: (إـنـ هـذا لـشيـء عـجـيب) وفي سورة صـ: (إـنـ هـذا لـشيـء عـجـاب) فعدل من عـجـيب إلى عـجـاب، وذلك أنه تدرج في العـجـب بحسب قـوته فـي آية (قـ) ذـكر أنـهم عـجـبـوا من أنـ يـجيـء مـنـذـر مـنـهـم فـقالـوا: (هـذا شيء عـجـيب).

وفي سورة هـودـ كان العـجـب أـكـبـر لأنـه من خـلـافـ المـعـتـادـ أنـ تـلـدـ اـمـرـأـ عـجـوزـ وـعـقـيمـ (انـظـرـ سـورـةـ الذـارـيـاتـ ٢٩ـ) وـبـعـلـهـاـ شـيـخـ إـذـ كـلـ ذـلـكـ يـدـعـوـ إـلـىـ الغـرـابـةـ وـالـعـجـبـ فـالـعـجـوزـ لـاـ تـلـدـ، فـإـذـ كـانـتـ عـقـيمـاـ كـانـتـ عنـ الـولـادـةـ أـبـعـدـ إـذـ يـسـتـحـيلـ عـلـىـ عـقـيمـ أـنـ تـلـدـ. فـإـذـ اـجـتـمـعـ إـلـىـ كـلـ ذـلـكـ أـنـ بـعـلـهـاـ شـيـخـ كـانـ أـبـعـدـ وـأـبـعـدـ وـلـذـاـ أـكـدـ العـجـبـ بـأـنـ وـالـلـامـ فـقـالـ: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هـودـ] بـخـلـافـ سـورـةـ (قـ) فـإـنـهـ لـمـ يـؤـكـدـ العـجـبـ.

وـأـمـاـ فـيـ سـورـةـ (صـ) فـقـدـ كـانـ العـجـبـ عـنـ الـمـشـرـكـينـ أـكـبـرـ وـأـكـبـرـ إـذـ كـيـفـ يـمـكـنـ أـنـ يـؤـمـنـواـ بـوـحـدـانـيـةـ إـلـهـ وـنـفـيـ الشـرـكـ وـهـمـ قـوـمـ عـرـيقـونـ فـيـهـ؟ـ بـلـ إـنـ إـلـيـسـلـامـ جـاءـ أـوـلـ ماـ جـاءـ لـيـرـدـعـهـمـ عـنـ الشـرـكـ وـيـرـدـهـمـ إـلـىـ التـوـحـيدـ،ـ وـحـسـبـكـ أـنـ كـلـمـةـ إـلـيـسـلـامـ الـأـوـلـيـ هيـ: (لاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ)ـ وـقـدـ اـسـتـسـهـلـواـ أـنـ يـحـمـلـواـ السـيفـ وـيـعـلـنـواـ الـحـربـ الطـوـيـلـةـ عـلـىـ أـنـ يـقـرـرـواـ بـهـذـهـ الـكـلـمـةـ،ـ فـالـقـتـلـ أـيـسـرـ عـنـهـمـ مـنـ النـطـقـ بـكـلـمـةـ التـوـحـيدـ،ـ وـلـذـاـ كـانـ العـجـبـ عـنـهـمـ أـكـبـرـ وـأـكـبـرـ فـجـاءـ بـأـنـ وـالـلـامـ وـعـدـلـ مـنـ (عـجـيبـ)ـ إـلـىـ (عـجـابـ)ـ وـذـلـكـ أـنـ (فـعـالـاـ)ـ أـبـلـغـ مـنـ (فـعـيلـ)ـ عـنـ الـعـرـبـ فـ(طـوـالـ)ـ أـبـلـغـ مـنـ (طـوـيلـ)ـ فـإـذـاـ قـلـتـ: (هـوـ رـجـلـ طـوـيلـ)ـ فـهـوـ طـوـلـ يـكـوـنـ مـثـلـهـ،ـ فـإـذـاـ زـادـ عـنـ الـمـعـتـادـ قـلـتـ:ـ هـوـ طـوـالـ وـنـحـوـهـ:ـ كـرـيمـ وـكـرـامـ،ـ وـشـجـيعـ وـشـجـاعـ.

فـانـظـرـ كـيـفـ عـدـلـ مـنـ صـيـغـةـ إـلـىـ صـيـغـةـ بـحـسـبـ مـاـ يـقـضـيـهـ الـمـقـامـ،ـ وـانـظـرـ كـيـفـ يـرـاعـيـ دـقـةـ التـعـبـيرـ فـيـ كـلـ مـوـضـعـ،ـ وـكـيـفـ يـلـاحـظـ كـلـ كـلـمـةـ وـيـضـعـهـاـ فـيـ الـمـكـانـ الـمـنـاسـبـ عـلـىـ تـبـاعـدـ الـأـمـكـنـةـ.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام «فَلَمَّا رَأَهُ الْمَسَكِينَ بَادَعَهُ
قَالَ هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيْيَ بَرِيءٌ مِمَّا نَشَرُكُونَ» [الأنعام].

وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْهُ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا عَبَدُونَ» [الزخرف].

فانظر كيف عدل من (بريء) إلى (براء) من الصفة المشبهة إلى المصدر «وأن ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبحنبياً مرسلاً من ربه أعلن حربه على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين»^(١).

ولذا قال في الآية الأولى : (بريء) وفي الثانية : (براء) وذلك لأن (براء) أقوى من بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك : (هو رجل عدل) أبلغ من قولك (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي: لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه. وقولك : (هو رجل سوء) أبلغ من قولك : (هو رجل سيء) فمعنى رجل سيء أنه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء) أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه السلام : «قَالَ يَنْتَهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلَكَ إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا» [هود] ولم يقل إنه عامل غير صالح، والمعنى أن ابنك تحول إلى عمل غير صالح ولم يبق فيه من عنصر الذات شيء، أي: تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسد لكان ابنك . فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون - أعني نون الوقاية - في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: (إنني براء) ولم يأت بها في آية الأنعام بل قال: (إنني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد^(٢).

(١) معاني النحو. ٣٨٨/١.

(٢) انظر معاني النحو. ٣٨٨/١.

فانظر كيف أكَد براءته في آية الأنعام باللون وبحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحة الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها واعتنى بكل لمساتها، وصدق الإمام الرازى إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل كالآية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) فإنَّ (الرحمن) على وزن فُعلان و (الرحيم) على وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك لأن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتتجدة، وذلك نحو: عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في: عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف: (فعيل) فإنه يدل على الثبوت وكذلك نحو: كريم وبخيل وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس (طويل) مثل: (عطشان) في الوصف ولا (قبح) مثل (جوعان). «ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول: (هو ضعفان) إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت: (هو ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين: ألا ترى أنك تقول لصاحبك: أنت ضعفان، فيرد عليك: أنا منذ نشأتي ضعيف. وتقول له: أراك طولان. فيقول: أنا طويل منذ الصغر.

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فعيل)... فإن صيغة (فعulan) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فعيل) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لهاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفتَه الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متتجدة لا تنقطع، حتى لا يستبد به

الوهم بأن رحمته تعرض ثم تقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه
سبحانه - فجمع الله كمال الاتصال بالرحمة لنفسه^(١).

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَثُلَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمْثُلَ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَعْيَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلٍ كُلُّ مَائَةٍ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُصْنِعُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله ﴿إِنَّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَتٍ خُضْرٍ وَالْأَخْرَ يَأْسَنْتٌ﴾ [يوسف: ٤١].

فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل معه: (سنابل) مرة ومرة أخرى: (سنابيل) وسر ذلك أن سنابل جمع كثرة وسنابل جمع قلة، وقد سبقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور فجيء بها على (سنابل) لبيان التكثير.

وأما قوله: (سبع سنابل) ف جاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتکثير^(٢). ف جاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَةً فَأَيَّتَا اللَّهَ حِينَفَا وَلَرَ يَكُ منَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعَمَهُ اللَّهُ وَهَدَهُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧١].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَدِّلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٦-٩].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمه) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسمًا منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال: إنه شاكر لأنعمه،

(١) معاني الأبنية ٩١ - ٩٢.

(٢) التفسير القيم ١٥٤ - ١٥٥ ، البرهان ٤/٢٢.

ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: «وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا» [النحل: ١٦]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال: «وَأَسْبَغْتَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً طَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» [لقمان: ٢٠]. فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد ذكرت في كتابي «معاني الأبنية في العربية» أمثلة أخرى لاستعمال صيغ الجموع المختلفة. وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموصعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: «وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا الْثَّارُ إِلَّا أَيْمَانًا مَعْدُودَاتٍ» [آل عمران: ٣٨] [البقرة: ٤٧].

وقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا الْثَّارُ إِلَّا أَيْمَانًا مَعْدُودَاتٍ» [آل عمران: ٣٨].

فقال مرة: (معدودة) ومرة أخرى: (معدودات) مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموصعين مختلف. وإيصالح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفتة جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة) دل ذلك على أن عندكم جبالاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة. والأنهار في قوله: (أنهار جارية) أكثر منها في: (أنهار جاريات) وعلى هذا فال أيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها علىبني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة ذكر أنهم يُحرّفونَ كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: «أَفَظَمُمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَنَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [٦٥] «وَلَذَا لَقُوا الَّذِينَ أَمْنَوْا قَالُوا إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَخْتَدُوْنَاهُمْ بِمَا فَاتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيَحْجُوْكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [٦٦] [البقرة: ٦٥-٦٦].

فهم يعرفون جُرمهم ويُرثُرون به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد توعّدهم الله بالعذاب الشديد فقال: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرُوْبُوا بِهِ ثُمَّ أَقْرَبُهُمْ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتَ أَيْدِيهِمْ وَفَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» [٦٧] [البقرة: ٦٧].

إذن فهم يعلمون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمناً قليلاً.
وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: (إلا أيامًا معدودة)
فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال: ﴿أَلَّا تَرَى إِلَى الظَّرِيفَاتِ أُوتُوا خَصِيبَاتِهِنَّ
الَّتِي كَتَبْتِ لَهُنَّ مَا يَعْمَلُونَ إِلَّا كَيْفَ يَعْلَمُ بَيْنَهُنَّ مَنْ هُنْ وَمَنْ مُعَرِّضُونَ﴾ [آل عمران: ١٣].
﴿ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا
لَن تَعْلَمَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَزَّمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤].

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين. فجاء بزمن العذاب الطويل للجرائم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال: (معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنياء].
وقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان].

فقال في آية الأنبياء: (السماء) وفي آية الفرقان: (السماءات) وسبب ذلك أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت في نفسي كذا وكذا؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُوْنَهَا فَيُنَسِّ
الْمَحِيرُ﴾ [المجادلة].

جاء في (الكساف) أن «القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان أكيد في بيان الاطلاع على نحو أهم»^(١).

والسماء هنا أعم من السماءات وذلك أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماءات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ

(١) الكشاف ٢/٣٢١ وانظر تفسير البيضاوي ٤٢٦.

الَّذِيْنَا يَمْصِبُونَ ﴿٦﴾ [الملك] وقوله: «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَرْتَ أَبْصَرْنَا إِلَّا تَحْنُ قَوْمًا مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر].

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحب والمطر والجو وغيره قال تعالى: «يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَذْرَارًا ﴿١١﴾» [نوح] والسماء هنا بمعنى المطر.

وقال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً ﴿٧﴾» [الرعد] والسماء هنا بمعنى السحاب.

وقال: «فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقَاحًا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴿١٢﴾» [الأنعام] والسماء هنا بمعنى الجو.

والمعنى أن الضال عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً لأنما يصعد في الجو لأن المرتفع في الجو يضيق صدره لاحتلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع المنطادات والطائرات بدهور.

وقال: «مَنْ كَانَ يَظْنُ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلَيَمْدُدْ إِسْبَيْ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يُقْطَعَ فَلَيَنْظَرْ هَلْ يُدْهَبَنَ كَيْدُهُ مَا يَغْنِيْهِ ﴿١٦﴾» [الحج].

والسماء هنا بمعنى السقف، أي: مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليمد حبل إلى سقف بيته ثم ليختنق نفسه به لأن محمداً متصر لا محالة. وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك.

ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع. فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) مع السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع العام والخاص مع الخاص.

الا ترى كيف قال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾» [آل عمران].

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد].

فلما جاء بالسموات قال: (عرضها السماوات والأرض)، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال: (عرضها كعرض السماء والأرض) فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال: (أعدت للمتقين) وفي آية السماء قال: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة (عرض السماء) وجاء مع الطبة الخاصة الذين هم أقل من قبلهم وهم المتقوون بلفظ: (السموات) التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد]. وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسع دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقتصرها على المتقوين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر (السماء) وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يশملون المتقوين وزيادة. وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة. فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلت حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخَلُهُ جَنَّةً تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِنَّ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ^(١) وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حَدْوَدُهُ يُدْخَلُهُ نَارًا خَلِيلًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ» ^(٢) [النساء].

فقال في أصحاب الجنة: (خلالدين فيها) بالجمع وفي أصحاب النار: (حالداً فيها) بالإفراد وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالمجتمع المستلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تُطاق، وإن فراذه لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية يس على التصريح) في هاتين الآيتين: «ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإن فراذه ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالمجتمع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.

وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء (خلالدين) لرفع هذا الإبهام اللغطي، فهو اعتبار لغطي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.

أما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في (حالداً) ^(١).

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّكُمْ وَصَاحَتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» ^(٢) [الأعراف].

وقوله في قصة شعيب: «فَنَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّكُمْ
وَصَاحَتْ لَكُمْ فَكَيْفَ مَاسَوْعَ عَلَى قَوْمِ كَثِيرِكَ» ^(٣) [الأعراف].

فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: (رسالات) قالوا: وذلك أن شعيباً بعث إلى أمتين: مدین وأصحاب الأیکة، وصالحاً بعث إلى أمة واحدة، قال تعالى: «وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيباً» ^(٤) [الأعراف].

(١) حاشية يس على التصريح ١٤٠ / ١.

وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ تِينَكَةَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ أَلَا تَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: (أخوهم). قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا﴾ [الأعراف، هود ٨٤] المؤمنون ٣٦].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأمهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه: (أخوهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ عَادَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَ ثَمُودَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ تِينَكَةَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ أَلَا نَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

فانظر كيف قال: (أخوهم) مع الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أرسل إلى غير قومه.

فعبيب أرسل إلى أميين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رِسْلَاتِنَا رَبِّي﴾ [الأعراف]. وقال صالح: ﴿أَبْلَغْنَاكُمْ رِسْلَاتَ رَبِّي﴾ [الأعراف].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطْبِعُونَ﴾ [الأنبياء] ولا تُطِيعُوا أَمْرَ السَّرِيفِينَ [الأنبياء] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ [الأنبياء] قَالُوا إِنَّا أَنَا مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [الأنبياء].

وقال على لسان شعيب: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطْبِعُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَسْلَكْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرَى
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ أَوْفُوا الْكِيلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨﴾ وَزَرِنُوا بِالْقَسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءً هُنَّ وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٩﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقُوكُمْ وَالْجِلَّةُ الْأَوَّلَى
قَالُوا إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٠﴾» [الشعراء].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالت.

ومن ذلك قوله تعالى: «فَأَخْذَتُهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيْمِينَ ﴿١١﴾» [الأعراف]ـ

وقوله: «وَاحَدَ الَّذِينَ طَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَيْرِهِمْ جَثِيْمِينَ ﴿١٢﴾» [هود]ـ

وقوله: «وَاحَدَتِ الَّذِينَ طَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَيْرِهِمْ جَثِيْمِينَ ﴿١٣﴾» [هود]ـ

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة، وحد الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وحد مع الرجفة وجمع مع الصيحة^(١).

و قريب من ذا قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴿١٤﴾» [يونس]ـ

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿١٥﴾» [يونس]ـ

قال: (يسمعون) بلفظ الجمع وقال بعده: (ينظر) بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم، لا ترى أننا نسمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يتحمل الجمع والمفرد. وذكر الكرمانى أنما فرق بينهما « لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٨٤، ٢٣٩.

ووَحْدَ (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم»^(١).

وريما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوَحْدَ النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائين. وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لأخر. فالكلام تختلف موضعه من مستمع لأخر، ولذلك وَحْدَ الرائين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.

وقريب من ذا قوله تعالى: «فَمَا لَنَا مِنْ شَفَاعَةٍ ۝ وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ ۝» [الشعراء]
فجمع الشافع وَحْدَ الصديق: «إِنْ قُلْتَ: لَمْ جُمِعَ الشافع وَحْدَ الصديق؟ قُلْتَ: لَكُثْرَةِ الشفاعةِ فِي العادَةِ وَقَلْتَ الصديق»^(٢) «وَلَأَنَّ الصديقَ الْوَاحِدَ يَسْعىُ أَكْثَرَ مَا يَسْعىُ الشفاعة»^(٣) وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أnder.

وقريب من ذا قوله تعالى «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَدِيدٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا نَذَهَلُ كُلُّ مُرْبِعَةٍ عَمَّا أَرَضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَّرًا وَمَا هُمْ بِسُكَّرٍ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝» [الحج].

فجمع أولاً فقال: (ترونها) ثم وَحْدَ فقال: (وترى الناس) جاء في (الكساف): «إِنْ قُلْتَ: لَمْ قُيلْ أولاً: (ترون)، ثُمَّ قُيلَ: (ترى) على الإفراد؟

قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها. وهي معلقة أخيراً تكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم»^(٤) وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

(١) البرهان ٢٢٣.

(٢) الكشاف ٤٣٠ / ٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٤٩١.

(٤) الكشاف ٣٤١ / ٢.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين :

الأول : تقديم اللفظ على عامله نحو : (خالداً أعطيت) و : (بمحمد اقتديت).

الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى : «وَمَا أَهْلَ بِهِ لِيَنْهَى اللَّهُ» [البقرة] وقوله : «وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» [المائدة] ومثل : (أعرت خالداً كتابي) و : (أعربت كتابي خالداً).

١- تقديم اللفظ على عامله

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقولك : (أنجذت خالداً) يفيد أنك أنجذت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجذت غيره أو لم تنجد أحداً معه. فإذا قلت : (خالداً أنجذت) أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنك لم تنجد أحداً آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.

فمن ذلك قوله تعالى : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [آيات الصراط المستقيم] [الفاتحة] فقد قدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهدایة فلم يقل : (إيانا اهد) كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به. وهذا نظير قوله تعالى : «بِلِ اللَّهِ فَاعْبُدُ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» [الزمر] وقوله : «وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» [البقرة] فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى : «وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» [إبراهيم] وقوله : «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا» [الأعراف] وقوله : «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَتَبْشِرُ» [هود] فقدم الجار والمجرور للدلالة على

الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهدایة على فعله فلم يقل: (إيانا أهد) كما قال: (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهدایة لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري أو خصّني بالهدایة من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني وافسني وعافي. فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفئه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿فَلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَيْتَهُ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك] فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) وذلك أن «الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسالته وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه»^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِيَّاتِنَا إِيَّاهُمْ﴾ ثم إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِيَّاهُ أَذْعُوا وَإِيَّاهُ مَقَابِ﴾ [الرعد] وقوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَ الْمَسَافَاتِ﴾ [القيامة]/فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب

(١) البرهان ٤/١٢ وانظر التفسير الكبير ٣٠/٧٦.

(٢) الطراز ٢/٧٠-٧١.

بعضهم^(١) بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يوسوس] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود] وقوله: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَجُونَ﴾ [الأنبياء] وغير ذلك من الآيات.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدَدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت] فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاسخ الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال: (لا يعلمه إلا هو)?

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحمير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص. ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَقْوِبَ كُلَّا هَدَيْنَا وَتُوحَّدَهَدَيْنَا مِنْ قَبْلِ﴾ [الأنعام] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نحو وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتَمَ فَلَا فَقَهَرَهُ﴾ [الصافع] إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢- تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة

(١) انظر الطراز ٧١/٢

معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك. والقرآن أعلى مثل في ذلك فإنما نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام. فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنسان على الجن ومرة يقدم الجن على الإنسان، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.

إذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبيين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

إذا قيل لك مثلاً : لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟

قلت : لأن الاهتمام بالسماء أكبر.

ثم إذا قيل لك : ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟

قلت : لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر.

إذا قيل لك : ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين المواطنين، بحيث تُبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً. وكذلك بقية المواطن الأخرى. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والاكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالى الرفيع من الأسلوب المهلل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة موقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواقع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متتسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة متكاملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعي فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة. وسنوضح هذا القول المعجمل ببيان شاف.

إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام - مثلاً - متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيترتّب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات] فخلق الجن قبل خلق الإنسان بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَبَّاكَ خَلْقَتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ تَأْرِيَةَ سَمُورٍ﴾ [الحجر] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنسان بعدهم.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُمُ سَنَةً وَلَا نَوْمًا﴾ [البقرة] لأن السنة وهي النعاس تسبق النوم^(١) فبدأ بالسنة ثم النوم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود^(٢) قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت] فإن عاداً أسبق من ثمود.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) - باب العطف.

(٢) الإتقان ١٥ / ٢

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور^(١) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ [الأنياء] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود. وقال: ﴿يُقْلِبُ اللَّهُ الَّيَّلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلْمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعم] وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنبر] قالوا: لأنه عز حكم^(٢).

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعز أي غالب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠، ٧٤] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، منه تقديم الله سبحانه في الذكر^(٣) قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِمَّا أُنزَلَهُمْ مِنَ الْأَنْيَشِنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِيدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء ٦١].

قدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفضيلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفضيلهم. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصدّيقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فمه تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قل صنفهم.

(١) الإتقان ٢/١٥.

(٢) الإتقان ٢/١٤.

(٣) الإتقان ٢/١٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْذَنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِنْتَقْهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ فُوجٍ لِّإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأَخْذَنَا مِنْهُمْ مِنْشَقًا غَلِظًا﴾ [الأحزاب] فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم^(۱).

وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وانظر غافر ۲۰ وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء]، غافر ۵۶.

وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجَ تَبَتَّلَهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان]

فقدم السمع على البصر.

وقال: ﴿وَأَلَّيْسَ إِذَا ذُكِّرُوا بِغَايَتِ رَبِّيهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمَيْنًا﴾ [الفرقان].

فقدم الصُّمُّ وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قالوا: لأن السمع أفضل^(۲). قالوا: والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمى لفقد ولده.

والظاهر أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتسير استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنائي عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلذون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويتمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه] قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه]

(۱) انظر الكشاف ۵۳۱ / ۲

(۲) انظر البرهان ۲۵۴ / ۳

فقد السمع لأنه يوحى بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا ينذر عن سمعه شيء.

وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ هَمَازٌ مَشَّامٌ بِنَمِيمٍ ﴾ مَنَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدِلٌ أَثِيمٌ ﴾ [القلم] « فإن الهماز هو العياب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النمية فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص^(١) ».

فبدأ بالهماز وهو الذي يعيّب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنمية، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العداون فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: (أثيم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أخرى أشد إيذاء. جاء في (بدائع الفوائد): « وأما تقدم (هماز) على (مشاء بنميم) فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهماز هو العياب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النمية. وأما تقدم (مناع للخير) على (معتدل) فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدل يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره»^(٢).

وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْمُكْلِمُ ﴾ [البقرة] قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال] وذلك أنه «خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعًا على ما قرب وشطن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم»^(٣).

ويمكن أن يُقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن . ٢٩٢

(٢) بدائع الفوائد ٦٢/١ .

(٣) بدائع الفوائد ١/٧٤ ، البرهان ٣/٤٥ .

وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة] في آيات كثيرة قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء] قالوا: وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامه والرحمة غنيمه، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُّ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزِيلُ إِنَّ السَّمَاءَ وَمَا يَمْرُحُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والعموم قبل الخصوص بالرتبة»^(١).

وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم يحتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تترحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكتنز الذهب والفضة: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِاهَدُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبه] فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور «قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم ولو لو ظهورهم»^(٢). فتلدرج بحسب الرتبة.

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَنَّ طَهِيرًا يَبْقَى لِلطَّاهِينَ وَالْمَكْفِينَ وَالرَّكِعَ الشُّجُودِ﴾ [البقرة] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتلدرج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً. والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض ظاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر. فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة^(٣).

(١) البرهان ٢٤٩/٣، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) الكشاف ٣٨/٢.

(٣) انظر بدائع الفوائد ٦٥ والبرهان ٣/٢٥٠ وانظر معاني النحو - باب العطف.

ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى : « وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتَنَا لِلطَّاهِيفِينَ وَالْعَكْفِينَ وَالرُّكْعَةِ أَشْجُودِ » [البقرة] فالطائفون هم أصدق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيته عموماً ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى : « يَتَأَلَّهَا الَّذِينَ أَمْسَأُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجَدُوا وَأَعْدُوا رَبِّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُنْجِحُونَ » [الحج] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات ، ثم السجود وهو أكثر ، ثم عبادة الرب وهو أعم ، ثم فعل الخير .

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى : « يَرْمِمُ أَقْتَلَ لِرِبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَرْكِعُ مَعَ الْرَّكِيعَ » [آل عمران] فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ، ثم السجود وهو أقل وأخص ، ثم الركوع وهو أقل وأخص^(١).

ومنه قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُونُ كَافِرٌ وَمَكُمْ مُؤْمِنٌ » [التغابن] فبدأ بالكافر لأنهم أكثر(*) قال تعالى : « وَمَا أَكْنَتُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَضْتَ بِمُؤْمِنِينَ » [يوسف].

(١) بدائع الفوائد ٨/١

(*) أو هو إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم بذكر المؤمنين بعدهم فقد قال بعد هذه الآية : « أَتَرْيَا تَكُونُونَ أَلَيْنَ كَفُورًا مِنْ قَبْلِ فَذَاقُوا وَأَلَّا أَتَرْهُمْ وَلَمْ عَذَّبْ أَلَيْمَ » وقال : « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يُعْلَمُ أَقْلَمُ بَلْ وَرَبِّ الْبَعْنَ ثُمَّ لِتَبَوَّنَ يَمَّاعِيْلَمُ وَلَكَ عَلَى اللَّهِ سَيِّرْ » ثم قال بعد ذلك « وَمَنْ يَقُولُ يَأْللَهُ وَيَعْمَلْ صَلِحًا يَكْفِرُ عَنْهُ سَيِّلَلَهُ وَيَدِيْلَهُ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْمِهَا الْأَنْهَرُ ».

فقد الكلام على الكافرين ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً. ولا ينافق هذا ما ذكرناه في تعليل التقديم ولا يخالفه من أن التقديم هنا إنما جرى بحسب الكثرة والقلة إذ ربما كان أكثر من ملحوظ للتقديم والتأخير. فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم. وهو تعاضد فني رفيع .

ونحوه قوله تعالى: «فِيمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا مِّنْ عِبَادَتِنَا فَيَنْهَا طَالِبُ^١
لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَايِقٌ بِالْخَيْرِ إِذَا دَعَنَ اللَّهَ^٢» [فاطر] فقدم الظالم لكثره
ثم المقتصد وهو أقل من قبله ثم السابقين وهم أقل^(١). جاء في (الكساف) في
هذه الآية: ((إِنْ قُلْتَ: لَمْ قُدِّمَ الظَّالِمُ ثُمَّ الْمُقْتَصِدُ ثُمَّ السَّابِقُ؟ قُلْتَ: لِإِبْذَانِ
بَكْثَرِ الْفَاسِقِينَ وَغَلْبَتِهِمْ وَأَنَّ الْمُقْتَصِدِينَ قَلِيلٌ بِالاضْفَافَ إِلَيْهِمْ وَالسَّابِقُونَ أَقْلَى مِنْ
القليل))^(٢).

ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين: «ثُمَّ مِنَ الْأَوَّلَيْنَ وَقَلِيلٌ مِّنَ
الآخِرِينَ^٣» [الواقعة] إشارة إلى ندرتهم وقلة وجودهم؟

قالوا: ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَلُمُوَا
أَيْدِيهِمَا^٤» [المائدة] قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر.
وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوهُ كُلَّ
جَلْدٍ^٥» [النور] لأن الزنى فيهن أكثر^(٦).

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية
ابن المنير على «الكساف» قوله: «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام
الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماء
والكلام^(٤)، «ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها»^(٥).

وقد يكون التقديم للاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في
موقع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يتضمن السياق.

فمن ذلك تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس قالوا: إنه حيث تقدم
النفع علىضرر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَقْعَادًا^(٦)

(١) انظر الاتقان ٢/١٥.

(٢) الكشاف ٢/٥٧٨.

(٣) الاتقان ٢/١٥.

(٤) حاشية ابن المنير ٢/٣٧٣-٣٧٤.

(٥) تفسير البيضاوي ٤٦٢.

ضَرًّا لِأَمَاشَةَ اللَّهِ ﴿١﴾ [الأعراف] فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّاهِرُونَ ﴿٢﴾» [الأعراف] فقدم الهدایة على الضلال، وبعد ذلك قال: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثُرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴿٣﴾» [الأعراف] فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال: «قُلْ لَا أَنْتُكَ لِتَقْسِي ضَرًّا وَلَا نَقْعَدُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿٤﴾» [يونس] فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعِجِّلُهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴿٥﴾» [يونس] وقال: «وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَصْرُرْ دَعَانَا لِيَحْنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسْئِهِ ﴿٦﴾» [يونس].

قدم الضرر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَّ أَنْتُمْ عَذَابَهُ بَيَّنًا أَفْنَهَا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرُمُونَ ﴿٧﴾» [يونس] فكان المناسب تقديم الضرر على النفع هنا.

وقال: «قُلْ أَفَأَنْتَمْ مِنْ دُونِهِ أَوْ لَيْلَةً لَا يَمْلِكُونَ لِأَفْسِهِمْ نَقْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿٨﴾» [الرعد]. فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله تعالى: «وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿٩﴾» [الرعد] فقدم الطوع على الكره.

وقال: «فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِيَعْصِي نَقْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿١٠﴾» [سبأ] فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَمَّا ﴿١١﴾» [سبأ] فقدم البسط.

وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظتين^(١).

ومن ذلك تقديم الرحمة والعقاب. فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعقاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: «يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ ﴿١٢﴾» [المائدة] وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٣﴾» [فصلت] وقوله: «غَافِرٌ لِذَنْبِ وَقَابِلٌ لِتَوْبَ شَدِيدٌ لِعِقَابٍ ذِي الْظُّولٌ ﴿١٤﴾» [غافر].

(١) انظر البرهان ١٢٢/١، البرهان للكرماني ١٩٧ وما بعدها، درة التنزيل ٣٤٩.

وعلی هذا جاء قول النبي ﷺ حکایة عن الله تعالیٰ: «إن رحْمَتِي سبقتْ غُصْبِي». .

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحکمة فيها تقديم ذکر العذاب ترهیباً وجزراً. من ذلك قوله تعالیٰ في سورة المائدة: «أَلَّا تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١) لأنها وردت في سياق ذکر قطاع الطرق والمحاربين والسراق فكان المناسب تقديم ذکر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالیٰ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَخْيَاهَا فَكَانَمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢] فقدم القتل على الإحياء، ثم قال بعدها: «إِنَّمَا جَزَّئُوا الَّذِينَ يَحْرِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُفْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُسْفَوْا مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ خَرْزٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [المائدة: ٣٣] ثم جاء بعدها: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيهِمَا جَزاءً بِمَا كَسَبُوا كُلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [المائدة: ٣٤]. ثم جاء بعدها قوله تعالیٰ: «أَلَّا تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [المائدة: ٣٥].

فأنت ترى أن المناسب هنا تقديم العذاب على المغفرة. جاء في (الکشاف) في قوله تعالیٰ: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيهِمَا» إلى قوله «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ»

«إِنْ قَلْتَ: لَمْ قَدِمْ التَّعْذِيبُ عَنِ الْمَغْفِرَةِ؟»

قلت: لأنّه قوبيل بذلك تقدم السرقة على التوبة^(١).

ومن ذلك قوله تعالیٰ في سورة العنكبوت: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحُمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ يُقْبَلُونَ» (٢١) وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم لقومه ومخاطبة نمرود

(١) الكشاف / ١٤٦٠ وانظر ملاك التأویل ١٣٨ / ١ وما بعدها، ٢٥٢ / ١ وما بعدها.

وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا^(١). فقد أنذر إبراهيم قومه قائلاً:

﴿إِنَّمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُوْثَنَا وَتَخَلَّفُونَ إِنْ كَانُوا إِلَّا الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَتَكَبَّرُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت] ثم قال: «ولَنْ تَكُنْ بُؤْافَقَةً كَذَبَ أَمْمَةً مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُتَّبِعُ» [العنكبوت] وهددهم بعد بقوله:

﴿وَمَا أَشْرَكَ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [٢٦] **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيَادَتِ اللَّهِ وَلَقَائِهِ أُولَئِكَ يَسِّوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** [العنكبوت] فأنـت ترى أنـ السياق يقتضـ تقديم العذاب هنا.

وقد يكون التقديم والتأخير على نمط آخر غير الذي ذكرت من تقديم الضـر والنـفع والـعذاب والمـغفرـة وغيرها من الخطـوط العامة. فقد يـقدم لـفـظـة في مـكان وـيـؤـخرـها في مـكان آخر حـسبـما يـقتضـيه السـيـاقـ.

فمن ذلك قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَسِيَّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا شُبَكًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» [الأنياء].

وقولـه «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سِاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا» [١١] [نـوحـ] فـقدم الفـجاجـ على السـيـلـ في الآية الأولىـ، وأـخرـها عنـها في آية نـوحـ وـذلكـ أنـ الفـجاجـ في الأـصلـ هوـ الطـريقـ فيـ الجـبلـ أوـ بـيـنـ الجـبـلـينـ، فـلـمـ تـقـدـمـ فيـ آيةـ الـأـنبـيـاءـ ذـكـرـ الـروـاسـيـ وـهـيـ الـجـبـالـ قـدـمـ الـفـجاجـ لـذـكـرـ، بـخـلـافـ آـيـةـ نـوحـ فـإـنـهـ لـمـ يـرـدـ فيـهاـ ذـكـرـ للـجـبـالـ فـأـخـرـهاـ.

فـوضـعـ كلـ لـفـظـةـ فيـ المـوـضـعـ الـذـيـ يـقـتضـيهـ.

وـمـثـلـ ذـكـرـ قـولـهـ تـعـالـيـ: «وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فـي سـبـيلـ اللـهـ أـوـ مـتـمـ لـمـعـفـرـةـ مـنـ اللـهـ وـرـحـمـةـ حـسـرـ مـمـا يـجـمـعـمـونـ» [١٩] وـلـئـنـ مـتـمـ أـوـ قـتـلـتـ لـإـلـيـ اللـهـ تـحـشـرـونـ [٢٠] [آلـ عمرـانـ] فـقـدـمـ القـتـلـ علىـ الموـتـ فيـ الآـيـةـ الـأـولـيـ، وـقـدـمـ الموـتـ فيـ الآـيـةـ الـتـيـ تـلـيـهاـ وـسـبـبـ ذـكـرـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ -ـ أـنـهـ لـمـ ذـكـرـ فيـ الآـيـةـ الـأـولـيـ (ـفـيـ سـبـيلـ اللـهـ)ـ وـهـوـ الـجـهـادـ قـدـمـ القـتـلـ إـذـ هـوـ الـمـنـاسـبـ لـأـنـ الـجـهـادـ مـظـنـةـ القـتـلـ، ثـمـ هـوـ الـأـفـضـلـ أـيـضاـ وـلـذـاـ خـتـمـهـ بـقـولـهـ: (ـلـمـعـفـرـةـ مـنـ اللـهـ وـرـحـمـةـ)ـ فـهـذـاـ جـزـاءـ الشـهـيدـ وـمـنـ مـاتـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ.

(١) انـظرـ البرـهـانـ ٤/٦٣ـ٦٤ـ، البرـهـانـ لـلـكـرـمانـيـ ١١١ـ، ٣٧٠ـ.

ولما لم يقل في الثانية: (في سبيل الله) قدم الموت على القتل لأنّه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: (إلى الله تحرشون) إذ الميت والمقتول كلاهما يحشرُهُ الله إلَيْهِ . فشتان مابين الخاتمتين . فلم يزد في غير الشهيد ومن مات في سبيل الله على أن يقول: (إلى الله تحرشون) وقال في خاتمة الشهيد: (المغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) فوضع كل لفظة الموضع الذي يتضمنه السياق .

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سُوَّقَ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنَخْرُجُ بِهِ زَعْدًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمْهُمْ وَأَنْفَسْهُمْ أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾ [السجدة] فقدم الأنعام على الناس .

وقال في مكان آخر: ﴿وَفِكِّهَهُ وَأَبَأَ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلَا تَنْعِمُونَ﴾ [عبس] فقدم الناس على الأنعام وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى: ﴿فَلَيَظْرُلْ أَلْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس] إلى أن يقول: ﴿فَأَبْشَنَا فِيهَا جَبَّا وَعَنْبَأَ وَقَضْبَأَ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَّابِقَ عَلَبَّا﴾ [عبس] وَفِكِّهَهُ وَأَبَأَ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلَا تَنْعِمُونَ﴾ [عبس] ^(١) لا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفاكه أولًا ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأب أي: التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام هنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثم . فسبحان الله رب العالمين .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَقٍ تَعْنُ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام] .

وقوله: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَقٍ تَعْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء] فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجبـتـ البلاغـةـ تقديمـ عـذـتهمـ بالـرـزـقـ تـكمـيلـ العـدـةـ بـرـزـقـ الـأـلـادـ .

(١) الإنegan ١٤/٢

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لأنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسليفهم كلف الأولاد ما بآيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيما كانوا من الفقر^(١). فقال: لا تقتلواهم فإننا نرزقهم وإياكم، أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشْوَةً﴾ [البقرة] .

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشْوَةً﴾ [الجاثية] فقدم القلوب على السمع في البقرة، وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذكر القلوب المريضية فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَأَدُوهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة] فقدم القلوب لذلك.

وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال: ﴿وَيَلِ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثْيَرٍ يَسْمَعُ إِيمَانَ اللَّهِ تُنَالُ عَلَيْهِمْ يُبَرُّ مُسْتَكِبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية] فقدم السمع. فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.

ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً من ذكرتهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَنْ لَمْ تُنذِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصরهم غشوة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة] .

وجاء في الجاثية قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنْ أَنْهَدَ إِلَهَهُمْ هُوَهُ وَأَضَلَّ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية] فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميؤوس من إيمانهم. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

ثم كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيده الختم فقال: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ . ولم يقل مثل ذلك في الجاثية،

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ٢٦٠-٢٦١، تحرير التحبير ٥٦١

بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال: (وختم على سمعه وقلبه).

ثم قال في البقرة: «وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشْوَةٌ» ^(١) بالجملة الإسمية، والجملة الإسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقتهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام.

في حين قال في الجاثية: «وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غَشْوَةً» ^(٢) بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث. ومعلوم أن (جعل) فعل ماض، ومعنى ذلك: أن العشاوة لم تكن قبل الجعل، يدل ذلك على ذلك قوله تعالى: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ» ^(٣) مما يدل على أنه كان مبصرًا قبل ترديه. ثم ختم آية البقرة بقوله: «وَلَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» ولم يقل مثل ذلك في الجاثية. فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم.

ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلالة، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى: «فَإِنَّهَا لَأَنْبَيْرٌ وَلَكِنْ تَعْنِي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» ^(٤) [الحج].

وقال عليه السلام: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأناسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنساب. ومنه قوله تعالى: «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَإِبَآءَاتُنَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلَيْنَ» ^(٥) [النمل].

وقوله: «لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَإِبَآءَاتُنَا هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلَيْنَ» ^(٦) [المؤمنون].

فقدم (هذا) في الآية الأولى وأخرها في آية (المؤمنون) وذلك «أن ما قبل الأولى: «أَيُّدَا كُنَّا تُرَبَا وَإِبَآءَاتُنَا أَيُّدَا لِمُحَرَّجَوْكَ» ^(٧) [النحل]، وما قبل الثانية: «أَيُّدَا مِتَّنَا وَكُنَّا تُرَبَا وَعَظِلَّنَا أُونَا لِمَبْعُونَ» ^(٨) [المؤمنون] فالجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً. ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد

البعث»^(١) ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم. وأما في الآية الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتبعد.

ومن ذلك قوله تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَفِيلٌ» [الأنعام].

وقوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّ رَبِّكُمْ كُفُورٌ» [غافر].

فأنت ترى أنه قدم في آية الأنعام: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وأخر: «خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» وفي غافر جاء بالعكس . وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي الصاحبة والولد قال: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقُوهُمْ بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا وَبَيْنَ مَا يَعْتَقِدُونَ تَبَعِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَأَنَّهُ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَفِيلٌ» [الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على التوحيد ونفي الشرك والشركاء الصاحبة والولد ولذا قدم كلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» على: «خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» وهو المناسب للمقام.

ثم انظر كيف قال: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ» بعد قوله: «أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَأَنَّهُ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ» فأخر الخلق بعد التوحيد، وهو نظير تأخيره بعد قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» وهو تناظر جميل.

أما في (غافر) فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعدد النعم قال تعالى: «لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرٌ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [غافر] إلى أن يقول: «وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُوكُمْ أَسْتَحِبُّ لَكُمْ» [غافر] «اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَكُمْ أَيْتَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ

وَلَا كُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُتُمْ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ فَإِنَّ تُفْكِرُونَ ﴿٢﴾ [غافر].

فالكلام كما ترى على الخلق وعلى نعم الله وفضله على الناس لا على التوحيد فقدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.

جاء في (البرهان) للكرمانى: « قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ
كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه السورة. وفي المؤمن ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدمغ قول قائله بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ﴾ ثم قال: ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وفي (المؤمن) قبله ذكر الخلق وهو
﴿لَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فخرج الكلام على إثبات
خلق الناس لا على نفي الشريك فقدم في كل سورة ما يتضمنه قبله من الآيات^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُرُولَفَارِبُرُونَ﴾ [التوبه].

فقدم الأموال والأنفس على (في سبيل الله) في سورة الأنفال. وقدم (في
سبيل الله) على الأموال والأنفس في سورة التوبه، وذلك لأنه في سورة الأنفال
تقدّم ذكر المال والفاء والغنية من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ
الدُّنْيَا﴾ [الأنفال] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَوْلَا
كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال] أي: من الفداء،
وقوله: ﴿فَكُلُّو مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيْبًا﴾ [الأنفال] وغير ذلك فقدم المال هنا،
لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتصحية به.

وأما في سورة التوبه فقد تقدّم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله
تعالى: ﴿فَتَرْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ يَأْتِي دِيْكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيُنَصِّرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشَفِّعُ صُدُّورَهُمْ﴾

(١) البرهان ١٦٢-١٦١ ، درة التنزيل ١٢٧ ، ملاك التأويل ٣٤١ / ١

مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ [التوبه] وقوله : « أَتَرَحَسِبْتُمْ أَن تُرِكُوا وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ أَلَّذِينَ جَهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَجْئَهُ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ﴿٢﴾ [التوبه].

وقوله : « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْمَحَاجَّ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كُنَّ مَاءَمَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عَنْدَ اللَّهِ » ﴿٣﴾ [التوبه].^(١)

فقد ذكر : (في سبيل الله) على الأموال والأنفس وهو المناسب هنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.

ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ » ﴿٤﴾ [النحل].

وقوله : « وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ » ﴿٥﴾ [فاطر].

قدم (ماواخر) على الجار والمجرور في النحل وقدم (فيه) على (ماواخر) في فاطر. وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائل النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال : « وَهُوَ الَّذِي سَحَرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَسَتَخْرُجُوا مِنْهُ حِلَيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ﴿٦﴾ [النحل].

قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائل النقل. وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَنْتَصِعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ بِنَمْعَرٍ وَلَا يُفَصَّسُ مِنْ عُمْرُهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّكُمْ عَلَى اللَّهِ سَيِّرٌ » ﴿٧﴾ [فاطر] ثم قال : « وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَاعِي شَرَابُهُ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ وَمَنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَسَتَخْرُجُونَ حِلَيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ﴿٨﴾ [فاطر].

فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال : (وترى الفلك فيه مواخر).

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٠٣ ، درة التنزيل ١٨٩-١٩٠.

فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائل النقل والفلك قدم حالة الفلك، ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلّق به.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ كُلِّ مُنْلِيٍ فَابْنَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُثُورًا﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَقْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مُنْلِيٍ وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرَ شَنَعًا جَدَلًا﴾ [الكهف].

قدم (للناس) على (في هذا القرآن) في الإسراء وأخرها في (الكهف) وذلك لأنّه تقدم الكلام في (الإسراء) على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به فقال: ﴿وَإِذَا أَغْمَنَاهُ الْإِنْسَنُ أَعْرَضَ وَثَأْبَجَانِيهِ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوْسًا﴾ [الإسراء].

إلى أن يقول:

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَهْدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكَيْلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسَنُونَ وَالْجِنُونُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُنْ طَهِيرًا﴾ [الإسراء].

ف nanopas ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء.

ولم يتقدّم مثل ذلك في الكهف.

ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجَانًا فِيمَا لَيْسَ بِأَنْ يُنْذَرَ بِأَسَأَ شَدِيدًا مِنْ لَدْنَتِهِ﴾ [الكهف].

فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر الناس، فكان المناسب أن يتقدّم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء.

وأما سورة الإسراء فقد بدأ بذكر الناس على الكلام ثم القرآن. فقد بدأ بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسَاجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَرَّكَ حَوْلَهُ﴾ [الإسراء].

ثم تكلم علىبني إسرائيل . ثم قال بعد ذلك :

«إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هُوَ أَفْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَيْرًا» [الإسراء].

فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية . وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتاح السورة في الموضوعين .

ثم انظر خاتمة الآيتين ، فقد ختم آية الإسراء بقوله : «فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» [الإسراء] والكُفُور : هو جحد النعم ، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى أن مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكرين الكفور قال تعالى : «إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» [الإنسان] فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق .

أما آية الكهف فقد ختمها بقوله : «وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرَ شَقِّ وَجَدَلًا» [الكهف] لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء من مثل قوله تعالى : «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ» [الكهف].

وقوله : «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ» [الكهف].

وبعدها : «وَجَنِيدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْخِلُوهُ الْمَعَنَّ» [الكهف]

وذكر محاجرة موسى والرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل .

وقال : «فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مَرَأَ ظَهِيرًا» [الكهف].

ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاجرة في سورة الإسراء كلها . فما ألطف هذا التناسق وأجمله وما أجمل هذا الكلام !

ومن ذلك قوله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتُكُمْ بِالْمُنَّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِفَاهَ النَّاسِ وَلَا يَوْمَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ فَتَسْلُمُ كَثِيلٌ صَفَوَانٌ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَأَبْلُ فَرَرَ كُمْ صَلَدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَفَرِينَ» [البقرة].

وقوله : «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَمَا دِأْشَدَتْ بِهِ الْرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٌ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ وَذَلِكَ هُوَ الْأَكْلُ الْأَبْعَيْدُ» [إبراهيم].

فقال في آية البقرة: «لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا» (٢١٦) فقدم الشيء وأخر الكسب.

وقال في سورة إبراهيم: «لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ» (١٨) فقدم الكسب وأخر الشيء، وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفق معط وليس كاسباً، ولذلك آخر الكسب فقال: «لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا».

وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ وَلَطَمَّنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا أَنْصَرْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١٣) [آل عمران].

وقوله: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى وَلَطَمَّنَ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَمَا أَنْصَرْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١١) [الأنفال].

فقدم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران فقال: (ولتطمئن قلوبكم به)، وأخرها عنه في الأنفال فقال: (ولتطمئن به قلوبكم) علماً بأن الكلام على معركة بدر في الموطنين غير أن الموقف مختلف.

ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهدًا لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: «وَلَا تَهُنُوا وَلَا تَخْرُقُوا وَإِنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ» (١١٩) إن يَمْسِكُوكُمْ فَرَحْ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتَلَكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» (١٢٠) [آل عمران] إلى غير ذلك من آيات المواساة والتضيير فقال في هذا الموطن: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ وَلَطَمَّنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ» (١٢١) فذكر أن البشرى (لهم)، وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: «إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ وَلَطَمَّنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ» كل ذلك من قبل المواساة والتبيير والطمأنة.

ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في آل عمران فقال: «إِذَا سَتَغْيِرُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّ مُؤْمِنَ الْمَلَائِكَةَ مُرْدِفِينَ» (١٢٢) وما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى وَلَطَمَّنَ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَمَا أَنْصَرْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ

اللَّهُ أَنْتَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ إِذْ يُغْشِيْكُمُ الْقُوَّاتِ أَسْنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ لِيَطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُدْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثْبِتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٢﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكُمْ إِلَيْكُمْ أَنَّ فِيْكُمْ فَتَّيْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا سَاقِيَّ فِي قُلُوبِ الظَّاهِرِ كَفَرُوا أَرْغَبَ فَأَضْرِبُوهُمْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوهُمْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٣﴾ [الأనفال].

أقول لما كان المقام مختلفاً خالفاً في التعبير.

أنه لما كان المقام في الأنفال مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب والضمير يعود على الإمداد. ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد فقال: «وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبَكُمْ بِهِ» وزاد كلمة (لكم) فقال: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ» زيادة في المواساة والمسح على القلوب فجعل كلاً في مقامه.

ومن ذلك قوله تعالى: «إِنَّا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطَرَّ عَيْرَ بَاعِغَ وَلَا عَادِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ [البقرة] وقوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيَّةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا دَيْنُتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴿٢﴾ [المائدة].

وقوله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُرْءَةً مَعَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّمَا رِجْسُ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطَرَّ عَيْرَ بَاعِغَ وَلَا عَادِ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ [الأنعام].

فقد قال في آية البقرة: «وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ» فقدم (به) على (الغير الله). ومعنى: (ما أهل به): ما رفع الصوت بذبحه وهو البهيمة.

وقال في آياتي المائدة والأنعام: «وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» فقدم (الغير الله) على (به) وذلك أن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله من كانوا يشرعون للناس بإسم الله وهم يفترون عليه فقال: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَّ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبَنَا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ إِنْعَمْهُ وَهَذَا لِشَرِكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشَرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لَهُ فَهُوَ يَصِلُّ إِلَى شَرِكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَدُهُمْ شَرَكَ أَثُُّهُمْ لِيُرْدُوْهُمْ وَلَيَلْسِّوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ
فَنَذَرُهُمْ وَمَا يَقْتَرُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمْ وَحَرَثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ
بِرَعَّاهُمْ وَأَنْعَمْ حَرَمَتْ ظُلْمُوْهَا وَأَنْعَمْ لَا يَدْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْرَاءَ عَيْنَهُ ﴿١٨﴾ [الأنعام].

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تحلل وتحرم مفترية على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تعبد معه ونصيبها أكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال: «أَوْ فَسَقَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحرير ومن بيده ذلك، ورفض آية جهة تحلل وتحرم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد. قال: «أَجَلَّ لَكُمْ
بِهِمِّيَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يَتَّلَقُ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحْلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَّلَقُهَا الَّذِينَ
ءَمَّنُوا لَا تُحِلُّوْ شَعْرَيْرَ اللَّهِ . . . ﴿٢﴾ حَرَمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَكُمُ الْخِزْرَى وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ . . . ﴿٣﴾ يَسْعَوْنَكَ مَاذَا أَحْلَّ لَهُمْ قُلْ أَحْلَّ لَكُمُ الْطَّيْبَاتُ وَمَا عَلَمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكْلِبِينَ تَعْلَمُونَ
بِمَا عَلَمْكُمُ اللَّهُ فَكُلُّوا مَا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَيْنَهُ . . . ﴿٤﴾ [المائدة].

فهو يجعل التحليل والتحرير بيده ويرفض آية جهة أخرى تقوم بذلك، لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ولذا قدمه في البطلان فقال: «وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ
اللَّهِ بِهِ». ثم إنه جاء في الموطنين بذكر اسم الله على النبات فذكر في آية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال: «وَأَنْعَمْ لَا يَدْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَيْنَهَا». وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله فقال: «وَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَيْنَهُ». فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

وأما في البقرة فليس المقام كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحرير وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال: «يَتَّلَقُهَا أَلَّا شَاءَ
كُلُّوا مَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيْبًا ﴿١﴾ [البقرة]. وقال بعدها: «يَتَّلَقُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُلُّوا مِنْ طَيْبَتِكُمْ مَا رَزَقْنَكُمْ وَأَشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمْ
الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمَ الْخِزْرَى وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ . . . ﴿٣﴾ [البقرة].

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدم (به).
والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام^(١) والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: «إِمْنُتُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ^{١٦}
أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ^{١٧}» [الملك] وقوله:
«قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَعْثُثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ^{١٨}» [الأنعام].

فقد خسف الأرض على إرسال الحاصب في آية الملك، وأخر عذاب الأرض بما يأتي من السماء في آية الأنعام.

وذلك أن آية الملك تقدمها قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا
فَأَمْشُوا فِي مَنَارِكُهَا وَلَكُمْ مِنْ زِرْفَهٖ^{١٩}» [الملك] فكأن أنساب شيء في الموعظة تذكره بخسفها من تحتهم. «أَمَا آيَةُ الْأَنْعَامِ فَتَقْدِيمُهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ تَوْفِهُ رُسْلَنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ^{٢٠}» [الأنعام]
فصرف هذا الخطاب تفكير النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنساب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية الملك^(٢).

ومما زاد ذلك حسناً قوله تعالى: (ويرسل عليكم حفظة) والحفظة: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، كل لفظ فيه وضع وضعًا فنياً مقصوداً، وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق. وقد روّعي في ذلك التعبير القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة.

وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعلوه وأن مثل هذا النظم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين.

(١) انظر ملاك التأويل ١٠٧-١٠٨.

(٢) ملاك التأويل ٢/٩٠٨.

الذكر والمحذف

يدخل في هذا الموضوع ما حذف وأصله أن يذكر، كحذف حرف أو فعل أو اسم مما أصله أن يذكر.

كما يدخل فيه في ما ذكر في موطن، ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به لأن الموطن اقتضاه.

القسم الأول :

قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفأً أو يذكره أو يجترئ بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ وَمَا أَسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبَا﴾ [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب. قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿إِنَّ أَثُورَ زُبَرَ الْحَدِيدِ حَقَّ إِذَا سَاقَى بَيْنَ الصَّدَقَيْنَ فَالْأَنْقُبُوا حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ إِنَّ أَثُورَنِي أَفْرِغَ عَيْنِهِ قَطْرًا فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ وَمَا أَسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبَا﴾ [الكهف].

فالـ:(فما اسطاعوا أن يظهروه) أي: يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل: (استطاعوا)، ثم قال: (وما استطاعوا له نقباً) بإبقاء التاء. وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال: (فما اسطاعوا أن يظهروه) وطول الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال: (وما استطاعوا له نقباً) فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب^(١).

(١) كنت أقول بهذا التعليل منذ وقت طويل ولم أكن أعلم أن أحداً قد ذكره حتى وقع في يدي كتاب (ملك التأويل) فوجده قد ذكره في ج ٦٥٥/٢.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفَرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فَأَكَ الْحَوَارِيُونَ هُنَّ أَنْصَارُ اللَّهِ إِمَانًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِإِيمَانِنَا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] .

وقوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيتَ إِلَى الْحَوَارِيْكَنَ أَنَّ إِيمَنُوا فِي رَسُولِنَا قَالُوا إِمَانًا وَأَشْهَدُ بِإِيمَانِنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة] .

فحذفت النون من (أننا) في آية آل عمران، وثبتت في آية المائدة فقيل: (إننا) وسبب ذلك والله أعلم «أن آية المائدة لما ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله: (أن آمنوا بي وبرسولي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها ناسب ذلك (أننا) على أوفي الحالين وهو الورود على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في سورة آل عمران حين قال تعالى: (قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله)، فلم يقع هنا: (وبرسوله) إيجازاً للعلم به وشهادة السياق ناسب هذا الإيجاز الإيجاز، كما ناسب الإتمام في آية المائدة الإتمام، فقيل هنا: (واشهد بأننا مسلمون) وجاء كل على ما يجب، ولو قدر ورود العكس لمن ناسب»^(١) .

يضاف إلى ذلك أنه قال في المائدة: (وإذ أوحيت إلى الحواريين) أي، أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد^(٢) .

ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران فناسب كل في موضعه.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل] .

وقوله في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل] فحذف نون (تكن) في آية النحل، وأبقاها في آية النمل.

(١) ملاك التأويل ١٦٥-١٦٦ .

(٢) انظر كتابنا: معاني النحو ١/ ٣٨٨ .

وذلك أن السياق مختلف في السورتين، فالآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بال المسلمين يوم أحد: «بَقَرُوا بِطْوَنَهُمْ وَقَطَعُوا مَذَاكِرَهُمْ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَمْزَةَ وَقَدْ مَثَلَ بَهُ فَرَأَهُ مَبْقُورَ الْبَطْنِ فَقَالَ: «أَمَا وَالَّذِي أَحْلَفْتَ بِهِ لَئِنْ أَظْفَرْنِي اللَّهُ بِهِمْ لِأَمْثَلَنِ بِسَبْعِينِ مَكَانِكَ»». فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَرَبْتُمْ لَهُمْ خَيْرًا لِلصَّابِرِينَ ۚ وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْتَ إِلَّا يَأْلَمَ اللَّهُ وَلَا تَعْزَّزُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَأْكُفُ فِي ضَيْقٍ مَّمَّا يَمْكُرُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ أَنْتَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل] فكفر عن يمينه وكف عن اراده^(١).

فقد أوصاه ربنا بالصبر ثم نهاه أن يكون في ضيق من مكرهم فقال له: ﴿وَلَا تَأْكُفُ فِي ضَيْقٍ مَّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قل. فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً. وهذا تطيب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتحفيض لأمر الحدث وتهويته على المخاطب، فخفف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيض الأمر وتهويته على النفس.

أما الآيات الثانية فهي في سياق المحاجة في المعاد، وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصوير قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا ثُرَّبَاءِ وَمَابَأَوْنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۚ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَمَابَأَوْنَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُجْرِمِينَ ۖ وَلَا تَعْزَزْنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَأْكُنْ فِي ضَيْقٍ مَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل].

جاء في (البرهان) للكرمانى: إنما خصت سورة النحل بحذف النون موافقة لما قبلها وهو قوله: ﴿إِنَّ يَرْهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَانِتَ لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَئِنْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل].

والثاني: أن هذه الآية نزلت تسلية للنبي ﷺ حين قُتل عمه حمزة ومثُل به فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا فعلنَ بِهِمْ وَلَا صنعنَ».

(١) الكشاف ٢٢٢/٢، تفسير ابن كثير ٥٩٢/٢

فأنزل الله تعالى: «... وَلَئِنْ صَرَّمْتُ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١١﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْ لَكَ إِلَّا
بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مَّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢﴾】[النحل] ليكون ذلك
مباغة في التسلية، وجاء في النمل على القياس لأن الحزن هناك دون الحزن هنا
والله أعلم»^(١).

ونحو هذا قوله تعالى: «... فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ... ﴿١٣﴾】[هود].

وقوله «... فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَائِيهِ... ﴿١٤﴾】[السجدة].

فقال في الآية الأولى: (فلا تك في مرية) بحذف نون تكن. وقال في
الثانية: (فلا تكن في مرية) بذكرها وذلك أن السياق في الآيتين مختلف، فقد
قال في الآية الأولى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَتَهُ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتُوَهُ شَاهِدٌ فِتْنَهُ وَمِنْ قَبْلِهِ، كَتَبَ
مُوسَى إِيمَانًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْرَابِ فَالثَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي
مِرْيَةٍ فِتْنَهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَنِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾】[هود].

وقال في الثانية: «وَلَقَدْ أَلَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَائِيهِ، وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَلَى إِسْرَائِيلَ ﴿١٦﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا يَأْتِينَا
يُوْقَنُونَ ﴿١٧﴾】[السجدة].

إإن الآية الأولى تثبت للرسول ونهي له عن الريب والمرية، فقد بدأ الكلام
بقوله: إنه كان على بيته من ربها، ثم يتلوه شاهد منه، ثم قبله كتاب موسى،
وختمه بقوله: (إنه الحق من ربك) فناسب ذلك أن يقال: (فلا تك في مرية منه)
بخلاف الآية الأخرى فإنها ليس فيها مثل هذه الدواعي كما ترى.

ثم إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد
من يكفر به، والكلام في الثانية على التوراة وبني إسرائيل.

فناسب الحذف في الآية الأولى دون الثانية تثبيتاً للرسول ونهيأ له عن الريب
فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً. فلما كان
الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف هاهنا دون الثانية.

(١) البرهان ٢٨٣-٢٨١

وجاء في (البرهان) للزرκشي أن حذف النون في نحو هذا قد يكون «تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل: ﴿أَلَّا يُكَيِّنْ نُطْفَةً﴾ [القيامة] حذفت النون تنبيهاً على مبدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس] فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون...».

وكذلك ﴿وَإِن تُكَحْ حَسَنَةً يُضَعِّفُهَا﴾ [النساء] حذفت النون تنبيهاً على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيقة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها، ومثلها: ﴿يَتَبَعَ إِنَّهَا إِن تُكَيِّنَ مُنْقَالَ حَبَّةً مِّنْ حَرَدَلٍ﴾ [لقمان] وكذلك ﴿أَوْلَمْ تَأْكُمْ رُسُلَّكُمْ﴾ [غافر] جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه، وهو الحسن إلى العقل إلى الذكر، ورفقاهم من أخفض رتبة وهي الجهل إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ عَائِنِي تُنَلَّ عَيْنَكُمْ﴾ [المؤمنون] فإن كون ثلاثة الآيات قد أكمل كونه وتم. وكذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَنَهَا جِرَوْا فِيهَا﴾ [النساء] هذا قد تم تكوينه... وكذلك ﴿فَأَنْتَ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [غافر] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفى أصله^(١).

ومن ذلك ذكر ياء المتكلم أو حذفها والاجتزاء بالكسرة، وإن لم تكن ياء المتكلم من الحروف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا نُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نُنْظِرُونَ﴾ [هود]

فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف فقال: (ثم كيدون) وذكرها في هود فقال: (فَكَيْدُونِي).

(١) البرهان / ٤٠٧ - ٤٠٨

ويمكن هنا أن نذكر أصلاً عاماً في ذكر الياء وحذفها وهو:

أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء يختلف عن ذكر الياء في كل ما ورد في القرآن الكريم عدا خواتم الآي والنداء، ولها في كل ذلك خط عام إضافة إلى السياق الخاص، ففي كل موطن ذكر الياء فيه يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الياء تردد مظهراً في المواطن التي تذكر فيها الياء أكثر من المواطن التي يجتزأ بالكسرة عنها.

وقد تردد الكلمة ذات الياء المظهرة في السورة أكثر من تردد الكلمة ذات الياء المجتزأة في موطنهما.

هذا علاوة على السياق الخاص الذي يتضمن الذكر والمحذف كما سنبين، ونعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما، فإن المقام في هود مقام تحدّي كبير ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي وطالب المواجهة لا بد أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه ليس فيها هذا التحدي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين فقد قال في الأعراف:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْتَالُكُمْ فَأَدَعُوهُمْ فَلَيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ۚ أَلَّهُمَّ أَرْجِلِي مَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدِي يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذْآتٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شَرَكَاءَكُمْ كُمْ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ ﴾ۚ﴾ [الأعراف].

وأما هود فالمقام فيها مختلف فقد دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه فقال لهم: ﴿يَنَّقُورُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود] ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم حالتهم ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردوا عليه قائلين: ﴿يَنَّهُودُ مَا جِئْنَا بِيَنْتَهَى وَمَا نَحْنُ شَارِكُهُ إِلَهُنَا عَنْ فَوْلَكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود] إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَكَ بَعْضُ إِلَهَيْنَا سُوْءٌ قَالَ إِنِّي أُشَدُّ اللَّهَ وَأَشَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشَرِّكُونَ ﴾ [هود] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَيْعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴾ [هود].

فهم لم يكتفوا بردّ دعوته وعدم التصديق به، بل قالوا له: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء مما جعله يتهدّهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى كيدهم له ثم لا يمهلونه إن استطاعوا. فزاد كلّمة: (جميعاً) زيادة في التحدّي ردّاً على قولهم: ﴿إِن تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَا بَعْضَ إِلَهَتَنَا إِسْوَءَهُ﴾ [هود].

إنهم قالوا له: إن أحد آلهتهم اعتراه بسوء، فتحدى الجميع ثم أظهر نفسه، فذكر الياء زيادة في التحدّي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن التحدّي والمواجهة في هود أطول وأكثر مما في الأعراف (انظر الآيات ٥٨-٥٠) فذكر الياء في هود لأن الياء أطول من الكسرة. وحذف الضمير واجترأ بالكسرة في الأعراف، فناسب بين طول الكلمة والسيّاق، فجعل الكلمة الطويلة للسيّاق الطويل والكلمة المجتزأة للسيّاق المجتزأ. ومن ناحية أخرى نرى أنه قد تردد ذكر ياء الضمير في هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف فقد قال: (إني أشهد الله) و (أشهدوا أني بريء) (فكيدوني جميعاً) (إني توكلت على الله ربّي وربّكم) (إن ربّي على صراط مستقيم) و (يستخلف ربّي قوماً غيركم) (إن ربّي على كل شيء حفيظ).

وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه لم يظهر الياء في السيّاق إلا مرة واحدة وهو قوله: (إن ولّي الله).

فناسب ذكر الياء ما ورد في هود، وناسب الاجتزاء بالكسرة سيّاق ما ورد في الأعراف.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في آية الأعراف: (ثم كيدون فلا تنتظرون) فأدخل (ثم) على الكيد والفاء على الإنّظار. وفي هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و (ثم) على الإنّظار. والفاء تفيد التّعقيب أما (ثم) فتفيد التّراخي. فقد طلب منهم في الأعراف عدم المهلة في الإنّظار. وعدم الإنّظار هو المناسب لسيّاق الأعراف، فقد ذكر في هذه السورة تعجّيل العقوبات لمستحقّيها في الدنيا، بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.

فقد بدأت الأعراف بقوله: «وَكُم مِنْ قَرِيرَةٍ أَهْلَكُنَّهَا فَجَاهَهَا بِأَشْتَأْنَأَ أَوْ هُمْ قَابِلُونَ» [الأعراف] فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في هود: «وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُتَعَفَّمُ مَنْعَاهُ حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُسَمٌ وَقُوْتَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُّوْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمَ كَيْبِرٍ» [هود] فذكر التمتع والإمهال.

وقال في هود أيضاً: «وَلَئِنْ أَخَرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَّا أَتَوْ مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحِسْسُهُ أَلَا يَقْعُدُ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» [هود] فذكر تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وقال في الأعراف: «ثُمَّ بَدَلَنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَكَ أَبَاءَنَا الصَّرَاجَ وَالسَّرَّاجَ فَأَخْذَنَاهُمْ بَعْنَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» [الأعراف] فقال: (فأخذناهم بعنة) بعد قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة)، وهو نظير قوله: (ثم كيدون فلا تنتظرون). فالاستدراج المذكور في الآية وهو قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة...) نظير الكيد في قوله: (ثم كيدون) معنى واستعمالاً فكلاهما بضم وكلاهما إمهال.

وقوله: (فأخذناهم بعنة) نظير قوله: (فلا تنتظرون) فكلاهما بالفاء وكلاهما عدم إنتظار.

فانظر إلى التناظر الجميل بين الآيتين.

«ثُمَّ بَدَلَنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ» «فأخذناهم بعنة».

«ثُمَّ كَيْدُونَ» «فلا تنتظرون».

ثم انظر إلى القصص في السورتين ترَ الفرق واضحاً بين السياقين. فانظر إلى قصة نوح في الأعراف فهي موجزة، وظاهر فيها عدم الإمهال فقد قال لهم نبيهم: «أَوَ عَجِيْشُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلَنَقُوْا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [الأعراف] وبعدها قال الله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَجْيَنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا مَعِينَ» [الأعراف].

فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار (فكذبوه فأججيناهم).

أما في هود فالكلام طويل وهناك مهلة حتى استبطوا ما وعدهم به: ﴿ قَالُوا
يَدْنُوْحُ قَدْ جَنَدْلَتْنَا فَأَكَنْتَ رَثَّ جِدَلَنَا فَأَنْتَ بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ ﴾٢٣﴿ قَالَ إِنَّمَا
يَأْلِكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ ﴾٢٤﴿ [هود].

وكذلك قصة عاد فقد قال في خاتمتها في الأعراف: ﴿ فَأَبْيَجَتْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنْنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَيْنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾٢٥﴿ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَجَيْنَاهُوُدًا وَالَّذِينَ مَأْنَوْا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْنَا وَبَيْتَهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾٢٦﴿ وَلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِعِيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَّهٖ وَأَتَبْعَوْا أَمْرَ كُلِّ جَبَارٍ عَيْنِدِيٍّ ﴾٢٧﴿ وَأَتَبْعَوْا
فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْغَنَّةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٌ هُوُدٌ ﴾٢٨﴿ [هود].

فانظر كيف عجل العقوبة لهم في الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود.

وكذا قصة صالح فقد قال في نهايتها في الأعراف: ﴿ فَأَخَذْتُهُمُ الرَّجْفَةَ
فَأَصْبَحُوْهُ فِي دَارِهِمْ جَهِشِينَ ﴾٢٩﴿ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرَنَا بِجَيْنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ مَأْنَوْا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْنَا وَمِنْ
خَرَّيْ يَوْمِيَّدِيْ إِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْقَوْيُ الْمَرِيزِ ﴾٣٠﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوْهُ فِي دَيْرِهِمْ
جَهِشِينَ ﴾٣١﴿ [هود].

فذكر إنزال العقوبة بالفاء في الأعراف: (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة).

وهكذا، فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار: بخلاف السياق في سورة هود. ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول: (فلا تنظرون) وأن يأتي بـ(ثم) معه في هود فيقول: (ثم لا تنظرون).

وهنالك أمر فني آخر، وهو أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في الأعراف قدم (ثم) على الفاء، ومنها الآية المذكورة وفي هود بالعكس. فقد قال في الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ
حَلَقْتُمْ ثُمَّ صَوَرْتُكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِإِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾٣٢﴿ [الأعراف].

وقال : « ثُمَّ بَذَنَا مَكَانَ السَّيْئَةِ الْخَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَكَ إِيمَانَنَا الْقَرْبَةُ وَالسَّرْرَةُ فَلَخَذْتُمْ بَغْلَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ » [الأعراف]

وقال : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بْنَيَتْنَا إِلَىٰ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ فَظَلَمُوا إِلَيْهَا ۝ » [الأعراف]

وقال : « ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا نُنْظَرُونَ ۝ » [الأعراف].

وقال في هود : « فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نُنْظَرُونَ ۝ »

وقال : « فَأَسْتَغْفِرُهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۝ »

فما أجمل هذا التناصق وما أجمل هذا الكلام !

ومن ذلك : أي ذكر ياء المتكلم أو حذفها قوله تعالى : « وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشْدًا ۝ » [الكهف].

وقوله : « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَتَّيَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ » [القصص].

فإنه حذف ياء الضمير واجترأ بالكسرة في (الكهف) فقال : (يهدين)، وأبرز الضمير في القصص فقال : (يهديني) وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلم، لأنه مقام التجاء وخوف وخشية. والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يتتجيء إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره إلى التجاء كاملاً، وهذا هو الموقف الأول، فقد خرج موسى خائفاً يتربّض فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالباً منه أن يهديه سواء السبيل، ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الاتجاه وإلقاء النفس كلها أمام خالقه، بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال : « وَلَا تَقُولُنَّ لِشَائِيٍّ إِنِّي فَاعِلُ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشْدًا ۝ » [الكهف].

فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه. ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجيء إليه قدم (الرب) على فعل الهدایة لأنه هو الملجأ فقال « عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ » [القصص].

بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تبانت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهدایة والرشد، فقدم الهدایة وهذا من دقيق الاستعمال.

ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في (القصص) أكثر مما في الكهف فناسب ذكر الياء في القصص.

ثم إن لفظ الهدایة تكرر في القصص التي عشرة مرة. أما في الكهف فقد تردد خمس مرات، فزاد اللفظ في القصص لما زاد ترددہ. وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم كما ذكرت. ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿مَنْ يَهِدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَتَّدٌ﴾ [١٦] بإثبات الياء، في حين قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ يَهِدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَتَّدٌ﴾ [١٧] وفي سورة الكهف: ﴿مَنْ يَهِدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَتَّدٌ﴾ [١٨]. بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أن لفظ الهدایة تردد في سورة الأعراف أكثر مما تردد في سوري الإسراء والكهف مجتمعتين. فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرة، في حين ورد في الإسراء ثمانية مرات وفي الكهف ست مرات، فلما زادت لفظ الهدایة في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ: (المهتدي) على ما في السورتين.

وقال: ﴿لَئِنْ أَخَرَتْنَ إِلَيْكُمْ أَلْفَيْنَ سَمَاءً﴾ [١٩] [الإسراء] بالاجتزاء بالكسرة.

وقال: ﴿لَوْلَا أَخَرَتْنَ إِلَيْكُمْ أَجْلَ قَرِيبٍ﴾ [٢٠] [المنافقون]، فذكر الياء. وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة (المنافقون) في حين ذكر مرة واحدة في سورة (الإسراء) فزاد في موطن الزيادة وحذف في موطن الاجتزاء.

ونعود إلى آتي الهدایة في القصص والكهف، فنقول علاوة على ما مر: إن مقام التبسيط والتطويل في (القصص) في قصة موسى أكثر بكثير مما ورد في (الكهف)، فإن المقام في (الkehf) مقام إيجاز جاء عرضاً في أثناء قصة أصحاب الكهف. فلما طوّل الكلام وتبسيط طوّل الفعل بذكر الضمير في (القصص)، ولما اجتنأ القول في (الكهف) اجتنأ بذكر الكسرة عن الضمير، وهو نظير ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين.

ومما حسّن الحذف في الكهف علاوة على ما ذكرنا حذف الياء من لفظ الهدایة في موضع آخر من السورة، واجتزاؤه بالكسرة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِي إِلَهُ فَهُوَ الْمُهَدِّدُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لُّهُ وَلَيَأْتِ مُرْشِدًا﴾ [الكهف] هذا علاوة على حذف الياء في مواطن أخرى متعددة من هذه السورة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَا لَأَوَلَدْأَ﴾ [الكهف] بحذف الياء من (ترني)

وقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَهَنَّمَ﴾ [الكهف] بحذف الياء من (يؤتني) قوله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف] بحذف الياء من (تعلمني)

وقوله: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾ [الكهف] بحذف الياء من (نبغي).

فانظر كيف تعاضد المعنى والسياق والألفاظ والإحصاء على وضع كل لفظة في موضعها. ومن هذا النوع من الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِ﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِ﴾ [المائدة]

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشُوْا الْكَاسَ وَأَخْشُوْنِ﴾ [المائدة].

ذكر الياء في (اخشوني) في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آيتها المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيتهم أكثر بكثير مما في الموطنين الآخرين، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغير وأثروا القول فيه، فاستدعاي ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال: (فلا تخشوه وخشوني). فقد بدأت الآيات بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِيلَنِيمُ الَّتِي كَافَأْتَنِيهَا قُلْ لِلَّهِ الْمُسْتَرِيقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة].

إلى أن يقول:

﴿وَمَنْ حَيَثُ خَرَجْتَ فَوَلِ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا أَنَّهُ يُغَنِّفِلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَمَنْ حَيَثُ خَرَجْتَ فَوَلِ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيَثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وَجْهَكُمْ

سَطْرٌ لَّعْلًا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَيْنَكُمْ حَجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِي وَلَا تَمْنَعُ
عَيْنَكُمْ وَلَعْلَكُمْ تَهَدُوْنَ ﴿١٦﴾ [البقرة].

في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة . قال تعالى: « حُرِّمت عَيْنَكُمْ الْمِيَّتَةُ وَالَّدَّمُ وَلَحْمُ
الْخِنْزِيرِ ﴿٢﴾ [المائدة] ثم قال: « أَلَيْوَمْ يَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِيْنِكُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ
وَأَخْشُوْنِ ﴿٣﴾ [المائدة] فالكافر يائسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله وأعلى كلمته .

فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر ، بخلاف آية المائدة التي أنزلت بعدما أظهر الله دينه .

وكذا الأمر في الآية الأخرى وهي الآية ٤٤ من سورة المائدة ، فإنه ليس فيها ما يستدعي الخشية من الناس ، وليس فيها إرجاف ولا محاربة . قال تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَوُرُورٌ يَخْكُمُ بِهَا أَنْتَيْوَتَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ هَادُوا وَالرَّبَّيْنِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا أَسْتُحْفِظُوْمِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَيْنَهُ شَهِدَاءَ فَلَا تَخْشُوْا النَّاسَ
وَأَخْشُوْنِ ﴿٤٤﴾ [المائدة] .

فانت ترى أن سياق آية البقرة وما فيها من خصومة ومحاجة ومحاربة يستدعي جانباً كبيراً من الخشية ، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم الاكتئاث بأقوال المرجفين ، بخلاف ما في الآيتين الآخريين .

ثم انظر طول السياق وتكراره في سورة البقرة فقد بدأ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ أَسْفَهَاهُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدُهُمْ عَنْ قِلَّبِهِمْ أَلَّا كَانُوا عَيْنَهُمْ ﴾ ﴿١١﴾ [البقرة]

وقوله : « وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ أَلَّا كُنْتَ عَيْنَهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَبَعُ الرَّسُولَ مِنَ يَنْقِلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ
وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴿١٢﴾ [البقرة]

فذكر أن تغيير القبلة كبير عند الناس .

ثم ذكر بعدها : « قَدْ زَرَى نَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْتَكَ قِبْلَةً تَرْضَهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسِاجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطَرُهُ » [البقرة: ١١٦]

ثم أخبر أن الذين أوتوا الكتاب لا يتبعون قبلة الرسول مهما جاءهم بالبيانات فقال : « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَرْعَوْ قِبْلَتَكَ » [البقرة: ١١٧] وهكذا .

فأنت ترى أنه أطال القول هنا ، فكان المناسب أن يطيل بذكر الضمير أيضاً . وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف ما في الآيتين الآخريتين .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إنه أبرز الضمير (الياء) في سياق آية البقرة أكثر مما في الموطنين الآخرين من مثل قوله : (واخشوني) و : (ولاتم نعمتي) (فاذكرولي) (واشکروا لي) وغيرها .

فناسب كل ذلك ذكر الياء في آية البقرة بخلاف آياتي المائدة .
وهذا كما ترى نظير ما مر من ذكر الياء وحذفها آنفاً .

وشبيه بهذا الذكر والحدف وليس منه قوله تعالى :

« هَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَنَّ رَبِّكَ أَوْ يَأْتِيَنَّ بَعْضُ مَا يَكْتُبُ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَكْتُبُ رَبِّكَ لَا يَفْعُلُ نَفْسًا إِيمَنْتَهَا لَمْ تَكُنْ عَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُوْنَا إِنَّا مُنْظَرُوْنَ » [الأنعام: ١٢٥]

وقوله : « وَلَقَدْ جِنِنْتُمْ يَكْتُبُ فَصَلَّتُهُ عَلَى عَلِيٍّ هَذِي وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » هَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِيَنَّ تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَاعَةٍ فَيَشْفَعُونَا لَنَا أَوْ تَرُدُّ فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُمَا نَفْعَلُ قَدْ حَسِرُوا أَنفُسُهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » [الأعراف: ٣٥]

وقوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ وَمَا نَوْزِعُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ » يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا يَذْهِهِ فَمِنْهُمْ شَيْئٌ وَسَعِيدٌ » [هود: ١٠٦]

فحذف الياء من (يأت)، واجترأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين السابقتين . ولهذا الحذف سببه . فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين

كفروا للعذاب . كما تردد الوعد بقرب نزوله فقد قال : ﴿ وَلَيْسَ أَخْنَانَهُمْ أَعْذَابَ إِلَّا
أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ لَيَوْمٍ مَا يَحْسَهُمْ ﴾ [هود] .

وقال قوم نوح : ﴿ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَاءَتْنَا فَأَنْكَرْتَ إِذَا جَاءَنَا فَإِنَّا إِمَّا تَعْدُنَا إِنْ كَثُنَتْ
مِنَ الْصَّادِقِينَ ﴾ [هود] .

وقال صالح لقومه : ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا سُوءٌ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [آل عمران] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٌ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود] .

وقال في قوم لوط : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصَّبْحُ أَلَيْسَ الْأَصْبَحُ يَقْرِيبٌ ﴾ [آل عمران] [هود] .

وقال في موطن آخر : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ [آل عمران] [هود] .

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله ، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم ، ثم ذكر أن يوم القيمة آتٍ وأنه سيحل فيه عقاب الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة ، وإن هو إلا أجل محدود فيحل . فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان ، وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى .

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعاً وعشرين مرة وفي (هود) ثلاثة عشرة مرة ، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كفر البناء ، ولما قل ترددته في هود قلل من البناء . وهو نظير ما في (المهتد) و (المهتدى) وغيرها مما سبق ذكره .

ويمكن أن يضاف شيء آخر : وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه ، حذف من الكلام حذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال : (تكلّم) ولم يقل : (تتكلّم) إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت . وهذا مما يدعوه إلى العجب .

ومن بديع الذكر والحدف قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةَ أَصْحَابَ الْأَنَارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدْ رَبِّكُمْ حَقًا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَنَ مَوْزِنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَقَنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف].

فقال في أصحاب الجنة: (ما وعدنا ربنا حقاً) وقال في الكافرين: (ما وعد ربكم حقاً) ولم يقل: (ما وعدكم) وذلك أن الكافرين كانوا منكرين لأصل الوعد والوعيد، وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط، فكانه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟ بخلاف المؤمنين فإنهما كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال: (وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًا). جاء في (الكشف) في هذه الآية: «إِنْ قَلْتَ هَلَا قَيْلَ: مَا وَعَدْكُمْ رَبِّكُمْ كَمَا قَيْلَ: مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا قَلْتَ: حَذْفَ ذَلِكَ تَخْفِيفًا لِدَلَالَةِ (وَعَدْنَا) عَلَيْهِ. وَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: أَطْلَقَ لِيَتَنَاهُ كُلُّ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعَقَابِ وَسَائرِ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُكَذِّبِينَ بِذَلِكَ أَجْمَعُ، وَلَأَنَّ الْمَوْعِدَ كُلُّهُ مَا سَاءُهُمْ، وَمَا نَعِيمُ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِلَّا عَذَابٌ لَهُمْ، فَأَطْلَقَ لِذَلِكَ»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَوْلًا عَنْهُمْ حَقَّ حِينَ ۖ وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يَبْصِرُونَ ۖ ﴾ [الصفات].

وقوله: ﴿ وَنَوْلًا عَنْهُمْ حَقَّ حِينَ ۖ وَأَبْصِرُ فَسَوْفَ يَبْصِرُونَ ۖ ﴾ [الصفات] فذكر الضمير في: (أبصراهم) الأولى وحذفه من الثانية فقال: (وابصر).

قالوا: وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرهم وشفاء صدور المؤمنين قال: (وابصرهم).

وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق فقال: (وابصر) لأنّه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر. فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل

(١) الكشف ٥٤٩/١.

مكّة وقد حل عليهم العذاب وحدهم قال: (أبصّرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصّر). جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين: «وَمَنْ فَوَّا دُعَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ فِي الْأَوَّلِيَنَ: (أبصّرهم) وفي هاتين: (فَأَبصّر) أَنَّ الْأَوَّلَىٰ بِنَزْوَلِ الْعَذَابِ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ قَتْلًا وَأَسْرًا وَهَزِيمَةً وَرَعِيَاً. فَلَمَّا تضمنَتِ التَّشْفِيَّ بِهِمْ قِيلَ لَهُ: (أبصّرهم).

وأما يوم الفتح فإنه اقترب بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في إسلامهم لعينه قرة ولقلبه مسحة فقيل له: (أبصّر)»^(١).

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلٍ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ﴾ [يونس].

فاحذف (به) من آية الأعراف، بخلاف آية يونس، وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقَرَىٰ إِيمَانُهُمْ وَأَنْفَقُوا لَفَنَحَنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتُنَا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوْا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٢) [الأعراف].

فأطلق التكذيب ولم يذكر بما كذبوا، وهو نظير الإطلاق في الآية التي بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ولم يذكر بماذا كذبوا.

في حين أن السياق في يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى: «وَأَغَرَّنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِثَائِبَتِنَا»^(٣) [يونس] وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها (بما كذبوا به).

فانظر كيف قال في الأعراف: (ولكن كذبوا فأخذناهم) وقال: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) فلم يذكر بماذا كذبوا.

(١) البرهان ٢٣/٣.

وانظر كيف قال في يومنس: (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ثم قال بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) فذكر لماذا كذبوا في الموطنين، فاستدعي كل سياق ما ورد من ذكر وحذف.

ثم انظر السياق بعد كل من الآيتين فقد قال في سورة الأعراف: ﴿تُمَّ بَعْثَاتِنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ يَأْيَتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة يومنس: ﴿تُمَّ بَعْثَاتِنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ يَأْيَتِنَا﴾ [يومنس]. فذكر في الأعراف أنه بعث موسى. وفي يومنس ذكر أنه بعث موسى وهرون فزاد ذكر (هرون). فانظر كيف لما زاد (به) في الآية الرابعة والسبعين وزاد (بآياتنا) في الآية الثالثة والسبعين زاد (هرون) في السياق. فآية دقة هذه؟ وأي فن هذا أيها الناس؟!

جاء في (البرهان) للكرماني أنه ذكر في يومنس: (بما كذبوا به) «لأن أول القصة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْيَةِ أَمْسَوْا﴾ [الأعراف]. وفي الآية: ﴿وَلِكِنْ كَذَّبُوا﴾ وليس بعدهاباء فختم القصة بمثل ما بدأ به.

وكذلك في يومنس وافق ما قبله وهو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾ [يومنس] (كذبوا بآياتنا) فختم بمثل ذلك فقال: (بما كذبوا به)^(۱).

ومن طريف الذكر والحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه، فقد ذكر القرآن الكريم الاسم الموصول في مواطن، وحذفه في مواطن أخرى، فقد قال مرة: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [طه] بتكرير الاسم الموصول. وقال مرة أخرى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة] فلم يكرره. وقال مرة أخرى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت].

وقال مرة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر] وقال مرة أخرى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد].

(۱) البرهان للكرماني ۱۸۹-۱۸۸ وأنظر درة التنزيل ۱۶۵-۱۶۶.

وهذا يقتضينا المسائلة عن سبب ذكر ما ذكر وحذف ما حذف، إذ من المعلوم أنه لابد في الكلام البليغ من سبب للذكر والمحذف، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي هو أعلى الكلام.

لقد ذكر بعضهم أنه تأمل ما في التنزيل العزيز من قوله تعالى: (من في السماوات والأرض) و: (من في السماوات ومن في الأرض) وقوله: (ما في السماوات والأرض) وقوله: (ما في السماوات وما في الأرض) فوجد «أنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود في سورة يونس^(١) من نفي الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي^(٢) من إحاطة الملك.

وحيث قصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس وللإهتمام بما هو المقصود في تلك الآية. ألا ترى في سورة الرحمن^(٣) المقصود منها علو قدرة الله تعالى وعلمه و شأنه وكونه مسؤولاً ولم يقصد السائلين^(٤) .

وهذا صحيح فإن إذا قصد التنصيص على الأفراد، ذكر الموصول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُنَيَّحُ فِي الْأَصْوَرِ فَصَعِقَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ أَن يَأْنِي [الزمر]﴾ فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السماوات والأرض على وجه التخصيص فكرر (من) لذلك. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَيَّحُ فِي الْأَصْوَرِ فَفَزَعَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ أَن يَأْنِي [النمل]﴾.

غير أن هذا واحد من الأسباب التي تدعو إلى تكرار الاسم الموصول وليس هو السبب الوحيد. وهناك أسباب أخرى للتكرار منها:

(١) يعني قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الظَّاهِرَاتِ إِن يَتَّبِعُوا إِلَّا لِظَّنَنَ وَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس].

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿لَمْ يَمِنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَرِيدُ﴾ [البقرة].

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْمِنُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ﴾ [الرحمن].

(٤) البرهان ٤/٧٣-٧٤.

أنه إذا كان الموطن دالاً على التفصيل والإحاطة كرر الاسم الموصول، بخلاف ما إذا كان الكلام مجملًا غير مفصل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا فَيَتَّسَمُّونَ بِمَا عَلِمُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسْوَهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [آل عمران: 18] ألم تر أنَّ الله يعلم مَا في السموات وما في الأرض ما يكُونُ من نجوى ثلة إلَّا هُوَ رَاعِيُهُمْ وَلَا خَمْسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادِيهِمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا إِنَّمَا يُتَّسَمَّ بِمَا عَلِمُوا يَوْمَ الْقِيَمةِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7].

فكسر (ما) قائلًا: (يعلم ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لأنَّ الموطن موطن إحاطة وتفصيل، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ بِاللَّهِ بَيِّنَ كُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَنْطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الظَّاهِرُونَ﴾ [العنكبوت: 50] فلم يكرر (ما).

وأنت تحس الفرق واضحاً بين الموطنين والسياقين، فإنَّ في آية المجادلة من ذكر لسعة علم الله وشموله وإحاطته بالجزئيات والتفصيات ماليس في آية العنكبوت، فقد ذكر في آية المجادلة أنه لا يندر عنه شيء ولا يغيب عنه مجلس قل أو كثر، ثم يبني الله أهله بكل ما قالوا وما تناجوا به، أحصاه الله ونسوه وهو بكل شيء عليم. فأنت ترى في آية المجادلة من التفصيل ما ليس في آية العنكبوت. فلما فصل في آية المجادلة أعاد ذكر (ما) ولما أجمل في العنكبوت أجمل في ذكر الموصول فلم يعد ذكره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا وَمَا حَتَّىٰ الْثَّرَى﴾ [طه: 59] فكرر (ما) لأنَّ الموطن موطن شمول وإحاطة وتفصيل، فقد ذكر أنَّ له (ما في السماوات) و (ما في الأرض) و (ما بينهما) و (ما تحت الشري) بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصْبَأُوا فَيَنْهَا اللَّهُ نَنْهَوْنَ﴾ [النحل: 50] فأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين في التفصيل والإحاطة، فكرر في موطن التفصيل وأجمل في موطن الإجمال.

ونحوه قوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۖ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلْجُعُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْجُحُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۖ ۝» [سباء].

فالتفصيل في هاتين الآيتين واضح، ولذا كرر الاسم الموصول بخلاف قوله تعالى: «وَقَالُوا أَخْنَدَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ لَهُ قَدْنُونَ ۖ ۝» [البقرة].

ونحو ذلك قوله تعالى: «وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآتَاسِ ۖ ۝» [الرعد] فلم يكرر الموصول في حين قال: «أَنْتَ رَأَيْتَ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ ۝» [الحج].

فكسر (من) هنا بخلاف الآية الأولى. ومقام التفصيل واضح في آية الحج، فقد ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيراً من الناس بخلاف آية الرعد. في مقام التفصيل كرر وفصل وفي مقام الإجمال أجمل وأوجز.

وقد يكون إعادة ذكر الموصول لأمر آخر وهو ذكر أمر يتعلق بصلة، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا كرر الاسم الموصول فقال: (ما في السماوات وما في الأرض) فإنه يريد أن يخص أهل الأرض بذكر أمر من الأمور، وإذا لم يكرر (ما) فإنه لا يريد أن يذكرهم بأمر خاص بهم. ويتبين هذا في آيات التسبيح خاصة نحو قوله تعالى: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ۝» [ال الحديد] و «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ ۝» [الحشر].

فحديث كسر (ما) في آيات التسبيح فإنه ذكر أهل الأرض بعدها، وحيث أجمل لم يذكرهم. وإليك أمثلة على ذلك:

قال تعالى في (سورة الحديد): «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ ۝ لَمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْلَمْ وَيَمْلِئُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ ۝» [الحديد].

وقال في (سورة الحشر): «سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيْرِهِمْ لِأَوْلَى الْحَشْرِ ۗ» [الحشر].

فأنت ترى أنه في آيات الحديد لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض، بخلاف آية الحشر فقد قال بعدها: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا...» ويستمر في ذكر أحوالهم.

ويذلك على ذلك أنه في آخر سورة الحشر لم يكرر (ما) حين لم يذكر شيئاً عن أهل الأرض بعد الآية، فقد قال: «هُوَ اللَّهُ الْخَلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ» [الحشر]. فكرر في أول السورة وأجمل في آخرها لما ذكرناه والله أعلم.

ونحوه ما جاء في سورة الصاف، قال تعالى: «سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ يَكْتُبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوهُنَّ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَمْ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَيِّلٍ لِهِ صَفَا كَانُوكُمْ بُتَّينَ مَرْضُوصُ ۚ» [الصف].

ويمضي في الكلام على أهل الأرض فكرر (ما) لأنه خص أهل الأرض بعدها بالذكر، ونحوه قوله تعالى: «يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ بَرُّوْلًا مِنْهُمْ يَشْأُلُوا عَنْهُمْ إِيمَانَهُمْ وَرِزْكَهُمْ وَيَعْلَمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لِفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ وَإِنْ هُوَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوهُمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ» [الجمعة]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: «يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنِيكُمْ كَافِرٌ وَمَنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ» [التغابن]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

فكـل موطن كـرـر فـيـه (ما) أـعـقبـه بالـكـلام عـلـى أـهـل الـأـرـض. فـيـ حـيـن قـالـ فـيـ سـورـة النـور: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَنَّافٌ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَانُهُ وَسَبِّحَهُ وَاللَّهُ عَلِيهِ مِمَّا يَفْعَلُونَ ۖ وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ۖ أَلَزَّرَ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِحُ سَحَابَهُمْ يُؤْلِفُ بَيْنَهُمْ... ۖ يُقْبِلُ اللَّهُ أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ... ۖ» [النـور].

فلم يكرر (من) إذ لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض^(١). ونكتفي بهذه النماذج وإنما ذلك لأن الأمر يطول ويطول.

ثم نأتي إلى القسم الثاني: وهو ما ذكر في موطن ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف لنرى كيف يكون الكلام المعجز، لنرى كيف تكون الصياغة العجيبة في فن القول والتعبير. لنرى الكلام الذي قالت فيه الجن حين سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فُرْقَةً أَنَّا عَجَبْنَا بِهِ يَهْدِي إِلَى الرَّشِيدِ فَقَاتَمَاهُ هُنَّ لُثُرَكٍ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن].

القسم الثاني:

وهو أن يذكر في موطن ما لا يذكره في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما هو قد يزيد لفظاً أو أكثر مراعاة لما يقتضيه السياق أو يستدعيه المقام.

فقد يزيد حرفأً في مكان ولا يذكره في مكان آخر حسبما يقتضيه موطن الكلام. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَّ أَخْذَ اللَّهُ سَمَعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهُ يَأْتِي كُمْ بِهِ أَنْظُرْرَ كَيْفَ تُصْرِفُ الْأَيَّتِنَ شَهَدُهُمْ يَصْدِقُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُكُمْ إِنَّ أَنْتُكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَقْتَةٌ أَوْ جَهَرَةٌ هَلْ يَهْلُكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال مرة: (رأيتم) ومرة أخرى: (رأيتكم) بزيادة الكاف. وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكييد الخطاب، وذلك لأن يكون المخاطب غافلاً أو يكون الأمر يوجب زيادة التنبيه. وإنما فرق بين الخطابين هنا لسببين والله أعلم:

(١) انظر: معاني التحو - الاسم الموصول.

الأول : أنه قال في الآية الأولى : «أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ» فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبية والخطاب ، وذلك أنّ فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيادة خطاب وتنبية أكثر من السويء فقال فيما بعد : (أرأيتمكم).

والسبب الثاني : أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعداها ، فإن فيها عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر ، فاحتاج الموقف إلى تنبية أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب .

وقد تقول : ولم قال تعالى في سورة يونس : «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦﴾» [يونس] ولم يقل : (أرأيتمكم) كما قال في الآية السابقة ، أو كما قال في آية أخرى من سورة الأنعام فقد قال : «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١١﴾» [الأنعام] والآيات متشابهة والموقف واحد؟

والحقيقة أن الموقف مختلف والسياق غير متفق . فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجرد ، بل تؤخذ في مواطنها وسياقها ، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى كل نص أدبي ، فإن اللغة ليست جملًا مفردة بل هي مواقف ومواطن ، وقد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر .

وإليك إيضاح الفرق بين الآيتين :

قال تعالى في سورة الأنعام :

«وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعِيَاتِنَا صُمٌّ وَبَكْمٌ فِي الظُّلْمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١١﴾» [الأنعام] .

فأنت ترى أنه وصف الذين كذبوا بآيات الله بالصم والبكاء وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبية وخطاب ليسمعوا وليعوا . وهذا شبيه بالموقف الذي سبق أن ذكرناه آنفًا في قوله تعالى : «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ» [الأنعام] بخلاف سورة يونس التي ليس فيها هذا الأمر . جاء في

(البرهان) : « وأما أرأيتك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهم التاء والكاف. والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبئها (كذا) على مبنها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.

قال أبو جعفر بن الزبير : « الإitan بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحکام غفلته، كما تحرک النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس [٥٠] لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَعْلَمُ الْسَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ [يونس]. »

إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتتبیههم بما لم يبق بعد إلا التذکیر بعذابهم» انتهى^(١) ومثل هذا الذکر والمحذف قوله تعالى :

﴿ يَتَاهُلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلَتِ التَّوْرِيدَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هـ تأثِّمُ هؤلاء طَجَّاجُهُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فِيمَ لَمْ يَرَوْهُمْ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنَّهُمْ لَا يَقْلِمُونَ ﴾ [آل عمران].

وقوله :

﴿ وَلَا يُجَدِّلُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَشِيمًا ﴾ هـ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعْهُمْ إِذَا يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ هـ تأثِّمُ هؤلاء جَدَلَتْهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَنْهُمْ وَصِيكِيلًا ﴾ [النساء].

فذکر (ها) التنبیه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران : (ها أنتم هؤلاء) لأنه أراد أن يقرعهم ويزيد في تتبیههم ولوهمهم لأنهم جادلوا بالباطل وهم يعلمون، فكرر التنبیه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال : (ها

(١) البرهان ٤-١٥٢.

أنت هؤلاء حاجتهم)، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبئهم ولو لم يتعظوا فلا يقفو مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبئهم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً: (ها أنت أولاء تحبونهم) فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبئ واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿يَتَأَكِّلُهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا لَا تَخْدِنُوهُ بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَيْلًا وَدُوَّاً مَا بَدَّتِ الْبَغْضَةُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الْآيَتِ إِنْ كُنْتُمْ تَسْقَلُونَ ﴾١٦﴾ هَاتَنْتُمْ أُولَئِكُمُ الْمُجْهُونُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوْكُمْ قَالُوا مَأْمَنَا وَإِذَا حَلَّوْا عَصَمُوا عَلَيْكُمُ الْأَكْنَامَ مِنَ الْأَيْنَطِ﴾ [آل عمران] .

فانت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهو ليس موقف تقرير ولو كلاماً ثالثاً.

وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبئ فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمٍ يَكْسُبُونَ ﴾٢٥﴿ قَالَ هُمْ أُولَئِكُمْ عَلَىٰ أُثْرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَرَضِي ﴾٢٦﴿ طه﴾ .

فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.

فانت ترى أن التنبئ أتي به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه. فقد يكرر أو لا يذكر التنبئ بحسب الحاجة إليه^(١).

ومن ذكر التنبئ وعدمه قوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾١٧﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا إِذَا نِدِيَ ﴾٢٨﴾ [البقرة].

فلم يجيء بـ (ها) التنبئ في الموطنين في حين قال:

﴿أَمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الْأَرْضِ إِنَّ الْكُفَّارَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ ﴾٢٩﴾ أَمَنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بِلَجُوْا فِي عُتُقٍ وَنَفُورٍ ﴾٣٠﴾ [المulk].

(1) انظر معاني النحو بباب أسماء الإشارة.

فجاء بـ (ها) التنبية. وسبب ذلك - والله أعلم - أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق. فالآية الأولى خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لِيُنَتَّلِهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظَاعَ غَلِيلَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلَكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَارِزُهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَّزْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَسْتَوْكُلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

واية سورة الملك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله وبطشه قال تعالى: ﴿أَمَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هُوَ تَمُورُ﴾ [١١] أَمْ أَمْنَتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [١٧] وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ تَكَبِّرُ﴾ [١٨] . . . أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الْرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفَّارَ إِلَّا فِي عُرُورٍ﴾ [٢٠] أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَجُوافِ عَتْرٍ وَنَفُورٍ﴾ [٢١] [الملك].

فالسياق والجو مختلف في الآيتين، فالآولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد. وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء بـ (ها) التنبية زيادة في التحذير والتنبية وهو ما يقتضيه المقام.

وقد تقول: ولم قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا يُبَدِّلُهُ﴾ [البقرة] . . . من دون تنبية في حين قال: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الْرَّحْمَنِ﴾ [٢١] . . . أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ . . .﴾ [الملك] ذكر التنبية، والمقامان متباينان؟

والحق أن المقامين مختلفان وليسوا متباينين، وذلك أن آيات سورة الملك في خطاب الكافرين - كما ذكرنا - وليس كذلك سياق آية الكرسي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.

فقد قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا يُبَدِّلُهُ﴾ [البقرة] والشفيع طالب حاجة مرتاج قضاءها عالم بأن الأمر بيده من هو أعلى منه، فهو متلطف بسؤاله في

ع^{١٦} حين قال في سورة الملك: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدُكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ . . . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَجُوا فِي عَوْنَوْ وَنَفْرُو^{١٧}» [الملك] وهذا كما ترى موقف ندّ وليس موقف شفيع . فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلا ندّاً لله سبحانه ، تعالى الله عن الند ، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله . ولذا سأّل رب العزة قائلاً: من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبية . هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين !! .

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة.
فما أعظم هذا الكلام وأجله!

ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لِأَيْمَهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَيْفَكُلُّ أَهْلَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ﴾ الْعَنَمَيْنَ ﴿[الصفات].﴾

وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً : « وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ بَأْ إِبْرَاهِيمَ ١١ إِذْ قَالَ لَأُمِّهِ وَقَوْمِهِ، مَا تَعْبُدُونَ ٧٦ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَظَلَّ هَا عَنْكُمْ ٧٧ » [الشعراء].

فقال في الآية الأولى: (ماذا تعبدون) وقال في الثانية: (ما تعبدون).

وهناك فرق بين (ما) و (ماذا) في الاستفهام، فإن في (ماذا) قوة ومباغة في الإستفهام ليست في (ما)، ففي قولك (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟) ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها. ويidel على ذلك الاستعمال القرآني^(١) ومن ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما. فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ (ماذا) وفي الثانية بـ (ما) لأن الأولى في موقف تحدّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف الثانية، بذلك علم ذلك السياق.

فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقرير، ولذلك لم يجيئه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله: ﴿أَيْفَكَا إِلَهٌ دُونَ اللَّهِ تُرْدِينَ﴾ [الصافات].

(١) انظر كتابنا: (معاني النحو) باب الاستفهام.

وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجة إذ قال لهم: ما تعبدون؟
فأجابوه: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.

فسألهم: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٧﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضْرُبُونَ ﴿٦٨﴾» [الشعراء].
فأجابوه قائلين: «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا إِبَّانَاهَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾» [الشعراء].

فأنت ترى أن المقام مقام محاجة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدٌ وتقرير
ومجابهة.

ويوضح ذلك نهاية القصتين.

ففي آية الشعراء قال: «قَالَ أَفَرَوْيَشُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ أَنْتُمْ وَمَا بَأْوُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٰتٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾» [الشعراء - وما بعدها].

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.
«فَرَاعَ إِلَىٰهِنِيمٍ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾ فَرَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرَبًا بِالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ . . .
قَالُوا أَبْتَأْلُمُ بِمَيْتَنَا فَأَلْقُهُمْ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ . . . وَمَا بَعْدُهَا» [الصافات].

فتشمة فرق كبير بين النهايتين وبين السياقين. فجاء في مقام المجابهة وشدة
التحدي بـ(ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ(ما).

جاء في (درجة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن زيادة (ذا)
في قوله في الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء ما في الشعراء منها.

والجواب أن يقال: إنَّ قوله (ما تعبدون) معناه: أي شيء تعبدون؟
وقوله: (ماذا تعبدون) في كلام العرب على وجهين:

أحدها: أن تكون (ما) وحدها اسمًا و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي
تعبدون. و (تعبدون) صلة لها.

والآخر أن تكون (ما) مع (ذا) اسمًا واحدًا بمعنى: أي شيء. وهو في
الحالتين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل: ما تفعل؟ و (ما تعبدون) في سورة
الشعراء إخبار عن تنبئه لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم،

فأجابوه وقالوا: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَرُلَّهَا عَنِّكُفِينَ﴾^(١) فنبه ثانياً بقوله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾^(٢)

وأما (ماذا تعبدون)؟ في سورة الصافات فإنها تقرير، وهو حال بعد التنبيه. ولعلمهم بأنه يقصد توبتهم وتبكيتهم لم يجيبوا بإيجابتهم في الأول. ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يستدع منه جواباً فقال: ﴿أَيْفَكَا إِلَهٌ دُونَ اللَّهِ رُبِّ الْعِزَّةِ فَمَا ظَنُوكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) [الصافات].

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية. ولما بالغ وقع استعمال اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها. وإن جعلا إسماً كان أيضاً أبلغ وأوكد مما إذا خلت من (ذا) ^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَوْمَ ثُقْبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَنْبَتَنَا أَطْعَنَا اللَّهُ وَأَطْعَنَا الرَّسُولُ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضْلَلُونَا السَّبِيلَ﴾^(٥) [الأحزاب].

فمد (السبيل) في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها: ﴿وَآتَاهُمْ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(٦) [الأحزاب] فلم يمدّه.

وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمدّ، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفعه، بخلاف الآية الثانية.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا الْوَطَاسِيَّةُ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾^(٧) [هود].

وقوله:

﴿وَلَمَّا آتَى أَنْجَاءَتْ رُسُلُنَا الْوَطَاسِيَّةَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخْفَ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَا كَانَتْ مِنَ الْغَنِيَّاتِ﴾^(٨) [العنكبوت].

(١) درة التنزيل . ٣٣١

فقد زاد (أن) بعد (لما) في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود. فإنه أفاد في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَنَكِبِينَ ﴾١٧﴾ ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ الْتَّكِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَادِكُمْ الْمُنَكَّرَ﴾٢١﴾ [العنكبوت].

ولم يزد في هود على أن قال: ﴿وَمَنْ قَاتَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾٣٧﴾ [هود]. ففصل في عمل السيئات ما لم يفصله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أن) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.

ومن ناحية أخرى أن برم لوط بقومه وضيقه بهم في سورة العنكبوت، كان أظهر وأشد مما في سورة هود. كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود. يدل على ذلك عدة مواضع في القصة: منها قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا آتَى جَاهَاتَ رُسُلَنَا الْوَطَاسِيَّةَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِوْكُ وَاهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنْ الْفَدِيرِينَ﴾٢٣﴾ [العنكبوت].

في حين قال في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوكَارِسِيَّةَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمُ عَصِيَّتِهِ﴾٣٩﴾ [هود].

فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِوْكَ...﴾.

ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجلوا العذاب قائلين: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾٢١﴾ [العنكبوت] فقال ﴿قَالَ رَبِّي أَنْصِرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾٢٢﴾ [العنكبوت] وليس الأمر كذلك في هود، فإنهما لم يصرحا بتکذيه ولم يدع لنفسه بالنصر. ومنها التصریح بلفظ التنجیة ومجيء

الفرج في سورة العنكبوت مرتين،مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿لَنْ يَجِدَهُمْ وَأَهْلَهُمْ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْفَدِيرِينَ﴾ [العنكبوت]. ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُنْجِلُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ [العنكبوت] ولم يرد مثل ذلك في هود.

ولذا حسن ذكر (أن) في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسيط في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطاله الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.

وشبيه بهذه الزيادة للانتظار والترقب قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَهُ بَصِيرًا﴾ [يوسف].

فراد (أن) بعد (لما) وذلك لمناسبة حالة الانتظار والترقب التي كان يمر بهانبي الله يعقوب، فقد كان شديد اللھفة على رؤیة ولده. ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه الحال يستطيع كل لحظة تمر به، ففصل بين (لما) ومجيء البشير وياعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطاله الوقت وطول الانتظار. ولا يؤدي اتصال (لما) بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في (معترك القرآن): «إِنْ قُلْتَ: إِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ لَمْ يَقُلْ فِي تَكْرَارٍ فَلِمَ زَيْدَ (أن) وَلَمْ يَأْتِ عَلَى الْأَصْلِ؟»

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتبعده المدة، ناسب ذلك زيادة (أن) لما في مقتضى وضعها من التراخي^(۱).

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك: «تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهمما السلام، وأن ذلك كان متظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي: (أن) في قوله: أن جاء»^(۲).

(۱) معرك القرآن ۳۵۹/۳ وانظر ملاك التأويل ۵۲۷/۲.

(۲) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ۲۶۳.

ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام: «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌ لَهُمَا قَاتَلَ يَمُوسَى أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَاتَلَتْ نَفْسًا بِالْأَمْمَيْنِ . . . ». (١٦) [القصص] فزاد (أن) بعد (لما) وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبطش بالقطبي في هذه المرة فزاد (أن) للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لصورة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى: «فَأَسْتَعْنُهُ اللَّهَ مِنْ شَيْءٍ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ، فَوَكَرْهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . . . ». (١٧) [القصص] فجاء بالفاء الدالة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنـة (فاستغاثهـ، فوكـهـ، فقضـى عليهـ).

ومما يدلـ على تمـلهـ وعدـ اندـفاعـهـ في المـرةـ الثـانـيـةـ تعـنيـهـ لـصـاحـبـهـ قـائـلاـ: «إـنـكـ لـنـوـيـ مـيـنـ». (١٨) [القصص] حتى ظـنـ صـاحـبـهـ أـنـ يـنـويـ الـبـطـشـ بـهـ بـدـلاـ منـ عـدـوـهـ فـقـالـ لـهـ: «يـمـوسـىـ أـتـرـيدـ أـنـ تـقـتـلـنـيـ كـمـاـ قـاتـلـتـ نـفـسـاـ بـالـأـمـمـيـنـ». (١٩) [القصص]. فزاد (أن) للدلالة على ذاك.

وهذا نظير ما قبلـهـ كماـ هوـ واضحـ.

وقد يزيدـ كـلـمـةـ أوـ أـكـثـرـ فيـ مـوـضـعـ، ولاـ يـذـكـرـهـ فيـ مـوـضـعـ آـخـرـ، كلـ ذـلـكـ حـسـبـمـاـ يـقـتضـيـهـ الـمـعـنـيـ وـالـسـيـاقـ.

فمنـ ذـلـكـ قـولـهـ تـعـالـىـ:

«وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ فَرِحَشَةً وَسَاءَ سَيْلًا». (٢٠) [النساء].

وقـولـهـ:

«وَلَا تَقْرِبُوا الْزِنَقَ إِنَّهُ كَانَ فَرِحَشَةً وَسَاءَ سَيْلًا». (٢١) [الإسراء].

فقد زـادـ قولـهـ: (ومـقـتاـ) فيـ آـيـةـ النـسـاءـ وـذـلـكـ أـنـ «مـتزـوجـ اـمـرـأـ أـبـيهـ فـاعـلـ رـذـيلـةـ يـمـقـتـاـهاـ وـيـشـنـاـ وـتـسـتـخـسـهـ الطـبـاعـ السـلـيمـةـ، فـوـصـفـتـ فـعلـهـ بـالـمـقـتـ، وـساـوتـ الزـنـىـ فـيـماـ وـرـاءـ ذـلـكـ». (١)

(١) مـلاـكـ التـأـوـيلـ ٢٠٠ / ١

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَلِحًا يُكَفَّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخَلَهُ جَنَّةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التغابن].

وقوله:

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَلِحًا يُدْخَلَهُ جَنَّةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الطلاق].

فقد زاد في التغابن قوله: (ويكفر عن سيئاته) دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاهم إلى الإيمان فقال: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يَعْلَمُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّكَ لَتَبْعَثُنَّ إِمَامًا عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ» [التغابن].

ثم قال: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَلِحًا يُكَفَّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ [التغابن].

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاتَّقُوا إِلَّا الْأَكْبَرُ الَّذِينَ مَأْمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذَكْرًا» [الطلاق].

ثم قال: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَلِحًا يُدْخَلَهُ جَنَّتِ . . . ﴾ [الطلاق].

فكان ذكر تكثير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تُنْلَى عَلَيْهِ مَا يَنْتَهَا وَلَنْ مُسْتَكِنَ كَرِمًا كَانَ لَنْ يَسْمَعَهَا كَانَ فِي أَذْنِيهِ وَقَرْأَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لُقْمان].

وقوله:

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثِيرٍ يَسْمَعُ مَا يَنْتَهِ اللَّهُ تُنْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرُ مُسْتَكِنَ كَرِمًا كَانَ لَنْ يَسْمَعَهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية].

فقد زاد في آية لقمان قوله: (كان في أذنيه وقرأ) دون آية الجاثية، وذلك «أن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثِيرٍ يَسْمَعُ مَا يَنْتَهِ اللَّهُ تُنْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرُ مُسْتَكِنَ كَرِمًا كَانَ لَنْ يَسْمَعَهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» [الجاثية].

عَلَيْهِ تَمٌّ» [الجاثية] فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الورق في الأذن لأنه قد ذكر سمعه الآيات. والورق مانع من السمع فلم يناسب الإعلام بالسمع ذكر الورق المانع منه . . .

ولما لم يقع ذكر سمع الآيات في آية لقمان وتقديم ذكر المشار إليه بقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُغَيِّرُ عِلْمًا وَيَتَّخِذُهَا هُزُواً» [لقمان] وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الورق، مع أنه لم يرد فيها ذكر سمعه الآيات كما ورد في آية الجاثية. فازداد ووضوح التلاطم^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ» [المائدة].

وقوله:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ» [التغابن].

فزاد في الآية الأولى قوله: (واحدروا) وقوله: (فاعلموا) مع اتحاد ما تضمنته الآياتان فيما سوى ذلك.

وبسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجره عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَحْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنَصَابُ وَالْأَذْلَمُ يَعْجِسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَنِ فَاجْتَبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَنُ أَنْ يُؤْكِلَكُمُ الْعَذَّةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْفَحْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْأَصْلَوْفِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» [المائدة].

فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير.

(١) ملاك التأويل ٧٨٩-٧٩٠ / ٢

« وأما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يُهْدَ قَبْلَهُ وَاللَّهُ يُكْلِ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ [التغابن] فلما لم يرد هنا نهي عن محرم متأكد التحرير... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك. فجاء كل على ما يحب ويناسب. وليس عكس الوارد بمناسب »^(١).

وقد يزيد الجار وال مجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَقْرُئُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ إِيمَانَكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ إِيمَانَكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ حَبِيبًا ﴾ [الفتح] قوله:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمْكَنَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

فزاد (لكم) في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالَنَا وَاهْلَنَا فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا يَقُولُونَ يَا سَيِّدَنَا مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ إِيمَانَكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ إِيمَانَكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح].

فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمْكَنَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن في الأرض جمِيعاً) كيف عم أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً. جاء في (درة التنزيل) عن سبب ذكر (لكم) في (الفتح) وعدم ذكرها في (المائدة) قوله: إن آية سورة الفتح

(١) ملاك التأويل ٢٧٤-٢٧٥.

«نزلت في قوم تخلعوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلوна، ثم سألوه ﷺ أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم إستمالته كيلا تضرهم عداوته فقال عزوجل: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح] فلما كان في قوم مخصوصين احتاج إلى (لكم) للتبيين.

فاما في هذه السورة [يعني سورة المائدة] فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عم بها. دليله أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. فلما سبقت الآية إلى العموم لم يَحْتَجْ إلى (لكم) التي للخصوص «^(١)». ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِنَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت].

وقوله:

﴿وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِنَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشوري].

زاد في آية (العنكبوت): (ولا في السماء)^(٢) وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسلها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشوري فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْقُوْنَ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الشوري].

فلما كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في

(١) درة التنزيل ٩٤ وانظر ٤٤٣، البرهان للكرماني ٤٣٩، ملاك التأويل ٢٤٧/١ وما بعدها.

(٢) في هذه الآية إعجاز علمي إذ إن فيها إشارة إلى أنهم سيسعدون في السماء وأنه سيكون لهم فيها شأن ومع ذلك فهم غير معجزين في السماء كما أنهم غير معجزين في الأرض. وإلا فأين هم من السماء في ذلك الوقت؟!

القول ويسقط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَبِيبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ فَنَهَا مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . . . ﴾ [المائدة].

وقوله :

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَبِيبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوا عَفُورًا﴾ [النساء].

فزاد (منه) في آية المائدة، وذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً. فلما فصل وبين في آية المائدة وزاد في ذكر الأحكام زاد العjar والمجرور (منه) للزيادة في التبيين. قال تعالى في سورة المائدة: «يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْعَرَافِيَقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْهَرُوْا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدُكُمْ مِّنْ أَهْلَكَتِهِ لَمْسَتْهُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْعُدُوا مَاهَةً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَبِيبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ فَنَهَا مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِطَهْرِكُمْ وَلِتُسْتَعِنَّ بِعَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ﴾ [المائدة].

وقال في سورة النساء: «يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَفْعَلُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا أَعْبَرِي سَيْلَ حَتَّى تَقْنِسُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدُكُمْ مِّنْ أَهْلَكَتِهِ لَمْسَتْهُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْعُدُوا مَاهَةً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَبِيبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوا عَفُورًا﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجملًا أجمل في الذكر، وحيث كان مفصلاً مبيناً زاد وبين، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له. جاء في (البرهان) للكرماني: أنه زاد في آية المائدة (منه) « لأن

المذكور في هذه السورة [يعني النساء] بعض أحكام الوضوء والتيمم فحسن الحذف. والمذكور في المائدة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان «^(١)».

ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ تَرَاهَا﴾ ﴿٢٢﴾

[الحديد].

وقوله:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ﴾ ﴿١١﴾ [التغابن] فقد زاد قوله: (في الأرض ولا في أنفسكم) على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها. جاء في سورة الحديد قوله: «أَعْلَمُوا أَنَّا لَحْيَةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَخُّرٌ بِنَسْكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمْثُلٌ غَيْرُهُ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَاهُمْ ثُمَّ يَهْيَجُ فَرَرِيهِ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ ﴿١٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَاحُهُ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعْدَتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ ﴿١١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ...﴾ ﴿٢٢﴾ [الحديد].

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِيَأْيِتَنَا أُولَئِكَ أَصْحَبُ النَّارِ خَلِيلِنَّ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ...﴾ ﴿١١﴾ [التغابن].

فأنـت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولـذا زـاد في التـفصـيل في الآية المـذـكـورة موـافـقة لـما قـبـلـها. جاءـ فيـ (الـبرـهـانـ) لـلكـرـمانـيـ أنه فـصـلـ فيـ سـورـةـ الـحـدـيدـ وأـجـمـلـ فيـ سـورـةـ التـغـابـنـ «ـ موـافـقـةـ لـماـ قـبـلـهاـ فيـ هـذـهـ سـورـةـ [ـيعـنيـ الـحـدـيدـ]ـ إـنـهـ فـصـلـ أحـوالـ الدـنـيـاـ

(١) البرهان ١٢٨

والآخرة فيها بقوله ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ فَرِيزَةٌ وَقَاتِلُوكُمْ وَكَافِرُونَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد]﴾ (١) .

وقد يكون الذكر والمحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة. فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤١﴾ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٌ ﴿٤٢﴾ وَاصْبَحَ مَدِينَةً كَذِبَ مُوسَى . . . ﴿٤٣﴾ [الحج].

فإنه قال : (وكذب موسى) ولم يقل : (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكن يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في (الكساف) : «إإن قلت : لم قيل : (وكذب موسى) ولم يقل : قوم موسى؟

قلت : لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط» (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَكْبِقُ إِسْرَئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِنَّكُمْ مُصَدِّقُ لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرُ أَنَّ رَسُولًا يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمُهُ أَحَدٌ . . . ﴿٦﴾ [الصف].

وقوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُ لَمْ تُؤْذُنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَفَرَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ . . . ﴿٧﴾ [الصف].

فإنه لم يقل في عيسى : (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في موسى : (وإذ قال موسى لقومه) بل قال : (يابني إسرائيل) وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب (٣) بخلاف موسى.

(١) البرهان ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٣٥٠ / ٢.

(٣) معترك الأقران ٥٣٠ / ٣.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كَذَّابٌ أَخْحَبُ لِيَكَةَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ أَلَا نَنْقُونَ﴾ [الشعراء].

ولم يقل: (أخوه شعيب) كما قال فيمن قبله من الأنبياء: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُونَ» [الشعراء] «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْقُونَ» [الشعراء] «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ صَالِحٌ أَلَا نَنْقُونَ» [الشعراء] وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه: (أخوه) وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعالى: «وَإِنَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا» [الأعراف] بخلاف أصحاب الأيكة. فهو قد أرسل إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة جاء في (الكشاف): «إِنْ قَلْتَ هَلَا قَيْلَ: أَخْوَهُمْ شَعِيبٌ كَمَا فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ؟

قلت: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: (إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة) ^(١).

ومن ذلك ما ورد في قصة نوح وهو قوله تعالى: «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [الأعراف].

وفي قصة هود قوله: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِي كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيْكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظْنُكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ» [الأعراف].

فقد زاد (الذين كفروا) على ملأ قوم هود دون ملأ قوم نوح. قيل: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم. جاء في (الكشاف): «إِنْ قَلْتَ: لَمْ وَصَفِ الْمَلَأُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ؟ قَلْتَ: كَانَ فِي أُشْرَافِ قَوْمِ هُودٍ مِنْ آمَنَ بِهِ مِنْهُمْ: مُرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ الَّذِي أَسْلَمَ وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ، فَأَرِيدَتُ التَّفْرِقَ بِالْوَصْفِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي أُشْرَافِ قَوْمِ نُوحٍ مُؤْمِنٌ.

(١) الكشاف ٤٣٥ / ٢.

ونحوه قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّهُنَّ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِيَقِنَاءِ
الْآخِرَةِ» [المؤمنون] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لغيره^(١).

وقد يكون الذكر والمحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر والمحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في الوضع الذي يتقتضيها وينادي عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: «وَمَا أَتَلَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الشعراء] على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة الشعراء، فنوح قال لقومه: «وَمَا أَتَلَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الشعراء] وكذا قال هود لقومه (الشعراء ١٢٧)، وكذا قال صالح لقومه (الشعراء ١٦٤) وكذا قال شعيب (الشعراء ١٨٠) إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقولا ذاك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ بَأْ
إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ» [الشعراء] فاستحينا أن يخاطب أباه بذلك.

وأما موسى فلأن فرعون رباه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى: «أَلَمْ تُرِيكَ فِينَا
وَلِيَدَا وَلِيَثَتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِينَ» [الشعراء] فلا يليق أن يقول له: (وما أسألك
عليه من أجر). ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن رباه وأنفق
عليه: (لا أسألك أجرأ) فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير.
جاء في (البرهان) للكرماني أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك «لأنه
رباه فرعون حيث قال: ألم نربك فينا وليدا؟»

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: (إذ قال لأبيه
وقومه) وهو رباه.

واستحينا موسى وإبراهيم أن يقولا: (ما أسألكم عليه من أجر) وإن كانوا
متزهدين من طلب الأجرة^(٢).

(١) الكشاف ١/٥٥٤.

(٢) البرهان ٣٥٣.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُهُمْ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أُنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَنْكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ٦١» [المائدة].

وقوله: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجْنَبَنَا مِنْ إِلَيْ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦٢» [إبراهيم].

فزاد في آية المائدة: (ياقوم) ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عدد عليهم النعم الجسماني في أن جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم مالهم يؤت أحداً من العالمين، فحسن ندائهم بـ (ياقوم) وذلك أن الإنسان يحب أن يتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبددين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: «يَنَّقُورُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَنَنْقِلُبُوا أَخْرِسِينَ ٦٣» [المائدة].

فناذاهم بـ (ياقوم) عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتکلیفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تکلیف بأمر، وإنما فيها تذکیرهم بما مر عليهم من محن وعداب. وفرق بين الحالتين.

ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد (ياقوم) لمناسبة طول القصة في سورة المائدة. وهذا خط واضح في التعبير القرآني فاقتضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.

جاء في (البرهان) للكرماني أن «تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به. ولما كان ما في هذه السورة نعماً جساماً ما عليها من مزيد وهو قوله: «جَعَلَ فِيكُمْ أُنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَنْكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» صرح فقال: (ياقوم). ولموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله:

(يَا قوم ادْخُلُوا) (يَا مُوسَى إِنْ فِيهَا) (يَا مُوسَى أَنَا) وَلَمْ يَكُنْ مَا فِي إِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ
الْمَنْزَلَةِ فَاقْتَصَرَ عَلَى حِرْفِ الْخُطَابِ «^(١)».

وَمِنْ لَطِيفِ الذِّكْرِ وَالْحَذْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُمْ ثُمَّ تُرْدُونَ إِلَى عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَيَتَبَثَّكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴽ [التوبه].

وَقَوْلُهُ :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُو وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرْدُونَ إِلَى عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ
فَيَتَبَثَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴽ [التوبه].

فزاد في الآية الثانية قوله : (والمؤمنون) بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين ، وهم الذين يبطون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا من أطلعه رسول الله عليه ، فلم يقل : (والمؤمنون) لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين .

قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا إِنَّ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُمْ
ثُرْدُونَ إِلَى عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَيَتَبَثَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴽ [التوبه].

وقال في الجماعة المؤمنة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُظَهِّرُهُمْ وَتُرَكِّبُهُمْ بِمَا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكُنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ ﴽ [الأنفال] آتُهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْهِيدَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُو وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴽ [التوبه].

جاء في (البرهان) للكرمانى في هاتين الآيتين أن « الآية الأولى في المنافقين ولا يطلع على ما في ضمائركم إلا الله »

(١) البرهان ١٤١ وانظر درة التنزيل ٩٧ ، ملاك التأويل ٢٥١ / ١

تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهم لقوله: «قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ».

والثانية في المؤمنين. وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين. وختم آية المنافقين بقوله: (ثم تردون) فقطعه عن الأول لأنه وعد. وختم آية المؤمنين بقوله: (وستردون) لأنه وعد ببناء على قوله: (فسيري الله)«^(١)».

وجاء في (درة التنزيل) أن الآية الثانية: «فِيمَنْ أَمْرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَهُوَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْهِم الصَّدَقَاتِ بِأَنْ يَقُولُ لَهُمْ: اعْمَلُوا مَا أَمْرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ كَالصَّلَوَاتِ وَالصَّدَقَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ مَا تَرَى بِالْعَيْنِ خَلَفَ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي تَقْتَضِي لَهُمُ النَّفَاقَ لِإِضْمَارِهِمْ خَلَفَ إِظْهَارِهِمْ وَهُوَ مَا لَا يَرَى بِالْعَيْنِ وَإِنَّمَا يَعْلَمُهُ عَالَمُ الْغَيْبِ، فَلَذِكَ لَمْ يَذْكُرِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْأُولَى وَذَكَرُوهُ فِي الثَّانِيَةِ»«^(٢)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ إِنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمًا وَلَا نَصْبٌ وَلَا مُخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغْيِظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنْأَلُونَ مِنْ عَذَابٍ نَّيْلًا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ يَهُدِّي عَمَلُ صَالِحٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُبُعِّيْجُ أَجْرَ الْمُخْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ يَعْجِزُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبه].

فقد قال في الآية الأولى: «إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ يَهُدِّي عَمَلُ صَالِحٍ» وقال في الثانية: «إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ»، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظلم والنصب والمخصصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة. أما الآية الثانية فما جاء فيها كلها من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمال لهم ولذا لم يكن ثمة داع إلى القول: (كتب له به عمل صالح) لأنه عمل حقيقة.

(١) البرهان ٢١٥-٢١٤ وانظر ملوك التأويل ١/٤٧٣.

(٢) درة التنزيل ٢٠٣.

ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين . فقد قال في ختام الآية الأولى : ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن ما تقدم ليس عملا وإنما هو من الإحسان الذي
تدخل فيه عموم العبادات .

وقال في ختام الآية الثانية : ﴿لِيَعْزِيزَهُمُ اللَّهُ أَخْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه من
أعمالهم . جاء في (البرهان) للكرماني أن « الآية الأولى مشتملة على ما هو من
عملهم وهو قوله : ﴿وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغْيِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَذَابٍ نَّيْلًا﴾
وعلى ما ليس من عملهم وهو الظما والنصب والمخصصة .

والله سبحانه وتعالى بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال :
﴿إِلَّا كُبَيْرَ لَهُمْ يَهُ، عَمَلٌ صَنَلُّ﴾ أي : جراء عمل صالح .

والآية الثانية مشتملة على ما هو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله
وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه . وكذلك ختم الآية بقوله : ﴿لِيَعْزِيزَهُمُ اللَّهُ
أَخْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه .

وختم الآية الأولى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حين
الحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم . ثم جازاهم على الكل أحسن
الجزاء «^(١)» .

وجاء في (درة التنزيل) : « فلما كان ما في الثانية عملهم كتب على جهته لم يحتاج
إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو . والأول كان فيه ما ليس بعملهم فكتب به أجر مثل
عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتاج إليها الأخرى .

والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظماً ونصب وجوع فقد أخبر عنه
بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو . إلا أنه يجب له بما وصل إليه من الماء
العطش والجوع والتعب والنصب الأجر ، فلذلك عقبه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي : من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه هذه الشدائـد .

(١) البرهان ٢١٥-٢١٧.

وأما الآية الثانية وتعقيبها بقوله: ﴿يَعْجِزُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلأن جميع ما ذكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن الجزاء على عملهم. وذلك ظاهر والله أعلم «^(١)».

ومن لطيف الذكر الذي يتضمن المعنى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُنُوا كَاشِدَةً وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلِيلٌ﴾ [البقرة: ٣٧].

ولم يكتف بقوله: (إنه آثم) بل أنسد الإثم إلى القلب وذلك لأن الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقيها في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعير بديع. جاء في (الكساف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (آثم) وما فائدة ذكر القلب، والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مفترناً بالقلب أنسد إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراكم تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي. وأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضيفة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكانه قيل: فقد تمكنت الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط «^(٢)».

ومن الذكر الذي يتضمن المعنى أيضاً قوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٠] ، [الأعراف: ٦٧].

وقوله:

﴿وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٩].

فرزد في الآيتين الأوليين: (كانوا) بخلاف آل عمران وذلك أن آتيت البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة:

(١) درة التنزيل . ٢٠٥.

(٢) الكشاف / ١ . ٣٠٧.

﴿ وَظَلَّلَنَا عَيْنَكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلَنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة].

وقال في الأعراف: ﴿ وَظَلَّلَنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلَنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف].

وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى: ﴿ مَثَلٌ مَا يُنَفِّقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلٍ دِيْجَ فِيهَا صِرْ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَاهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمُوهُمْ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران].

ف nanopas ذكر (كان) في آياتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران . جاء في البرهان للكرمانى أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف « إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مثل »^(۱) .

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُوتِنُمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَتَنَعُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَرَيْنَتُهَا . . . ﴾ [القصص].

فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:

﴿ فَمَا أُوتِنُمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَتَنَعُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . ﴾ [الشورى].

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . . . ﴾ [القصص] بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذاك .

جاء في (معترك القرآن) : « فإن قلت: ما وجه زيادة (الزينة) في هذه الآية على آية الشورى: ﴿ وَمَا أُوتِنُمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَتَنَعُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾؟

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ فالتحمت الآية بتلك القصة . ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها

(۱) البرهان ۸۸

حال دنيوي لأحد بل تضمنت حقاره الدنيا وزيارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط . وتلك حال الأكثر «^(١)».

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ كَيْدَهُمْ ثُمَّنَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَثَارًا وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٦٣]

وقوله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّنَا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٠].

فقد زاد في آل عمران : (ولا ينظر إليهم) بخلاف البقرة وذلك لسبعين :

الأول : أن آية البقرة في الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون بكتمانهم هذا ثمناً قليلاً . وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتمون بل في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان . إذ هم لم يكتموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمناً قليلاً . فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل ، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال : (ولا ينظر إليهم) .

والسبب الثاني : أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهد الله فقد قال قبل هذه الآية :

﴿بَلْ مَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَأَتَقَنَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧١] . وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال : ﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧]

(١) معرك القرآن / ٤٢٢ .

فَلِمَا كَانَ الْمَقَامُ فِي آلِ عُمَرَانَ هُوَ الْكَلَامُ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ نَاسِبٌ تَشْدِيدُ الْعَقْوَةِ
عَلَى مُضِيِّعِهِ أَكْثَرُ مَا فِي الْبَقَرَةِ لِأَنَّ السِّيَاقَ يَقْتَضِيهِ.

فَمَا أَجَلٌ هَذَا الْكَلَامُ وَأَعْظَمُهُ!

وَنَكْتَفِي بِهَذَا الْقَدْرِ إِنْ فِيهِ الْكَفَايَةُ وَإِلَّا فَالْأَسْتَقْصَاءُ بَعِيدُ الْمَنَالِ.

مَكْتَبَةُ لِسانِ الْعَرَبِ
www.lisanarb.com

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكدة واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام. وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراوغة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد. فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقدة.

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد رواعت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعياً موطن آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهأً به لأنعدام موجبه، وترى أنه هنا أكد بمؤكدتين وأكده في موطن آخر يبدو شبيهأً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكّدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا فإن المشددة وفي موطن آخر بيان المخففة ويستبدل حرفأً بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن - وليس فيها إلا العجيب - ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهوراً دهشاً مقرراً بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبها فضلاً عن الإتيان بمثله.

ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق.

١- لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكدة في موطن ويتزعه في موطن آخر يبدو شبيهأً به، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.

أ- فمن ذلك مثلاً الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ حَذِيرَتِكُمْ فِيهَا فَلَيَقْسَ مَئْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقوله:

﴿قِيلَ أَدْخُلُوا بَوَابَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا قِئْسَ مَوْى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر].

وقوله:

﴿أَذْخُلُوا بَوَابَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا قِئْسَ مَوْى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر - المؤمن].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بش) فقال: (فليئس مثوى المتكبرين) دون الآيتين الآخريين إذ قال فيهما: (فبئس مثوى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آياتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضْلُلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرْزُونَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الآخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفضض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الآخريين، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنّه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله:
(بئس) فيها وإناء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إنَّ الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل].
﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضْلُلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرْزُونَ﴾ [النحل].

وهو لاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً. ومن هذه صفتة اختياره عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيَعْمَمْ دَارُ الْمُتَقِّينَ﴾ [النحل] فاللام في: (نعم) بإزاء اللام في: (لبس). وليس كذلك الآياتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: ﴿وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرًا...﴾ [الزمر] وقال في سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر] إلى قوله: (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنبهم التي أتواها وعن ذنب غيرهم التي حملوا^(١) عليها ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام «^(٢)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيَعْمَمْ دَارُ الْمُتَقِّينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعْبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُونُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام].

فأكيد ذلك باللام في حين قال:

﴿أَلَّا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِيقَاتُ الْكِتَابِ أَنَّ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُونُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف].

فلم يؤكد باللام.

(١) كما في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).

(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأنعام: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَنَا نُرُدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِإِيمَانِ رَبِّنَا وَلَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٦٧ بَلْ بِدَاهُمْ مَا كَانُوا يُخْفِونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ دُرِّدُوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَلَا يَتَّهِمُ لَكَذِيلُونَ ٦٨ وَقَالُوا إِنَّ هَذِهِ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَعْبُوثِينَ ٦٩ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ مَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٧٠ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِنُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَرِزُونَ ٧١ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعْبٌ وَلَهُوَ أَلَّا دَارٌ أَلَّا خَرَّةٌ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَقْرَأُونَ ٧٢» [الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل قال تعالى: «وَإِذْ قَاتَ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْظِيْنَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ ٧٣ فَلَمَّا سُوَا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبَنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٧٤ فَلَمَّا عَتَّوْا عَنِ مَا هُوَ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُنُوا فِرَدًا حَسِيْبٍ ٧٥ وَلَذِذَنَ رَبِّكَ لِيَتَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُوْمُهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ٧٦ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ ٧٧ رَحِيمٌ ٧٨ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْسَا مِنْهُمْ الْأَصْلَحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْمُحَسَّنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لِعَلَمِهِمْ يَرْجِعُونَ ٧٩ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرْضَ هَذَا الْأَذْنَى وَيَقُولُونَ سَيُعْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلُهُمْ يَأْخُذُهُ أَمْرٌ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ يَمْتَثِّلُ الْكِتَابُ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَقْرَأُونَ ٨٠» [الأعراف].

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدتها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكّد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنّه عاجلهم في الدنيا فقال: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ».

وكذلك آية النحل فالسياق فيها يتحدث عن الدار الآخرة قال تعالى: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِيْهُمْ وَيَقُولُ إِنَّ شَرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْكُّفُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُتْوُا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْنَى الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨١ الَّذِينَ تَوَقَّفُهُمُ الْمَلِئَكَةُ ظَالِمِيْنَ أَنْفُسِهِمْ فَالْقَوْمُ اسْلَمَ مَا

كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِكُنْ فِيهَا فَلِئِسَ مَوْيَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ آتَقْرَأُمَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَقْيَنَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتُ عَدَنٌ يَدْخُلُونَهَا بَحْرٌ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَهْرُّ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَهْرُبِي اللَّهُ الْمُتَقْيَنَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيْبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فَمَنْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿النحل﴾.

فأنـت ترى أنـ الكلام علىـ الدار الآخـرة، فأـكـدـها بالـلام بـخلاف آـيـة الأـعـراف^(١).

وـمن ذـلكـ قولـه تعالى:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكَنَّهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلَيَأْتُنَّ...﴾ ﴿الأـعـراف﴾.

وقـولـه:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهُ دَرِكُكُمْ أَجْعَيْنَ﴾ ﴿الـنـحـل﴾.

فـلم يـذكرـ الـلامـ فيـ جـوابـ (لو)ـ فيـ الآـيـةـ الـأـولـىـ بـخـلافـ الثـانـيـةـ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ هـدـاـيـةـ النـاسـ أـصـعـبـ وـأـعـسـرـ مـنـ الإـهـلـاكـ.ـ فـإـهـلـاكـ الـأـلـوـفـ وـأـلـوـفـ الـأـلـوـفـ مـمـكـنـ بـوـسـائـلـ الـفـتـكـ وـالـتـدـمـيرـ وـالـظـواـهـرـ الـطـبـيعـيـةـ،ـ وـلـكـ هـدـايـتـهـمـ عـسـيـرـةـ،ـ فـجـاءـ بـالـلامـ لـمـ هوـ شـاقـ عـسـيـرـ وـنـزـعـهـ مـاـ هوـ أـيـسـرـ.

وـنـحـوـهـ قـولـهـ تـعـالـىـ:ـ ﴿أَنَّ لَوْ شَاءَ أَصَبَّتْهُمْ بِثُبُورِهِمْ...﴾ ﴿الأـعـراف﴾ـ وـهـذـهـ نـظـيرـةـ آـيـةـ الـإـهـلـاكـ السـابـقـةـ بـخـلـافـ قـولـهـ تـعـالـىـ:ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً...﴾ ﴿الـزـخـرـف﴾ـ.ـ فـنـزـعـ الـلامـ مـنـ آـيـةـ الـأـولـىـ لـأـنـ فـعـلـهـاـ أـيـسـرـ مـنـ آـيـةـ الثـانـيـةـ،ـ فـأـكـدـ ماـ هوـ أـعـسـرـ وـأـشـقـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ عـلـىـ اللـهـ شـيـءـ عـسـيـرـ.

وـنـحـوـهـ قـولـهـ تـعـالـىـ:

﴿أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ...﴾ ﴿يـسـ﴾.

فـإـنـهـ أـيـسـرـ مـنـ قـولـهـ:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَمْسَخْنَهُمْ عَلَى مَكَانِتِهِمْ فَمَا أَسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا

(١) انـظرـ معـانـيـ النـحـوـ ٣٤٢ـ وـمـاـ بـعـدـهـ.

يَرْجُونَ^(١) [يَسْ] فَالإِطْعَامُ أَيْسَرُ مِنَ الْمَسْخِ^(١). فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.

ومن طريف ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُكُونَ^(١) إِنَّمَا تَرَزَّعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الظَّرِيعُونَ^(٢) لَوْنَشَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَّانًا فَظَلَّتْمُ تَفَكَّهُونَ^(٣) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ^(٤) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ^(٥) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي شَرَبُونَ^(٦) إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَرْءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ^(٧) لَوْنَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ^(٨)﴾ [الواقعة].

فقال في آية الزرع: «لَوْنَشَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَّانًا فَظَلَّتْمُ تَفَكَّهُونَ» باللام في: (الجعلناه)، وقال في آية الماء: «لَوْنَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ» فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيما قال: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُكُونَ^(١) إِنَّمَا تَرَزَّعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الظَّرِيعُونَ^(٢)﴾ [الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال: «إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَرْءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ^(٧)﴾ [الواقعة] فآية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.

ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحان وقت الإستفادة منه أصبح حطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكده وإنفاقه ذهب هباءً وضاع سدىً، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما بعد: «فَظَلَّتْمُ تَفَكَّهُونَ^(٩) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ^(١٠) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ^(١١)﴾ [الواقعة]. ومعنى (تفكهون): تندمون على اجتهادكم فيه^(٢) وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغروم: المثقل بالديون.

ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما يتبع عن ذلك من كوارث جسام تحقيق بالبشرية.

(١) انظر معاني التحو - لو.

(٢) تفسير البيضاوي ٧١٢.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقدير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحًا للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.

فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف): «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعمون دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعمون مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعمون... ولهذا قدمت آية المطعمون على آية المشروب»^(١).

يدلّك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ هُوَ يُطْعَمُ فَيَسْقِي﴾ [الشعراء]. وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم^(٢) بتقديم الأكل على الشرب، وه هنا قدم الحراثة والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعمون دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني) نقاً عن (المثل السائر): «إن اللام أدخلت في المطعمون دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحًا أسهل إمكانًا في العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأرضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يتحج في جعل الماء العذب ملحًا إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.

وأما المطعمون فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. إنتهى»^(٣).

(١) الكشاف ١٩٧/٣.

(٢) انظر البقرة ٦٠، الطور ١٩، الحاقة ٢٤، المرسلات ٤٣.

(٣) روح المعاني ٢٧/١٤٩.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يتضمنها وذلك نحو قوله تعالى:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَرِينَ﴾ [البقرة: ١٧١].

و جاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يومن - الآية ٩٤ . غير أنه قال في سورة آل عمران:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأكمل الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران . وذلك أن المقام يتضمن التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكّد فيه . فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْشَّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَسْرِفُ وَالْمَعْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ شُسْتَقِيرٍ﴾ [البقرة: ١٣١] . وقال : ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقُلِبُ عَلَى عَيْقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ...﴾ [البقرة: ١٣٢].

ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مما جتنهم بالأيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَرِينَ﴾.

وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٦١] .

ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ماليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَرَزَلَنَا إِلَيْكَ فَسُعِلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِيَقِنَتِ اللَّهِ فَتَكُونُنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [يونس].

فلما قال: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍ» احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكdas في السياق وهي:

١ - التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

٢ - التوكيد بالنون في قوله: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» وقوله: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِيَقِنَتِ اللَّهِ».

٣ - التوكيد بـ (إن) في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» [يونس] فاقتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: «وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمِتْهِكَةَ وَكَلَمْهُمُ الْمُوقَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ وَقُبْلًا مَا كَانُوا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَنَكَ أَنْتَ زَرْهُمْ بِمَهْلُونَ» [الأنعام].

ثم قال بعد ذلك: «وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُصْلِوَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ لَا يَخْرُصُونَ» [الأنعام].

فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممتررين، فأكده في الموطن الذي اقتضى ذاك بخلاف مالم يقتضي ذاك.

ومن ذلك قوله تعالى:

«لَا يَغُرُّكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلَهِ» ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَقْسَ أَلْهَادُ» [آل عمران].

وقوله:

﴿مَا يُجَدِّلُ فِي مَا يَنْتَهِ اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرِيَكَ تَقْبِلُهُمْ فِي الْلَّهِدِ﴾ [غافر].

فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: «لَا يَعْرَنَكَ تَقْبِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وبينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قال تعالى:

﴿لَتُبَلَّوْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْنَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِهِ الْأَمْوَارِ﴾ [آل عمران].

وقال: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَيِّلٍ وَقَتَلُوا وَقُتُلُوا لَا كَفَرُنَّ عَنْهُمْ سِيَّغَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَهُمْ جَهَنَّمَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...». [آل عمران].

فاقتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بتنقلب الدين كفروا في البلاد وسيطربتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتاج إلى التأكيد والله أعلم.

ج - ونحو ذلك التأكيد بـ (إن) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكِنُّهُمْ فَيَنْقَبُوا حَاسِينَ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ طَالِمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَلَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿فَإِذَا أَحْسِنَ فَإِنَّ أَتَيْكَ بِمُنْحَسَّةٍ فَلْيَئِنْ هُنَّ نَصْفُ مَا عَلَى الْمُحْسَنِتِ مِنْ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِنَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِرُّوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء].

وقوله:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَالِثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَحْدَهُ وَإِنَّ لَمْ يَنْتَهُوا
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[المائدة].

فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ
رَّحِيمٌ﴾ في حين قال:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرْقَتِي فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمَنْ أَضَاكُلَّنَ ﴿١٥٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
حَيْثُ أَفْكَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾[البقرة].

وقال:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُؤْصِدِ جَنَّفَا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦١﴾﴾[البقرة].

بتوكيد المغفرة فيهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكتبهم وقطع طرف منهم حتى قال رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَلَّمُونَ﴾﴾[آل عمران] فلا يناسب ذلك توکيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيسمهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذلك. فالمقام - كما ترى - مقام التهديد والتوعيد وليس مقام توکيد المغفرة.

ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن ذكر أن هذا ليس مقام توکيد المغفرة

أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال:
﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَإِذَا كُرُوا اللَّهُ﴾.

وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة. وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: «من حج فلم يرث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، و: «أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفة ويشهد لهم على أنه قد غفر لهم».

إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فـأي المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟! وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُؤْسِى جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

فالملقم هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم. أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟

وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا: مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم ا الحكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بیناً شافياً. ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟

د - ومن هذا الباب التوكيد بالحرروف الزائدة. فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحرروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.

قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُ وَهَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت].

وقال: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنْلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنَ فَيُئْسَ أَلْقَرِيْنَ﴾ [الزخرف].

وقال: ﴿... حَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَهَا فُتْحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ [الزمر].

فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائل الجوارح «من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء».

الاترى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ»، وليس كذلك: «حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ وَهَا فُتُحَتَ آبَوَيْهَا» لأن المجيء يتضمن فتح الأبواب . . . وكذلك: «حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ نَافَلَ يَنِيَّتَ بَيْنِيَّ وَبَيْنَكَ» أي: قال الآدمي لقرنه من الجن اللذين اشتراكا في الدنيا في معصية الله ثم اشتراكا في العذاب في الآخرة: ليتبيني لم أتبعدك وكان بعد ما بين المشرقيين يبني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهم، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه^(۱).

ثم إن شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكده لذلك .

وقال تعالى: «وَلَا يَأْبُ أَشْهَدَاهُ إِذَا مَا دُعُوا» [البقرة ۲۸۲].

زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: «إِذَا نَدَأْيْتُمْ بِيَتْنَ إِلَيْ أَجْكِلَ مُسْكَنِي فَأَكْتَبُهُ» [البقرة ۲۸۲].

وقوله: «وَأَشْهِدُوكُمْ إِذَا تَبَيَّنَتْمُ» [البقرة ۲۸۲].

وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتکاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد^(۲).

ومن ذلك قوله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» [الحج ۶۱] .

وقوله: «وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَّهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» [الزخرف].

فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

(۱) درة التنزيل ۴۱۷-۴۱۸.

(۲) انظر (معاني النحو) ۴/۴۷۸.

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ...﴾ [الزخرف]. والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة.

فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج المواطن هنا إلى توكييد العلم بخلاف المواطن السابق، ولذا قال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفي عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَئِنْ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَيْهِمْ يَنْقُضُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَلَئِنْ رَضِيَ عَنْكَ أَنْ يُهُودَ وَلَا أَنْصَرَى حَتَّى تَتَبَعَ مَا لَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْمُهَدِّى وَلَئِنْ أَتَبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلَنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقِفٍ﴾ [الرعد].

فقال في آية الأنعام: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَئِنْ﴾ . وقال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بزيادة (من) المؤكدة، وكذا في آية الرعد.

وبسب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولی. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الآخريين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إن فعل ذلك ماله من الله من ولی ولا نصير.

فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى توكييد نفي الولي والنصير دون آية الأنعام.

وكذلك المقام في آية الرعد.

هـ - وقد يأتي بالفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتزكها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذا دققت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ . . .﴾ [البقرة: ١٣٧]

وقوله:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ . . .﴾ [الأనفال: ٢٦]

فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم^(١).

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ظَفَرُوكُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُعْتَذِلُوكُمْ فِيمَا فَنَّلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَرَأَةُ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ فَإِنْ أَنْهَاكُمُ الْأَنْهَى فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَقَاتِلُوكُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ

(١) انظر ملاك التأویل ١١٧/١ وما بعدها.

أَنْتُمْ فَلَا عَذَّبْتُمْ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ أَشْهَرُ الْحَرَامِ يَالشَّهِ الْمُحَمَّدُ وَالْمُرْمَدُ قَصَاصٌ فَمَنْ أَعْنَدَهُ عَلَيْكُمْ فَأَعْنَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْنَدَهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَغْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ النَّصِيفَنِ ﴿١٢﴾ [البقرة].

ألا ترى إلى قوله: «وَلَا تُقْتَلُوهُمْ إِنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ» ، والمسجد الحرام في مكة. ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله عاماً فقال:

«قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْقِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَّفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنُّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينُ كُلُّهُمْ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٤﴾ [الأنفال].

فلما كان القتال هنا عاماً عم الدين فقال: (كله).

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: «وَآخِرُهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» «أي من مكة وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»^(١).

هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقال: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَقْتَلُوا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٥﴾ [البقرة] . فلما كان القتال محدوداً باديء ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخصص القتال برد العدوان بل أطلقه فقال: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْقِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَّفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنُّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينُ كُلُّهُمْ لِلَّهِ... ﴿١٧﴾ [الأنفال] فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه. فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين:

الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

(١) الكشاف ٢٦٠ / ١

الثانية: أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام.
فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.

ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: ﴿فَإِنْ أَنْهَاوُا فَلَا
عَذَّوْنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [٣٩].

وقال في ختام آية الأنفال: ﴿فَإِنْ أَنْهَاوُا فَإِنَّ اللَّهَ يُمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٣٧]
وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ﴾ [١٦] [البقرة] وقال
بعدها: ﴿فَمَنْ أَعْنَدَنِي عَلَيْكُمْ فَأَغْنَتُهُ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْنَدَنِي عَلَيْكُمْ . . .﴾ [١٨] [البقرة] ناسب
أن يقول: ﴿فَلَا عَذَّوْنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وأما في آية الأنفال فالقصد أن تكون السيطرة للإسلام، وليس
معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم
على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه
في حكم الإسلام فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا كادوا
فإن الله بصير بكيدهم.

و - ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعملاً
حسبما يتضمنه السياق والفن.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا يَزَّغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَرْغُ فَأَسْتَعِدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت].

وقوله:

﴿وَلَمَّا يَزَّغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَرْغُ فَأَسْتَعِدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعُ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف].

فأكمل في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعرف السميع العليم فقال:
﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل
من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:

﴿وَلَا سَتُوْلَ الْحَسَنَةِ وَلَا السَّيْئَةِ أَدْفَعُ بِالْيَتَى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَّذِى بَيْتَكَ وَبَيْتَهُ عَدَدَةٌ كَانَهُ
وَلِي حَمِيمٌ ﴾٢١﴿ وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ ﴾٢٢﴿ وَلَمَّا يَرَغَبَكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزَغٌ فَأَسْتَعْذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾٢٣﴾ [فصلت].

وقال في سورة الأعراف:

﴿خُذِ الْعَقْوَدَةَ وَأَمِّهِ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾٢٤﴿ وَلَمَّا يَرَغَبَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَغٌ
فَأَسْتَعْذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِ ﴾٢٥﴾ [الأعراف].

فأنت ترى أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإذا أرادوا أن يحسنوا عفوا عن المسيء. أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على الإنسان عسير عليه، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق ويشبه عن الإحسان إلى المسيء ولذا قال: «وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَنَهَا
إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ».

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك. ولذا أكد وعرف في سورة فصلت فقال:
﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وترك ذاك في سورة الأعراف. فوضع كل تعbir في المكان الذي يتضمنه.

جاء في (درة التنزيل): «لسائل أن يسأل عن التوكيد في سورة حم السجدة في قوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» وتعريفه الصفتين بالألف واللام وترك التوكيد بقوله هو وترك^(١) التعريف في: سميع عليم من الأعراف.

والجواب أن يقال: إنَّ الذي في سورة السجدة لما كان بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملائكة استكفاراً لشره وأذاته، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: «وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ

(١) في المطبوع (وهو ترك) وما ذكرناه أشبه بالصواب.

صَبَرُوا وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ . . . فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أولياء شاقاً عظيماً حتى قال: «وَمَا يَلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ» كانت وسسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ . . .

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: «خُذِ الْعَفْوَ وَامْرُءْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهَلِينَ ﴿١﴾ [الأعراف] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنه : «سميع عليم»^(١).

ونحو ذلك قوله تعالى:

«ذَلِكَ بِإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَى الْكَبِيرِ ﴿١١﴾ [الحج].

وقوله:

«ذَلِكَ بِإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَى الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ [لُقْمان].

فأنت تلاحظ تشابه الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج (هو الباطل) وخلوها منه في آية لقمان (الباطل). وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكتيبيهم لرسلهم بقوله تعالى:

«وَالَّذِينَ سَعَوْفِيَّاً يَنْتَنِي مَعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٦١﴾ [الحج].

إلى أن يقول : «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَكِيلِ اللَّهِ شَرَّ قُتْلُوا أَوْ مَاتُوا يَسْرُ زُقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنَتْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزِيقِينَ ﴿٦٩﴾ [الحج].

(١) درة التنزيل ٤١٩-٤٢٠.

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاذون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (القمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّيْعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَبَاءَنًا أَوْلَوْ كَانَ الشَّيْطَنُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ السَّعِيرِ ﴾ [القمان].

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْمِلُكَ كُفُرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنَتَّيْعُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَنَاتِ الْأَشْدُورِ ﴾ [القمان] ثُمَّ نَتَّيْعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ ﴾ [القمان] وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القمان].

﴿ أَلمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ أَيْلَمْ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْأَيَلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ بَحْرٍ إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍّ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴾ [القمان] ذَلِكَ يَأْنَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [القمان].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا مختلف . فهم في الصورة الأولى ساعون معاذون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجة هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم ، فاحتاج الأمر إلى زيادة ثبات المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورعبه . فاقتضى السياق توكيده أن ما هم عليه هو الباطل .

وأما الآية الثانية فهي سياق الجدل العقلي والمحاجة بين الفريقين ، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه .

فلم يقتضي السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال : ﴿ يَدْعُونَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُرُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج] يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُرَ أَفَرُبُ مِنْ نَفْعِهِ لِيَسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ [الحج].

ولم يتقدم مثل ذلك في (القمان) أكد ذلك في الحج . جاء في (ملك التأويل) : « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير

المنفصل، ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلتهم والإفصاح بذلك تعريفاً بoven مرتكبهم وشنيع حالتهم. وأوضح هذا التكرر وأشدّه ملامة الإitan بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: «وَمَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ أَخْرَجَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَطَّلَهُ الظَّيْرُ أَوْ تَهُوِي بِهِ الْرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَيِّقَ» [الحج ٢١] قوله في آخر السورة «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ كَمِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ وَلَن يَسْلِمُوهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدِمُهُ مِنْهُ» [الحج ٧٧] هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنساب شيء لقوله «ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطَلُ» [القمان] «^(١)».

فانظر رعاك الله سمو هذا التعبير ورفعته.

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَاسْتَبِقُوكَ الْأُولَوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ أَتَبْعَوْهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَ اللَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مَتَّهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [التوبه ١١١].

وقوله:

«وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَمَسْكِنَ طِبَّةٍ فِي جَنَّتِ عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [التوبه ٦٣].

فقد جاء في الآية الثانية بضمير الفصل: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:

١- أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى قال: «وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ» أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعمتها. فلما زاد ذلك زاد في توکيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن قوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» إلى قوله: «وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ» فجاء بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت

(١) ملاك التأويل ٧٢٤ / ٢

والتي هي أقوى من الفعلية وآكِدُ، فناسب كل ذلك توکيد الفوز وعظمته.

٢- هذا من ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: «وَمَسَكِنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتَيْ عَذْنِي» فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في توکيد الفوز.

٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: «جَنَّتَ تَجْرِي مِنْ تَحْنِهَا الْأَنْهَرُ» وقال في الآية الأولى: «جَنَّتِ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَرُ». ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهر تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: «تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَرُ» فإنه ذكر أن الأنهر تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتوکيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم ، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفحشه!

ثم انظر إلى دقة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: «تَجْرِي مِنْ تَحْنِهَا الْأَنْهَرُ» بذكر (من) إلا في هذا الموطن فقال: «تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَرُ» قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم فيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين). أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

جاء في (درة التنزيل): أن «الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهر الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مباديهما، والجنات التي مباديهما الأنهر من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء. والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة «وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ

وَالَّذِينَ أَتَبْعَوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا
الْأَلَانِهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا... ﴿١﴾ [التوبه].

إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهر تحتها إلا وقد دخلتها (من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم السلام. فهذا الكلام في (من تحتها). اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٠].

وقوله: ﴿وَلَئَنَّ اللَّهَ رَبِّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٥١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الزخرف: ٦١].

فراد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إليها بخلاف غيرها، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل): « وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضروريًا دعا إليه ما تقدم في الآية قبله. وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا صَرِيبَ ابْنُ مَرْيَمَ مُثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُورِنَ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُورُنَ﴾ [الأنبياء] تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون، فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَعَّدُونَ﴾ [الأنبياء]... فلما كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (آلهتنا خير أم هو) يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام:

(١) درة التنزيل ١٠٣-١٠٢.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ وَبَشَّرُ﴾ . . . فأحرز هذا المعنى . ولم يرد في آية آل عمران وأية مريم من ذكر آلتهم ماورد هنا، فلم يحتاج إلى الضمير المحرز كما ذكرنا^(١) .

٢- وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفًا بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) أكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة .

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍ مِّنْ ذَلِكُمُ الْأَنَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج] .

وقوله:

﴿هَلْ أَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍ مِّنْ ذَلِكَ مَوْبِدٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة] .

وقوله:

﴿هَلْ أَنْتُمْ كُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَاءِكُمْ أَثْيَمٌ﴾ [الشعراء] .

وقوله:

﴿قُلْ هَلْ تُنِيشُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلًا﴾ [الكهف] .

فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (بنًا)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وأكدر في الاستفهام، ويبين ذلك السياق .

قال تعالى: «وَإِذَا نَتَّلَ عَلَيْهِمْ إِيمَنَا بَيْنَتِ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ إِلَيْهِنَّ يَتَلَوَّنُ عَلَيْهِمْ إِيمَنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍ مِّنْ ذَلِكُمُ الْأَنَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج] .

فاستعمل الهمزة .

وقال: «يَكِيْمُهُ الَّذِينَ مَامُوا لَا نَنْهَاذُ الَّذِينَ أَنْهَاذُوا دِينُكُمْ هُرُوا وَلَعْبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

(١) ملاك التأويل ١/١٦٤-١٦٣.

فِيْكُمْ وَالْكُفَّارُ أُولَئِكَ وَلَقَوْا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَخْذُوهَا هُزُوا وَلَعْبًا ذَلِيلًا
إِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقُلُونَ ﴿٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَا إِلَّا أَنْ مَاءَنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ
قَبْلِنَا وَأَنَّ أَكْرَمَكُمْ فَتَسْفِيْقُونَ ﴿٩﴾ قُلْ هَلْ أَنِّي شَكِّمْتُ إِشَرِّيْ منْ ذَلِيلَ مَثُوبَةَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ وَغَضِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
مِنْهُمُ الْقَرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الظَّاغِفَوْتَ أَوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٠﴾ [المائدة].

فاستعمل (هل).

والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيتاً لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلوة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكاناً وأضل عن سوء السبيل). ويعضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.

وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة: «قُلْ أَفَأَنِّي شَكِّمْتُ إِشَرِّيْ منْ ذَلِيلَكُمْ» وفي الثانية بهل: «قُلْ هَلْ أَنِّي شَكِّمْتُ إِشَرِّيْ منْ ذَلِيلَ مَثُوبَةَ عِنْدَ اللَّهِ؟».

ونحوه ما جاء في آية الشعرا «وَمَا نَزَّلْتَ بِهِ الشَّيْطَانُينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيْعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿١٣﴾» [الشعرا].

إلى أن يقول: «هَلْ أَنِّي شَكِّمْتُ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُينَ ﴿١٤﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَالِكِ أَشَرِّيْ ﴿١٥﴾ يُلْقَوْنَ
السَّمْعَ وَأَكْرَهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٦﴾» [الشعرا].

فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المفترين
فاستعمل لذلك (هل).

ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:

«وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَ الْكِفَّارِ عَرْضًا ﴿١﴾ الَّذِينَ كَانُوا أَعْيُّنُهُمْ فِي غُطَاءٍ عَنْ ذَكْرِي وَكَانُوا لَا
يَسْتَطِيْعُونَ سَمْعًا ﴿٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْجُذُوا عِبَادِي مِنْ دُوِيِّ أَوْلَاهُ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَفَّارِ
تَنَّا ﴿٣﴾ قُلْ هَلْ تُنِّيْكُمْ بِالْأَخْسَرِيْنَ أَعْنَدَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ حَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْجَنَّةِ الَّذِينَ وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَخْسِبُونَ
صُنْنَا ﴿٥﴾ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيْنَ رَبِّهِمْ وَلَقَائِهِ فَعِنْهُمْ فَلَا تُقْرِبُهُمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرَبُّا
ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا مَاءِنِيْ وَرَسُولِيْ هُزُوا ﴿٦﴾» [الكهف].

فإن قوة التبكيت وشدة التقرير واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل)
ولم يستعمل الهمزة.

وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو آكد، فمن
ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِيْلِيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكْثَرَهُ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي مَا ذَاهِبِهِمْ وَقَرَا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ مَا يَأْتِيْهُمْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُهُمْ كَمْ جَاءُهُمْ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ ﴾[الأعما]﴾

وقوله :

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِيْهِ أَفِ لَكُمَا أَتَيْدَانِيْ أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغْيِيْنَانِ اللَّهَ وَيَكَّذِيْكَ مَاءِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ ﴾[الأحقاف]﴾

فقال في الآية الأولى : «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ» وقال في الثانية : «مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ». والأولى آكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها:

١- وجعلنا على قلوبهم أكثرة أن يفقهوه.

٢- وفي آذانهم وقرأ.

٣- وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآية الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأوليين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

وقال تعالى :

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حِيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَمُيَا وَمَا يَهْلِكُهُمْ إِلَّا الْأَذْهَرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُنُونَ ﴾[الجاثية]﴾

وقال :

﴿وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِقْرَاءِ الْآخِرَةِ وَأَرْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا
بَشَرٌ مُّتَكَبِّرٌ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرِبُونَ ﴾[الجاثية]﴾ وَلَيْسَ أَطْعَمْتُ بَشَرًا مُّتَكَبِّرًا إِنَّكَ إِذَا

لَخَسِيرُونَ ﴿١﴾ أَيَعْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعَظَمَأُمْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢﴾ هَيَّاهَتْ هَيَّاهَتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَانَا الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لِهِ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ [المؤمنون].

قال في الآية الأولى: «ما هي إلا حيائنا الدنيا».

قال في الثانية: «إن هي إلا حيائنا الدنيا».

واوضح أن التكذيب في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه:

١- فقد أسندا التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا). وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: «أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي الْخَيْرَ الْدُّنْيَا» . فهذه صفات تزيد في قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قال فيها: (وقالوا).

٢- المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣- السخرية من الوعد بالحياة الأخرى: «أَيَعْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعَظَمَأُمْكُمْ مُخْرَجُونَ» .

٤- الاستبعاد المؤكد في قولهم: «هَيَّاهَتْ هَيَّاهَتْ لِمَا تُوعَدُونَ».

٥- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لِهِ بِمُؤْمِنِينَ» .

فكان طبيعياً أن يكون إنكارهم أشد وأكدر مما في الآية الأولى، ولذا جاء بياناً وإلا وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى، فإنه جاء بما وإلا لأنه أقل توكيداً وقال تعالى:

«قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَامَ الرَّسُولِ وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ إِنْ أَنْعَمْ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنْعَمْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ [الاحقاف].

وقال:

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكَ وَأَتَبْعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا
عَلَى رَبِّهِ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إِنَّمَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ قَالُوا لِئَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْثُرُ
لَتَكُونُنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّهِ إِنَّ فَوْجِي كَذَّبُونِ ﴾ ﴿ فَاقْفَحْ بَيْنِهِمْ فَتَحَّا وَخَجَّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَأَبْخَسْتَهُمْ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَسْحُونِ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ أَلْبَاقِينَ ﴾ إِنَّمَا فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ الشِّعْرَاءَ ﴾

فقال في الآية الأولى: «ومَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وقال في الثانية: «إِنَّمَا إِلَّا نَذِيرٌ».

ومن الواضح أن الآية الثانية في مقام المحاربة والمجادلة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآية الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحججة. يدل على ذلك في الآية الثانية:

- ١- وصفهم المؤمنين بالارذلين.
- ٢- طلبوا طردهم فرد عليهم بقوله: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».
- ٣- تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكف عن الدعوة وإلا رجموه (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين).

وأن ترى أن المقام في الآية الأولى يختلف عنه في الثانية فجاء في الثانية بيان وإلا وجاء في الأولى بما وإلا^(١).

- ٣- وقد يستعمل طريقة أخرى للتوكييد وهي تكرار اللفظ الذي يريده توكيده، وذلك حسبما يقتضيه مواطن الكلام وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿آل عمران﴾

(١) انظر معاني النحو - باب الاستفهام وباب التفي.

وقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فلم يكرر لفظ الطاعة. في حين قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مُنْكَرٌ فَإِنْ تَنْزَعُمُ فِي شَيْءٍ فَرْدُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [النساء: ١٥٩].

وقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ أَمْمِينُ﴾ [المائدة: ١١].

وقال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حِلَّ وَعَلَيْكُمْ مَا هُمْ جُحْلُهُ وَإِنْ قُطِيعُوهُ تَهَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُيْمَنُ﴾ [النور: ٤٠].

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا يُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ أَمْمِينُ﴾ [التغابن: ١٧].

فكّر لفظ الطاعة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

والملحوظ أن ما لم يذكر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق فيه الله وحده، ولم يذكر فيه لفظ الرسول ولا أية إشارة إليه، فمن ذلك ما جاء في (آل عمران - ٣٢) فقد ذكر أن الأمر كله لله وبهذه قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِسِرْدَكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١١] تُؤْلِمُ النَّهَارَ وَتُؤْلِمُ الْأَهَارَ فِي الْأَيَّلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيَّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال: ﴿وَيَحْمِرُ كُلُّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران].

وكسر هذا المعنى فقال:

﴿وَيَحْمِرُ كُلُّهُ نَفْسَهُ وَإِلَهُ رَءُوفٌ بِأَعْبَادِهِ﴾ [آل عمران].

إلى أن ذكر الآية الكريمة. فانت ترى أن المقام مختص بالله وحده فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.

وكذلك آية آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعة فقد قال قبلها:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران].

في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يتضمنها - ففي آية النساء ٥٩. جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية لفصل بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، فهما ليستا بنفس المترفة ثم قال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصْدُونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء].

فقد جعل الرسول مرجعاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطْكِعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [النساء].

فانت ترى أن المقام هنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق يتضمنها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآية ٤، فقد تكرر ذكر الرسول وذلك قوله:

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ إِلَّا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْلَمُونَ وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَنْهَا اللَّهُ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَلَّاجُونَ﴾ [النور].

ثم انظر كيف قال فيما بعد: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَأَثُرُوا الزَّكَوةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ﴾ [النور].

فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكّد لفظ طاعة الرسول.

وكذلك ما جاء في سورة محمد - الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقته فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَأَفْوَأُ الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهْدَى أَنْ يَصُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ اللَّهُمَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ [٢١]. وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَتَّرْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُئِنُ﴾ [٢٢] [التغابن]. هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول.

فانظر دقة هذا التعبير وسُمُّوهُ.

ونحوه قوله تعالى:

﴿أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْقُنُهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفَرُونَ ﴾١٣﴿﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿الَّذِينَ يَصْدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْوِثُهَا عِوْجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُم كَفَرُونَ﴾ [١٥] [هود].

فقد قال في آية الأعراف: «وَهُم بِالْآخِرَةِ كَفَرُوا»، وقال في هود: «وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُوا» فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:

﴿وَنَادَىٰ أَهْمَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رِبَّنَا حَتَّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَأَلَوْ نَعْمَلْ مُؤْذِنٌ بِيَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾١١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْعُدُنَا عَوْجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كُفَّارُونَ ﴾٤٥﴾ وَيَنْهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَغْرَافِ رِجَالٌ . . . ﴾٤٦﴾ ﴿الْأَعْرَافِ ٤٤ وَمَا بَعْدُهَا﴾.

وقال في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يَعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هُنَّ الظَّالِمُونَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾١٦﴾
يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْقِنُهَا عِوْجَاهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَاهُمْ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٣﴾ [هود].

فقد ذكر في الأعراف من صفات الطالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويعgonها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: «هَؤُلَاءِ
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ».

فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخرون).

فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.

ونحو هذا قوله تعالى:

«فَإِنْ كَذَبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبِيرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿١﴾ [آل عمران].

وقوله:

«وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبِيرِ وَبِالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿٢﴾ [فاطر].

فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر، ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبلیغ قال تعالى: «إِنَّمَا نَذِرُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْعَيْبِ وَأَفَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ وَمَا
يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٢﴾ وَلَا الظَّلَمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْفَلُ وَلَا أَحْرَرُ ﴿٤﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنَّ يُمْسِيْعَ مَنْ فِي الْقُبُوْرِ ﴿٥﴾ إِنَّ أَنَّ إِلَّا نَدِيرٌ ﴿٦﴾ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٧﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبِيرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٨﴾ [فاطر].

فلما كان المقام مقام إنذار وتبليغ كرر الباء فقال: ﴿بِالْبَيْتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَبِ الْمُنِيرِ﴾. لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة والتبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معينة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلا نَؤْمِنَ لِرَسُولِ
حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكِلُهُ النَّارُ فَلَمْ يَجِدْ جَاءَنَا كُمْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِ
بِالْبَيْتِ وَبِالْكِتَبِ الْمُنِيرِ فَلَمْ يَجِدْ جَاءَنَا كُمْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِ
فَقَاتَلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ كَذَبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوكُمْ
وَبِالْبَيْتِ وَبِالْكِتَبِ الْمُنِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس المقام يتضمن ذلك.

ومما يتضمن التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى: (وإن يكذبوا) بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد قال: (وإن كذبوا). فإن في آية فاطر من الاستمرار على التكذيب ماليمن في آية آل عمران، فاقتضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقوله: ﴿لَمْ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾.

وقد تقول: ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي في آل عمران؟

والجواب: أن التكذيب في سورة آل عمران منصب على ذكر حادثة تاريخية معينة، هي الآية التي ذكرناها أعني بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا إِنَّ اللَّهَ
عَاهَدَ إِلَيْنَا... الآية﴾.

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهداية والاستجابة فالمعنى مقام تبليغ الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقيباً على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: (وإن كذبوا).

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال: (وإن يكذبوا) بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة والتبليغ والإذنار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيث دون آية (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسليم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران: (فقد كذب رسيل من قبلك) بدون تاء فلم يقل: (فقد كذبت). وذكر التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقتضى ذلك التوكيد في فاطر لكتلة المكذبين دون آل عمران.

وقد جاء في (البرهان) للكرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله^(١).

وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آية فاطر بخلاف آية آل عمران. ومما يدل على ذلك:

- ١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران (كُذب) في حين ذكر الفاعل في آية فاطر فقال: (فقد كذب الذين من قبلهم).
- ٢- قوله في فاطر: (جاءتهم رسليم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.
- ٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) ومحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.
- ٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قال في (فاطر): (وإن يكذبوا) وقال في آل عمران: (وإن كذبوا).

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.

(١) انظر البرهان ١٢٤ - ١٢٥ ، درة التنزيل . ٧٥

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلاً من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرر الباء، فكيف بهما إذا اجتمعا فانظر أي كلام هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾ [البقرة: ٧]

فكسر (على) مع السمع. جاء في (الكساف) : « فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟ »

قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعددية واحدة. وحين استجد للأسماع تعددية على حلة كان أدل على شدة الختم في الموضعين »^(١).

٤ - وكما يؤكّد القرآن التعبير قد يخفّه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك لأنّ يأتي بـ (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿قَالُوا تَالَّهُ لَقَدْ أَثَرْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١١﴾ قَالَ لَا تَنْتَرِيَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرَحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: ١١-١٢].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: ١٣-١٤].

وهذا الكلام قاله أخوه يوسف والكلام موجه في الآية الأولى إلى أخيهم يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.

وأنت ترى أن إخوة يوسف قالوا لأخيهم: (وإن كنا لخاطئين) بـ (إن) المخففة، وقالوا لأبيهم: (إِنَّا كُنَّا لَخَاطِئِينَ) بالمشددة. وقد يتبدّل إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساوا إليه إساءة مباشرة - أعني يوسف - كان عليهم أن يأتوا بيان المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

(١) الكشاف ١/١٢٥.

التي استعملها القرآن هي المثلثي. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيده الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكنته في الأرض، وكان فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، يعكس ما جرت على أبيهم، فهناك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرَحَمُ الرَّحْمَمِينَ ﴾ . وأما أبوهم فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: ﴿ قَالُوا يَا أَبَاهَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبِنَا إِنَّا كَانَتْ خَاطِئَنَا ﴾ ﴿ قَالَ سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّنَا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَلَّهِ عَادِلٌ أَخَافُهُ هُوَ دَا قَالَ يَنْقَوِمُ أَعْبُدُهُ أَلَّا يَغْرِيَهُ أَلَّا نَقْنُونَ ﴾ ﴿ قَالَ أَمْلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظَنَّنَا مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿ لَيَسْ فِي سَفَاهَةٍ وَلَا كِفَى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴾ ﴿ أَتَيْنَاهُمْ رِسْلَتِ رَبِّنَا وَإِنَّا لَكُنَّا نَاصِحُهُمْ أَمِنِينَ ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسَحِّرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنَّا لَنَظَنَّنَا لِنَّ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْنَا كَسْقًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّنَا أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الْظُّلَّةِ إِنَّمَا كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء].

فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإننا لنشنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نشك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن

التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعرا، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ اللَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ بخلاف آيات الشعرا فإنه قال: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾^(١).

وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الأولى قول الملا الدين كفروا. والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمعنة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً . والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعرا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً وَمَا كَانَ أَكْرَهُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعرا إلى أصحاب الأيكة عموماً ، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبيّن لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام رد على قومه بآيات عدة: ﴿قَالَ يَقُولُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) [الأعراف] بخلاف آية الشعرا فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّيْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣). ومن هنا يتبيّن الفرق واضحاً بين التعبيرين^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:

﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الظَّاغِنِينَ﴾ [يوسف].

فالـ (ليسجنـ) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال: ﴿وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الظَّاغِنِينَ﴾ بتخفيف النون: قالوا بذلك «أن إمرأة العزيز كانت أشد حرضاً على سجنه من أن يكون صاغراً»^(٥) فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.

ـ. وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإنقان): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسول

(١) انظر معاني النحو ١/٣٧٥ وما بعدها.

(٢) حاشية الصبان ٣/٢١٢ وانظر التصریح ٢/٣٠٢.

عيسى إذ كذبوا في المرة الأولى: «إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ» فأكدوا بيانً وإسمية الجملة. وفي المرة الثانية: «رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ» فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: «مَا أَنْشَأَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْشَأَ إِلَّا تَكَذِّبُونَ»^(۱).

يشير بذلك إلى قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَنْتِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْشَأَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْشَأَ إِلَّا تَكَذِّبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمْرَسَلُونَ وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِيتُ»^(۲) [يس].

فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: «مَا أَنْشَأَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْشَأَ إِلَّا تَكَذِّبُونَ»^(۳) وهددوهم بالرجم إن لم يتنهوا عن دعوتهم: ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: «إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ» وفي المرة الثانية قالوا: «رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ» فأكد بالقسم وإن واللام.

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَلَا تَغْفِرِ لِي وَتَرْحَمِنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ»^(۴) [هود]. بدون توكييد.

وقوله:

«وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا نَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ»^(۵) [الأعراف] بتوكيد الجواب.

وقوله:

«لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ»^(۶) [الأعراف]
بتوكيد الجواب وباللام الموطئة قبل الشرط.

فالثالثة أكدت من الثانية، والثانية، أكدت من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

(۱) الإتقان ۶۴-۶۵ وانظر الإيضاح ۱/۱۸.

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: «وَلَمَّا سُقِطَ فِتْ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فَأَلَّا إِنَّ لَمْ يَرْحَمَنَا وَيَقْفِرُ لَنَا الْكُوْنَنَ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [الأعراف].

وهذا في بني إسرائيل بعدما عجلوا الذهب واتخذوه إلهًا لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطة زيادة على توکید الجواب: «لَيْنَ لَمْ يَرْحَمَنَا وَيَقْفِرُ لَنَا الْكُوْنَنَ مِنَ الْخَسِيرِينَ».

وأما الآية الثانية التي هي: «فَإِنْ لَمْ تَقْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنْ كُوْنَنَ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [الأعراف] فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلَا من الشجرة التي نهاهما رباهما عنها.

وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبيديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضلال فقال: «وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا» ولم يصف آدم بذلك. فلما كانت المعصية أقل حذف اللام الموطة التي تفيد التوكيد.

فال الأول أكد لأن المعصية أكبر. فالتنورة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: «وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُونْ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [هود]. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سُأله ربه أن ينجي ابنه من الغرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال: «رَبِّ إِنِّي أَبْغِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ...» [هود] فقال الله له: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلَكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَلَحٌ فَلَا تَشْلُمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» [هود].

فطلب نوح من ربه المغفرة والعفو لسؤاله هذا فقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُونْ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [هود] فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، في حين الله أنه ليس من أهله لأنَّه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سُأله، ولذلك لم

يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكده بالنون. ولما كان فعلبني إسرائيل كفراً وضلالاً أكده بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.

ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة معبني إسرائيل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بخلاف الآيتين الآخرين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعم وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراءم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطعم له في شيء بعد. فالمفبرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه رب لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقاء بأن يطردوا من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك^(١).

فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَتَرَ أَنْتَ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً فَصَبَّحَ الْأَرْضُ مُخْسَرًا إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِزَّةُ الْحَمِيدُ﴾ الْفَرَأَنَ اللَّهَ

(١) انظر (معاني النحو) ٤/٥٦٠ وما بعدها.

سَخَرَ لِكُوْنَتِهِ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْزِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِالنَّاسِ لَهُ وُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾ [الحج].

وقوله:

﴿إِلَهٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان].

وقوله:

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فِي أَنَّمَا يُجْهَدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَذَابِ﴾ [العنكبوت].

فقد قال في آية الحج: «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [الحج] وقال في لقمان: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [لقمان]. فأكمل الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» [الحج] بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: «إِلَهٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [لقمان]. فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: «لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [الحج].

وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتنة والابتلاء قال تعالى: «اللَّهُ أَحَسَبَ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوْا أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا
وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَذَّابِينَ ﴿٣﴾» [العنكبوت].

ثم قال: «وَمَنْ جَاهَدَ فِي أَنَّمَا يُجْهَدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَذَابِ﴾ [العنكبوت]
فاختالف التوكيد والختامة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغنى وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغنى من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغنى في العنكبوت.

وذلك أنه في الحج ولقمان ذكر لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق.

وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه. وثمة فرق بين الغنيين فال الأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين. وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إنَّ فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكتف وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال
فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغنى المالك المتفضل.
فلما فرق بين الحالين فرق بين التعبيرين.

ثم أنظر إلى خاتمة الآي في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي : الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان. وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتنة التي نسأل الله العافية منها لم يقل: (الغني الحميد) بل قال: (غني عن العالمين) أي: غنيٌ عن جهادهم. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١١٧]

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١١٧]

فأكيد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكده بـ (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذُكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الآية في الأنعام ذُكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة. فقد قال تعالى في (الأعراف): ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيْسِيسٍ بِمَا كَاثُوا يَقْسُطُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا عَنَوا مَا هُنَّا عَنْهُ قَنَا لَهُمْ كُوُنُوا قِرْدَةً حَسِيْنَ﴾ [١١٧] وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبَّكَ لِيَقْعُدَ عَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوْمُهُمْ سُوءُ الْعَدَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١١٧]

وقال في سورة الأنعام: «وَلَا تُئْرِثُ وَإِذْهَبْتُمْ إِلَى رَبِّكُمْ مَرِجِعُكُمْ فَيَرَيْشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِقُونَ» [الأنعام].

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بـ«بِإِنْ» واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيمة في سورة الأنعام قلل توكيده سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وأية الأنعام حيث أتي هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيده سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاببني إسرائيل بالذلة والنقمـة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: «وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكَ لِيَعْنَتْ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوْمُهُمْ مُّسَوْمَةً الْعَذَابِ...» [الأعراف]. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه آجل بدليل قوله «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرِجِعُكُمْ فَيَرَيْشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِقُونَ» [الأنعام] فاكتفى فيه بتوكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً «بِإِنْ واللام»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

«إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ لَّا رَبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» [غافر].

وقوله:

«إِنَّ السَّاعَةَ إِنِيَّةٌ كَادُ أُخْفِيَهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى» [طه].

فأكـد إـيـانـ السـاعـةـ بـ«إـنـ» والـلامـ فيـ غـافـرـ وـبـ«إـنـ» وـحـدـهاـ فيـ سـورـةـ طـهـ وـذـلـكـ لأـسـبـابـ عـدـةـ منهاـ:

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال: «إِنَّ الَّذِينَ يُجْحَدُونَ فِيَءَ اسْتَمْتَ أَلَّهُ يُغَيِّرُ سُلْطَنِي أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبُرَّ مَا هُمْ

(١) البرهان ٤/٦٥-٦٦ وانظر ملاك التأويل ١/٣٦٠-٣٦١.

يَنْلَغِيهُ فَأَسْتَعْدُ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٦﴾ [غافر] ثم قال: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ لَّا رَبَّ فِيهَا وَلِكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ [غافر].
أي: لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها. ولذا أكدتها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدتها مع موسى عليه السلام.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر: «وَلِكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: «إِنَّ السَّاعَةَ إِنَّمَا أَكَادُ أُخْفِيَ لِتُجَزَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا شَعِنَ ﴿٨﴾ [طه].

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيمة بل إن جوًّا السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى: «وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي الْأَنَارِ فَيَقُولُ الْمُصَفَّقُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُمَا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنَوْنَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ الْأَنَارِ ﴿٩﴾ [غافر].

وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقتضي المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرصن على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه... والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَلَا خَلَقْتَكُمْ... ﴿١٠﴾ [طه].

وقال: «... وَأَقِيمِ الْأَصْلَوَةَ لِذِكْرِي ﴿١١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ إِنَّمَا أَكَادُ أُخْفِيَ... ﴿١٢﴾ [طه] ولم يكن موسى عليه السلام من ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجادين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنَّهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَأَتَّبِعَ هَوَنَهُ فَتَرَدَّى ﴿١٣﴾ [طه] - فإذا كان الأمر على ما بينا وضع الفرق بين الموضعين بالذى ذكرناه»^(١).

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١١ ، وانظر ملاك التأويل ٦٧٥ / ٢ وما بعدها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزِيزُ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

وقوله:

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزِيزِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

فأكمل ما في الشورى بـ (إن) واللام وأكمل ما في لقمان بـ (إن) فقط.
والسياق يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزِيزُ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

وقال في لقمان: ﴿يَتَبَعَّ أَقْرِبُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزِيزِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان].

فقد أوصانا ربنا في الشورى بشيئين: الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال:
﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾. وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾،
والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزِيزِ الْأُمُورِ﴾.

جاء في (البرهان) للكرمانى: إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين: صبر
على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قتل بعض أعزته. وصبر على مكروه ينال
الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته. فالصبر على الأول أشد والعزم عليه
أكمل. وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾
فأكمل الخبر باللام.

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكده باللام»⁽¹⁾.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ يَعْدِي مَا جَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة].

(1) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٨-٤٢٧.

وقوله :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِرْرٍ وَالنَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعَدْوَنِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة].

وقوله :

﴿وَمَن يُشَاقِقَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال].

فكلاها قال فيها : (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بـ (إن) وحدها ، في حين قال : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُنْذَلُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد]. فأكمل بـ (إن) واللام .

وقد زاد اللام في الرعد لما مر قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُنْذَلُونَ﴾ ولما ذكر من عقوبات الكافرين : ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَخْبَبُ النَّارَ هُمْ فِيهَا حَلِيلُونَ﴾ [الرعد].

وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولا شيء فيه . فلما كان السياق في الرعد سياق العقوبات اقتضى زيادة توكيدها .

وشبيه بذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اخْسَطَهُمْ غَيْرُ بَاعِ وَلَا عَادِ فَلَا إِيمَانُهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوْصِي جَنَفًا أَوْ إِنَّمَا فَاضَلَّ بَيْنَهُمْ فَلَا إِيمَانُهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَفَرِينَ فَإِنْ أَنْهَنُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿فَمَنْ أَضْطُرَ فِي مَنْهَا فَلَا يُشْرِكُ إِلَّا هُوَ رَحِيمٌ﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿فَمَنْ أَضْطُرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادِرٍ إِلَّا رَبُّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام].

فكلاها أكدتها بـ (إن) وحدتها وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو (ربك) في حين قال:

﴿وَإِن تَعْدُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل].

فأكداها بـ (إن) واللام.

وبسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفء وركوب وحمل للأئصال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة.

وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطاف الإلهية أكد المغفرة فوضع كلاً في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَوِيْ عَزِيزٌ﴾ [ال الحديد].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

فأكدا قوته وعزته بـ (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿أُذْنَ لِلَّذِينَ يَكْتَلُونَ إِنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج]. الذين أخرجوا من دينهم يعني حقيقة الآية أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس

بعضهم يَعْصِي لَهُمْ لَهُمْ صَوَاعِقٌ وَبَيْعٌ وَصَلَواتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٣﴾ [الحج].

فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقتل الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادر على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكيد قوته وعزته بـ(إن) واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة.

وليس السياق كذلك في الحديد. قال تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْبَيْتَ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَفِعٌ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٦﴾ [الحديد].

فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين للدعوة الله «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُلُهُ
بِالْغَيْبِ». فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكيد قوته، والثانية في نصر المؤمنين للدعوة.

فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد.

فسبحان الله رب العالمين. ما أجمل هذا الكلام وأعظمه وأفحشه ! لقد جل هذا الكلام عن أن يكون له نظير، كما جل قائله عن النظير، فإنه ليس كمثل كلامه كلام، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو في نحو ذلك.

وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازدلت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبأ من كنوز هذا التعبير العظيم.

فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى.

جاء في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَكْتَمُ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ [١] فِيهِ مَا يَنْتَهُ بَيْتَنَطِ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ مَاءِنًا وَلَلَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْعَلَمِينَ [٢] ﴾ [آل عمران].

فاستعمل لفظ (مكة) بالباء في حين قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَبْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِيَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَطْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [١] ﴾ [الفتح].

فاستعمل لفظ (مكة) بالمية وهو الاسم المشهور لأم القرى.

وسبب إبرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج : ﴿ وَلَلَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ ف جاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها^(١).

وليس السياق كذلك في آية الفتح، ف جاء بالاسم المشهور لها أعني : (مكة) بالمية، فوضع كل لفظ في السياق الذي يتضمنه والله أعلم.

(١) انظر مفردات الراغب . ٥٧

ولا مانع أن يكون ذلك لکلا السببين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء] .

وقوله:

﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمًا﴾ [الأحزاب] .

فقد قال في آية النساء: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا﴾ وفي الأحزاب: ﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا﴾، وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ...﴾ ذكر أن الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا﴾ أي: إن تظهروا خيراً، وهو عكس الجهر بالسوء. فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.

وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ [الأحزاب]. وقال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب] وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمًا﴾ [الأحزاب] ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسب أن يقول: ﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لا أن يقول: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا﴾ هذه علاوة على مناسبة الكلمة (شيء) الواقعية قبلها وبعدها، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها.

هذا من ناحية.

(1) انظر (معجزة القرآن الكريم) ٦٧ ، ١٧٧.

ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها. ذلك أن كلمة (خير) ترددت في سورة النساء عشرة مرات^(١) ولم ترد في سورة الأحزاب إلا مرتين^(٢).

وأن الكلمة (شيء) ترددت في سورة النساء إثنتي عشرة مرة^(٣) وترددت في سورة الأحزاب ست مرات^(٤)، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار الكلمة (خير) لآية النساء وكلمة (شيء) لآية الأحزاب.

فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين: جهة المعنى والسياق. وجهة اللفظ.

فانظر أي تعبير هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْنِمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩]

وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ كَيْرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَيِّلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْعَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرٌ مِّنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢٠]

فقد قال في الآية الأولى: (أشد) وفي الآية الثانية: (أكبر) وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كثيرات الأمور فقد مر فيها قوله: ﴿قَتَالٌ فِيهِ كَيْرٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِخْرَاجٌ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فناسب ذكر (أكبر) فيها.

وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْنِمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

(١) انظر الآيات: ١٩، ٢٥، ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر الآيتين: ١٩، ٢٥.

(٣) انظر الآيات: ٤، ١٩، ٢٠، ٣٢، ٣٣، ٨٥، ٨٦، ٥٩، ٣٦، ١١٣، ١٢٦، ١٧٦.

(٤) انظر الآيات: ٢٧، ٤٠، ٥٢، ٥٤ (مرتين)، ٥٥.

القتل» [البقرة]. وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر (أشد) فيها بخلاف الآية
الثانية:

ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:

«وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ . . . » [هود].

ووردت في غير هذا الموضع كلمة (أجر) بدل الكلمة (مال). فقد جاء في سورة يوں على لسان نوح عليه السلام:

«فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ . . . » [يوں].

وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:

«وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . . . » [الشعراء].

وكذا وردت الكلمة (أجر) بدل الكلمة (مال) على لسان غيره من الأنبياء - انظر: (سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سباء ٤٧).

وبسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه الكلمة (مال) وقعت بعدها الكلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»^(١). فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله: «وَلَا أَوْلُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَائِنُ اللَّهِ . . . » [هود] فناسب ذكر المال همها بخلاف الموضع الأخرى.

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَلَئِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لِعِبْرَةٍ شُقِّيكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرَثٍ وَدَمٍ لَبَنًا حَالِصًا سَائِعًا لِلشَّرِّيْنِ . . . » [النحل].

وقوله:

«وَلَئِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لِعِبْرَةٍ شُقِّيكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . . . » [المؤمنون].

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٣٥-٢٣٤

فقد قال في آية النحل: ﴿شَقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقال في آية المؤمنون: ﴿شَقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونَهَا﴾.

وبسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام. واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث. وأما في آية (المؤمنون) فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله: ﴿شَقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونَهَا﴾: ﴿وَلَكُنْ فِيهَا مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون].

وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها. فجاء بضمير القلة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام. فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة. وهذا جاري على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ بتذكير الفعل (قال)، وقوله: ﴿فَالَّتِي أَغْرَابَتْ مَأْمَنًا﴾ بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها. جاء في (دراة التنزيل) في هاتين الآيتين: «أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الذر لا يكون لجميعها وأن اللبن لبعض إناثها فكأنه قال: ﴿وَإِنَّ لَكُنْ فِي الْأَنْعَمِ لِعَبْرَةٍ شَقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾». ولهذا ذهب من ذهب إلى أنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى. والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.

وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال: ﴿شَقِيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونَهَا وَلَكُنْ فِيهَا مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [١١] فأخبر عن النعم التي في أصناف النعم إناثها وذكورها فلم يتحمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك^(١).

(١) درة التنزيل ٢٦٨

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾ [الفتح].

وقوله:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. قيل: وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً فقد قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَدَادِهِ أَيْمَنَتَهُمْ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ [الفتح] فهذا موضع علم وحكمة فقال: ﴿عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾.

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله: ﴿وَيَعِذِّبُ الْمُنْتَقِيقِينَ وَالْمُنْتَفَقِتِ وَالْمُسْرِكِينَ وَالْمُشَرِّكِينَ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَرَبَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السَّوْءَ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ رَأَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثْبَمْهُمْ فَتَحَاقَّ فِيهَا وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح].

فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَوْلَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ يَسْطِعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَىكِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم].

وقوله:

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْطِعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَىكِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [ال Zimmerman].

(١) انظر البرهان للكرمانى . ٤٣٩

فقد قال في آية الروم: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ وفي آية الزمر: ﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا﴾ وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات^(١) وفي الزمر ست مرات^(٢). ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة^(٣) وفي الروم عشر مرات^(٤). فاستحققت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفأيدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿وَمَا أَمَّتِ بِهِدٍ الْعُمُّي عَنْ ضَلَالِهِمْ ...﴾ [الروم] وجاء بفأيدي العلم في آية الزمر فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيَرَ اللَّهُ أَمْرُهُنَّ أَغْبَدَ أَيْمَانَ الْجَنَّهُونَ﴾ [الزمر].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَحُ فِي الْصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْوَهٌ دَاهِرِينَ﴾ [النمل].

وقوله:

﴿وَفُتحَ فِي الْصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ فُتحَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر].

فقد قال في النحل: ﴿فَفَزَعَ﴾ وفي الزمر: ﴿فَصَعَقَ﴾، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَنْوَهٌ دَاهِرِينَ﴾، وهو المناسب للفزع إذ معنى داهرين: صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ فَزَعَ بِوَمَيْدَنِهِ أَمْنُونَ﴾ [النمل] فأمنهم من الفزع الذي يصيب الخلق يوم القيمة.

(١) انظر الآيات: ٩، ٢٤، ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١.

(٢) انظر الآيات: ٢١، ٣٨، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٥.

(٣) انظر الآيات: ٩، ٧ (مرتين)، ٢٦، ٢٩، ٣٩، ٤٦، ٤٩ (مرتين)، ٥٢، ٧٠.

(٤) انظر الآيات: ٦، ٧، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٤، ٥٦ (مرتين)، ٥٩.

ثم انظر مرة أخرى كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فرع في قصة موسى وذلك قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَهَا هَبَّرَ كَانَهَا جَانٌ وَلَمْ يُدِرِّكَ وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَيْ لَا تَحْفَتْ إِلَيْ لَا يَحْجَفْ لَدَى الْمَرْسُولَوْنَ» [النمل].

وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَئِنْهُمْ مَيِّتُونَ» [الزمر] وقوله: «اللَّهُ يَتَوَفَّ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهِمْ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهِمْ فَيُمْسِلُهُ اللَّهُ أَنَّ قَصْنِي عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرِسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍّ» [الزمر].

جاء في (البرهان) للكرماني أن سورة النمل خصت بقوله: «فَقَرَبَ» «موافقة» لقوله: «وَهُمْ مِنْ فَرَعَ يَوْمَيْنِ عَامِنُونَ». وخصت الزمر بقوله: «فَصَاعَقَ»، موافقة لقوله: «وَلَئِنْهُمْ مَيِّتُونَ» لأن معناه: مات^(۱).

ومن ذلك قوله تعالى:

«يَكَانُوا إِنَّ النَّاسَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَلَنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَفَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَفَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَنَفَرُ فِي الْأَرْضِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجْلَ مُسَمٍّ ثُمَّ نَخْرُجُكُمْ طَفْلًا ثُمَّ لَنْ تَبْلُغُوا أَشْدَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوَّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِنَّ أَرْذَلَ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْءٍ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ زَقْعَنْ بَهِيجَ» [الحج].

وقوله:

«وَمَنْ مَاءِنِيهِ أَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا سَجَدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجَدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ» [٣٧] فَإِنْ آسَتَكُمْ بِرُوَا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسْتَحْوِنُ لَهُ بِالْأَيَّلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» [٣٨] وَمَنْ مَاءِنِيهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْعَى الْمَوْقَتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [٣٩] [فصلت].

فقد قال في آية الحج: «هَامِدَةً» وفي آية فصلت: «خَشِعَةً» «وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبيّن وجه التناقض في «هَامِدَةً» و «خَشِعَةً».

أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسوق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسوق معه تصوير الأرض بأنها خاسعة فإذا أُنْزَلَ عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ. ثُمَّ لَا يَزِيدُ عَلَى الْاهْتَرَازِ وَالْإِرْيَاءِ هَذِهِ الْإِنْبَاتُ وَالْإِخْرَاجُ كَمَا زَادَ هَنَاكَ، لَأَنَّهُ لَا مَحْلٌ لَهُمَا فِي جَوِّ الْعِبَادَةِ وَالسُّجُودِ»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ...﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةُ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ...﴾ [التوبه].

فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام، وذلك لاختلاف حال من عني بهما «وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سعيد الأنصاري، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكافر ثم ندم، فأرسل إلى قومه ليسأله رسول الله ﷺ هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه. فكانت حالة حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً من عرف بنفاق، ولا أنه أبطن خلافاً ما ظهر منه من إسلامه، فكانت حالة حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان. فناسب وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب.

أما آية التوبة فنزلت في الجلاس حين قال في غزوة تبوك: لئن كان ما يقول محمد حقاً لنجن شر من الحمر. فلم ي ذلك إلى رسول الله ﷺ فاستدعاه فحلف ما قال. وكان منافقاً معروفاً النفاق يتظاهر بالإسلام ويبيطن خلافه. فأنزل الله في قضيته: «يَعَلَّمُونَ يَاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةُ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» [التوبه]^(٢) فقيل هنا: (بعد إسلامهم) مناسبة للحال»^(٢).

(١) التصوير الفني ٩٩.

(٢) ملاك التأويل ١٦٦ / ١٦٧.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيعَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَشْتَهِرُونَ ۝﴾ [الحجر].

وقوله:

﴿وَكُمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَشْتَهِرُونَ ۝﴾ [الزخرف].

فقال في آية الحجر: (من رسول) وقال في آية الزخرف: (من نبي) وذلك أنه: «لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتکثیر ناسب ذلك من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبی غیر مرسل. فورد هنا ما یعم الصنفین علیهم السلام.

اما آية الحجر فلم یرد فيها ولا قبلها ما یطلب التکثیر مع ما تضمنت من قصد تأییسه علیه السلام وتسلیته، فاختصت بالتعيين باسم الرسالة تسلیة له عن قولهم: (إنك لمجنون) وبما جرى للرسل قبله علیه السلام من مثل ذلك. ومن البین أن موقع (رسول) هنا أمكن في تسلیته علیه السلام. فجاء كل على ما یجب من المناسبة^(۱).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَمْلُؤنَ الْعُرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَيِّحُونَ بِمُحَمَّدٍ رَّبِّهِمْ وَيُقْوِمُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمَ عَذَابَ الْجِحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَآذِنْهُمْ جَنَّتِ عَدَنِ ۝ ۝﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَيِّحُونَ بِمُحَمَّدٍ رَّبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الشورى].

فقال في (غافر) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ۝﴾ وقال في الشورى:
﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. وذلك لأسباب عده منها:

(۱) ملاک التأویل ۵۸۴ / ۲

١- أن آية غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله، وأية الشورى ذكرت عموم الملائكة. فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢- ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال (ويؤمنون به) ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣- ثم إن قوله: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك ذكر المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقيّدُ هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» ناسب ذكر هاتين الصفتين وقصرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.

ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ إِنَّ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ [الجمعة].

فقيل في الأولى: (من أنفسهم) وفي الثانية: (منهم) وذلك «أن قوله: (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قوله (فلان منهم). فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة. أما (من

أنفسهم) فأخص فلا يفتقر إلى قرينه. ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظام النعمة به ﷺ وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ [التوبه] وقال تعالى فيمن كان على الند من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل]. فتأمل موقع قوله هنا: (منهم) لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة فقيل هنا: (منهم) ...

ولما كان لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب من ليس من أهل الكتاب قيل: (منهم) فناسبت هذه الآية بما فيها من الشياع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب من أسلم ومم من لم يسلم. ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فشخص من أسلم ناسب ذلك قوله: (من أنفسهم) بخصوصه كما تقدم. ولم يكن العكس ليناسب «^(۱)».

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَاتِ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَاتِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

فقد قال في الآية الأولى: (عن مواضعه) وفي الثانية: (من بعد مواضعه) وذلك أن الكلام في الآية على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً^(۲). فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثَنَا مِنْهُمْ أَنَّقَ شَرَّ نَقِيبًا...﴾ [آل عمران] فِيمَا نَقِيبُهُمْ لَعَنْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً يَحْرِفُونَ الْكَلِمَاتِ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

(۱) ملاك التأويل ۱۷۸/۱۷۹.

(۲) انظر البرهان للكرماني ۱۳۸، ملاك التأويل ۲۴۲/۱ وما بعدها.

وقال في الآية الثانية: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِفَوْمِ إِخْرَيْنَ لَمْ يَأْتُوكُ بِحَرْقُونَ الْكَلَمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...» [المائدة] فجاء في الثانية بكلمة (بعد) لأنها «قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد و (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه»^(١).

وجاء في الأولى بـ (عن) لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به. ومن بديع ذلك وطريقه قوله تعالى:

«فَقَدْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَبْيَانًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ» [الأنعام].

وقوله:

«فَقَدْ كَذَبُوا فَسِيَّاتِهِمْ أَبْيَانًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ» [الشعراء].

فقد ذكر (سوف) في آية الأنعام فقال: (فسوف يأتيهم أنباء...) وذكر السين في آية الشعراء فقال: (فسيأتيهم).

وذكر (الحق) في آية الأنعام فقال: (فقد كذبوا بالحق)، ولم يذكره في آية الشعراء. ولكل من ذلك سبب يدعو إليه.

أما ذكر (الحق) في آية الأنعام فإنه تردد في هذه السورة اثنى عشرة مرّة^(٢) ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

وأما ذكر (سوف) في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن (سوف) أبعد في الاستقبال من السين. ولو وضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:

١ - أن المعنيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة بذلك على ذلك قوله تعالى: «لَمَّا كَبَحَ قَسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنَّنَّا نَنْزَلُ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْتَقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» [الشعراء].

(١) درة التنزيل ٩١.

(٢) انظر الآيات: ٥، ٣٠، ٧٣، ٦٦، ٦٢، ٥٧، ٩١، ١٤١، ١١٤، ٩٣.

وأما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوا قبل الأبعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

علاوة على ما في السورة من تسلية للرسول فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فهؤن عليك الأمر، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

٢ - ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

٣ - ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ - فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول أنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّيٍّ وَكَذَبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِيٌّ مَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِيٌّ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . فناسب عدم الاستعجال ذكر (سوف) هنا.

ب - ورد في الأنعام قوله: ﴿ قُلْ يَقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لِمَ عَذِيقَةُ الدَّارِ ﴾ ذكر (سوف) ولم يذكر السين وهو الملائم للجو العام للسورة.

ج - ثم انظر كيف قال في موطن آخر من سورة الأنعام: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمِعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فقد ذكر انه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال: (ليجمعنكم إلى يوم القيمة). وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيمة.

فناسب ذلك كله وضع (سوف) دون السين في الأنعام.

د - قال في ختام سورة الأنعام: «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكد هما بـإِنَّ واللام، وأكَد سرعة العقاب بـإِنَّ وحدها، كما أنه لم يؤكد هما كما أكد هما في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأعراف] فأكَد سرعة العقاب بـإِنَّ واللام، وذلك لما كان الموطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

ه - ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُكَذِّبِينَ» [الأنعام] فقد جاء بـ(ثُمَّ) الدالة على التراخي وبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُجْرِمِينَ» [النمل] فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع (ثُمَّ) في آية الأنعام هذه علامة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء. فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: «ثُمَّ أَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُكَذِّبِينَ» وختمت آية النمل بقوله: «فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُجْرِمِينَ»، والمكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم، ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع (المكذبين) بـثُمَّ ومع المجرمين بالفاء. فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تَرَيَأَ وَأَبَأْنَا أَئْنَا الْمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعَدْنَا هَذَا حَمْنٌ وَأَبَأْنَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ» [النمل].

ثم جاء بالآية: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا...».

ثم صَرَّ الرسول بعدها بقوله: «وَلَا تَخْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مَّا يَمْكُرُونَ» [النمل] فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِيفًا لِّكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل]^(١) بخلاف قوله تعالى في الأنعام: (ما عندي ما تستعجلون به). فناسب كل ذلك ذكر (ثم) في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل. لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء.

فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟

ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران]^(٢).

وقوله:

﴿ ... وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... ﴾ [آل عمران].

عرف (الحق) في الأولى ونكره في الثانية، وذلك أن كلمة (الحق) المعرفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره. أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيناد الأنبياء فضلاً عن قتلهم. فكلمة (حق) هنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرفة معلومة. والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لسبب يدعوا إلى القتل ولا غيره^(١). فمقام التشنيع والذم هنا أكبر منه ثم وكلاهما شنيع وذميم.

فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

قال تعالى: ﴿ ... وَظَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَذْلَةُ وَالْمَسَكَنَةُ وَبَاءُوا بِنَصَارَىٰ مِنْ أَنْهَاكَ إِلَيْهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِإِيمَانِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ إِمَّا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران]. فعرف (الحق) فيها.

(١) انظر ملخص التأويل ٧١ / ١ - ٧٣.

وقال: «صَرِيْتَ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا حَبَلَ مِنَ اللَّهِ وَحَبَلَ مِنَ النَّاسِ وَآءُوا وَيُنَفَّضِبُ مِنَ اللَّهِ وَصَرِيْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِقَوْنَتِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ الْأَنْبِيَاءَ يُغَيِّرُ حَقًّا ذَلِكَ بِإِنَّهُمْ أَعْصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» [آل عمران] فنكر (الحق).

ومن الواضح أن موطن الدم والتتشريع عليهم والعيوب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:

أنه في سورة البقرة جمع (الذلة) و (المسكنة) وأما في آية آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال: «صَرِيْتَ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا» فجعلها عامة بقوله: (أينما ثقروا) ثم قال: «وَصَرِيْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قوله: (انهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) أكد من قولك (انهاك عن الكبر والرياء).

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: (ويقتلون النبيين) وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: (ويقتلون الأنبياء) أي: يقتلون العدد الكبير من الأنبياء بغير حق.

فالتشريع عليهم والعيوب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَزْوَاجًا يَرْبَصُنَ بِأَنْفُسِهِنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغُنَ أَجَهَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَ بِالْمَعْرُوفِ . . .» [البقرة] عرف (المعروف).

وقال في آية أخرى:

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّلِعًا إِلَى الْحَوْلِ عَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِبْ مِنْ مَعْرُوفِ . . .» [البقرة]. فنكرة.

(١) انظر معاني النحو - باب المعرفة والنكارة - المعرف بأي.

وذكر أن المقصود بـ(المعروف) هنا الزواج خاصة، وأما غير المعرف فيراد به مالم يستنكر فعله من خروج أو تزيين ونحوه. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف والباء فقال: (المعروف) والمكان الثاني بالتنكير ولحظة (من).

والجواب عن ذلك أن يقال: إنَّ الْأَوَّلَ تَعْلُقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَقَّنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيقُنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغُنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة]. أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انتهاء العدة، فالمعروف هنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.

والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود. فالمعروف، هنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه. ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر، فجاء (المعروف) في الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خصّ بالباء وهي للإلاصاق .

والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتيه فأخرج مخرج النكرة لذلك»^(۱).

(۱) درة التنزيل ۵۲-۵۳.

ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَرِيَّصُنَ بِأَنفُسِهِنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقوله: (يتربصن) معناه: يصبرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ...﴾ [البقرة].

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

ومن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين. بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

ومثل هذا استعماله للفظي (الكذب) و (كذب) بالتعريف والتنكير، فاستعمل (الكذب) بالتعريف لما هو خاص بأمر معين. و (كذباً) بالتنكير لما هو عام.

قال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامٍ كَانَ جَلَّ لِيَقِنَ إِسْرَئِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنَزَّلَ الْقُرْآنَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالْقُرْآنَةِ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ﴿فَمَنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران].

فجاء بالكذب هنا معرفاً لأنه مخصوص بهذه المسألة أي: مسألة الطعام. ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَتَخُذُ اللَّهَ وَلَدًا سُبْحَانَهُمْ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْقُلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يوحنا].

تعرف الكذب لأنه مخصوص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه. ونحوه قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةَ وَلَا سَآيَةَ وَلَا وَصِيلَةَ وَلَا حَامِّ وَلَا كِنَّ أَلَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ وَأَكْرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة].

فاستعمل الكذب معرفاً لأنه مخصوص بمسألة الأنعام.

في حين قال: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارِكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أَمَّا الْقَرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِم بِمَا حَفِظُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمَ مِنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۝ ۝ ۝ [الأنعام].

فالكذب هنا عام ولم يخص بمسألة معينة.

ونحوه قوله تعالى:

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّثُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ يَدِهِ فَقَدْ لَيْسَ فِيمُّكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَقْلُوبُكُمْ ۝ فَمَنْ أَظْلَمَ مِنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِغَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝ ۝ ۝ [يونس].

وقوله:

«أَمْ يَقُولُونَ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ أَبْطَلَ . . . ۝ ۝ ۝ [الشورى].

وقوله:

«إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَعْنَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ۝ ۝ [المؤمنون].

فأنت ترى أنه استعمل المعرف لأمر مخصوص، في حين استعمل المنكر لما هو عام.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

«. . . فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ ۝ ۝ [المؤمنون].

بتعریف (القوم).

وقوله:

«. . . فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ۝ ۝ [المؤمنون].

بتنكير (قوم).

وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم صالح فعرفهم بدليل قوله تعالى: «فَلَمْ يَرَهُمُوا الصِّيَحَةَ بِالْحَقِّ...» [المؤمنون].

وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا لَآخَرِينَ» [المؤمنون] وقوله: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِنَّا نَتَرَكُ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبَوْهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ بَعْدَ اِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ» [المؤمنون]. فخصهم بالنكرة^(١).

ومنه قوله تعالى:

«وَإِمَّا يَرَزَغُنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَرْزُغُ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّمَا سَمِيعٌ عَلَيْهِ» [الأعراف].

وقوله: «وَإِمَّا يَرَزَغُنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَرْزُغُ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ أَسْمَاعٍ عَلَيْهِ» [فصلت].

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكرتين (سميع عليم) ووردتا في (فصلت) معرفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.

وذلك أنه ورد قبل آية الأعراف وصف آهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة قال تعالى: «أَيْسَرُ كُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ» [١٦] «وَلَا يَسْتَطِعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَفْسُهُمْ يَصْرُونَ» [١٧] «وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَيْنُكُمْ أَدْعُوكُمْ أَمْ أَسْنَدُ صِمَمُوكُمْ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَإِذَا دَعَوكُمْ فَلَيَسْتَجِبُوا لَكُمْ إِنْ كَنْتُمْ صَنِدِيقِينَ» [١٨] «أَلَّهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطَشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَادٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شَرَكَاءَكُمْ مُّكِدُونَ فَلَا نُنَظِّرُونَ» [١٩] [الأعراف].

فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آهتهم التي لا تسمع ولا تعي. وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله: «وَلَكِنْ ظَنَّنَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ» [٢٠] [فصلت].

(١) انظر البرهان للكرماني، ٣٣٨، درة التنزيل ٣١٦-٣١٧.

فأثبتو لله سبحانه قليل العلم ونفوا عنه كثيروه، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن مaudاه لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه. ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدها هذا المعنى، إذ كل منْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم. جاء في (ملك التأويل): «إن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وبخوا بعبادتها في قوله في موضع آخر: ﴿أَنَّقَبُدُونَ مَا تَنْجِحُونَ﴾ [الصافات] فوصف هنا بأنها لاتخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى أَهْلَنَّ لَا يَسْمَعُونَ وَتَرَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ [الأعراف] فنفي عنهم القدرة والسمع والبصر والآلية البطش بقوله: ﴿أَللَّهُمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف].

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله: (سميع عليم) مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبدوه من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدع، فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً بنفيه فجاء على ما يجب.

أما آية السجدة^(١) فتقدم قبلها قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مَا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت] وقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرِيزَنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ﴾ [فصلت] وقوله تعالى: ﴿أَرِنَا الَّذِينَ أَخْسَلُنَا مِنَ الْمُنْفَعِ وَالْأَيْمَنِ﴾ [فصلت] فحصل من هذا أن مُضلهم إنما كان من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر من ينسب إليه علم، بخلاف المتقدم ذكره في الأعراف.

فلما تقدم في سورة السجدة ما يظهر منه الغناء ويمكن أن يسمع ويصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك من غير الموصوف

(١) المقصود فصلت.

بهمما تعالى. ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص ليقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ(دليل الخطاب)، فصار الكلام في قوة أن لو قيل: الله السميع العليم لا غيره^(١).

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يعرف اللفظة مرة بأـل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:

﴿الله يَسْتَهِنُ بِرَبِّهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَلِخَوَانِهِمْ يَمْدُدُهُمْ فِي الْغَيْثِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد عرف (الطغيان) بالإضافة وعرف (الغيـ) بأـل، وذلك أنه أـسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: (ويـدهم في طغيانـهم يـعمـلـونـ) فالله إنـما يـمدـهم في طـغـيـانـهـمـ هـمـ، ولا يـمدـهمـ في طـغـيـانـ جـديـدـ لمـ يـفـعلـوهـ.

في حين أـسـنـدـ المـدـ في آـيـةـ الـأـعـرـافـ إـلـىـ الشـيـاطـيـنـ فـذـكـرـ أـنـهـ يـمـدوـنـهـمـ فيـ غـيـ جـديـدـ لـاـ فيـ غـيـهـمـ وـحـدـهـ، فـهـمـ يـضـيفـونـ غـيـاـ إـلـىـ غـيـهـمـ. جاءـ فيـ (الـكـشـافـ): (إـنـ قـلـتـ: أـيـ نـكـتـةـ فـيـ إـضـافـةـ إـلـيـهـمـ؟

قلـتـ: فـيـهـ أـنـ الطـغـيـانـ وـالـتـمـادـيـ فـيـ الضـلـالـةـ مـاـ اـقـتـرـفـهـ أـنـفـسـهـمـ وـاجـتـرـحـهـ أـيـدـيـهـمـ وـأـنـ اللهـ بـرـيءـ مـنـهـ . . .

ومـصـدـاقـ ذـلـكـ أـنـ حـينـ أـسـنـدـ المـدـ إـلـىـ الشـيـاطـيـنـ أـطـلـقـ الغـيـ وـلـمـ يـقـيـدـهـ بـالـإـضـافـةـ فـيـ قـوـلـهـ: (وـلـخـوـانـهـمـ يـمـدـوـنـهـمـ فـيـ الـغـيـ) ^(٢).

وـمـنـ ذـلـكـ الاـخـتـلـافـ فـيـ اـسـتـعـمـالـ حـرـوفـ الـعـطـفـ.

فـهـوـ يـسـتـعـمـلـ حـرـوفـ الـعـطـفـ فـيـ غـايـةـ الدـقـةـ وـالـجـمـالـ، فـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ الـواـوـ تـأـتـيـ لـمـطـلـقـ الـجـمـعـ، وـأـنـ الـفـاءـ تـقـيـدـ التـرـتـيبـ وـالـتـعـقـيـبـ، وـ(ثـمـ) تـقـيـدـ التـرـتـيبـ وـالـتـارـاخـيـ .

(١) مـلاـكـ التـأـوـيلـ ١/٤٥٢ـ٤٥٣ـ.

(٢) الكـشـافـ ١/١٤٥ـ١٤٦ـ.

ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً، هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده. ومعنى التعقيب أنه حصل بعده بلا مهلة، فإذا قلت: (جاء محمد فخالد) كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.

ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك: (حضر محمد ثم خالد) يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء. ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت: (تزوج أحمد فولد له) كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل^(١) أما إذا قلت: (تزوج أحمد ثم ولد له) كان معنى ذلك أن الحمل تراخي عن الزواج.

وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي: ليست للترتيب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت: (حضر أحمد وخالد) كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً. وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهما مهلة. وليس معنى ذلك أنها لاتأتي للترتيب البة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره.

وقد استعمل القرآن ذلك ألطاف استعمال وأدقه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿تُمَّ أَمَانُهُ فَأَقْبِرُوهُ ۝ تُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُوهُ ۝﴾ [عبس] فجاء في (أقربه) بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ (ثم) لأن الشور يتأخر عن الدفن^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَيْتُكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ ۝﴾ [البقرة].

فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بـ ثم ذلك « لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخي وأما الموت فقد تراخي عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخي عن الموت^(٣) ». .

(١) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢.

(٢) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢، ١٤٠.

(٣) الكشاف ١/٢٠٨.

وشيء بذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ يَهْدِي وَالَّذِي هُوَ يَطْعَمُ وَيَسْقِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِي وَالَّذِي يُسْتَأْنِثُ ثُمَّ يُحْيِي وَالَّذِي أَطْمَعَ أَنْ يَقْفَرَ لِي خَطِيبَتِي بِوْمَ الْتِبْيَتِ﴾ [الشعراء].

« فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهدایة للخلق... وكان العطف في الآية الرابعة بـ(ثم) لترابخ الإحياء عن الإمامة »^(١).

وأما الفاء في قوله: (فهو يشفين) فهي الرابطة للجواب وليس عاطفة. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنَاثِرُونَ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَايَتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم].

« قال هنا: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنَاثِرُونَ﴾ فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدرج وتراث حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفع فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدرج وتراث بل يكون نداء وخروج فلم يقل هنا: ثم »^(٢).

وبعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف فيها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِأُلَيَّى النَّهَى﴾ [طه].

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة].

(١) التعبير الفني في القرآن ١٨٧ وانظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٤٢.

(٢) التفسير الكبير ٢٥/١١٦.

فقال في آية (طه): (أفلم بالفاء، وقال في آية السجدة: (أولم بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَخَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْنَى [١٧]» [طه].

وقال: «وَكَذَلِكَ تَجْرِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعْذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُ وَأَبْقَى [١٨]» [طه] فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال: (ونحشره يوم القيمة أعمى). وقال: (وكذلك نجزي من أسرف...) والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده: (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) بخلاف ما في سورة السجدة فإنه آخر الأمر إلى يوم القيمة، فقد قال قبل هذه الآية: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْلِفُونَ [١٩]» [السجدة]. فجاء بالفاء في (طه) لأنها تفيد التعقب وجاء بالواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة: (من قبلهم من القرون) وفي طه: (قبلهم من القرون) بدون (من) وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال: «وَقَالُوا أَءَذَا حَضَلَّنَا فِي الْأَرْضِ أَعْنَانَ الْفِلَقِ جَدِيدٌ بَلْ هُمْ بِلِقَاءُ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ [٢٠] قُلْ يَوْنَكُمْ مَلْكُ الْمَوْتِ الَّذِي تُكْلَفُونَ إِلَيْكُمْ تُرْجَعُونَ [٢١]» [السجدة].

فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في (طه) فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.

ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله: (أفلا يسمعون) وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإن خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السمع بخلاف الأقدمين.. وهذه إشارة تهديك إلى خاتمة آية (طه) لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاجِيَاتٍ هُودًا وَالَّذِينَ أَمْنَأْمَعَهُمْ بِرَحْمَةِ مَنَا... [٤٥]» [هود].

وقوله:

«وَلَنَاجَاهُهُمْ نَاجِيَاتٍ شَعَبِيَّاً وَالَّذِينَ أَمْنَأْمَعَهُمْ بِرَحْمَةِ مَنَا... [٤٦]» [هود].

فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ أَنْرَى بِتَّيَّنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ مَا مُنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مُنْكَارٌ﴾ [هود: ١١].

وقال في قصة لوط:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنْ لِهَا سَاقِلَهَا...﴾ [هود: ٦٧].

بالفاء وسبب ذلك أن «العذاب» في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد. فإن في قصة هود: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ إِلَيْهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ...﴾ [هود: ٥٩].

وفي قصة شعيب: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٧] والتخييف قارنه التسويف فجاء باللواء المهملة.

وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقب الوعيد، فإن في قصة صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ١٥] وفي قصة لوط: ﴿أَلَيْسَ الظَّيْنُ بُقَرِيبٌ﴾ [هود: ٨] فجاء بالفاء للتعجيل والتعليق «^(١)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ ذُكْرَ بِتَائِتِ رَبِّهِ فَأَغْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا فَدَمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ظَاهِرِهِمْ وَقَرًا وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقوله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ ذُكْرَ بِتَائِتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَغْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال في آية (الكهف): ﴿فَأَغْرَضَ عَنْهَا﴾ وقال في آية السجدة: ﴿ثُمَّ أَغْرَضَ عَنْهَا﴾ وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكرة، يدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف: ﴿وَنَسِيَ مَا فَدَمَتْ يَدَاهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ظَاهِرِهِمْ وَقَرًا﴾ وهذا الوصف

(١) البرهان للكرماني ٢٣٦-٢٣٧، درة التنزيل ٢٣٤-٢٣٥.

ما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد: ﴿وَلَن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذَا أَبْدَأُوهُمْ﴾ فذكر صمّهم وبعدهم عن الهدى.

وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالتها على الترتيب والتعليق و (ثم) في آية السجدة لدلالتها على التراخي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الفاء قد تدل على السبب فجاء بالفاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى: ﴿وَآمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادُوهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبه].

فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الفاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [النمل].

وهاتان الآياتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال: (وما كان جواب قومه)، وجاء في آية النمل بالفاء فقال: (فما كان جواب قومه) مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف.

وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.

فقد قال في الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتَحَشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهَرُونَ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتَحَشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا أَهْلَ لُوطٍ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهَرُونَ﴾ [النمل].

فأنت ترى أن مقام الإنكار والتقرير في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:

١- قوله تعالى في الأعراف: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ أَرْجَالَ» وفي النمل: (أنتم) يإدخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوييج.

٢- قوله في الأعراف: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» وفي النمل: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» والوصف بالجهل فيه زيادة تقرير، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإنك إذا قلت لشخص: (أنت مسرف في هذا الأمر) كان أهون عليه من قولك: (أنت جاهل).

ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يتريثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل: «أَخْرِجُوهُ أَلَّا لُوطِرُ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ» بخلاف ما في الأعراف فقد جاء بالضمير: «أَخْرِجُوهُمْ».

وقد تقول: وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟

والجواب: لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متاخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه. وأما الفاء ففي الترتيب فهي تقيد أحد معاني الواو. فذكر معنى الترتيب والتعليق في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب. وهذا من أعجب الكلام وأدقة.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مداعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة. وكل ذلك جائز والله أعلم.

ومن ذلك الشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى: «وَلَا يَنْمِنُونَهُ أَبَدًا إِمَّا فَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» [الجمعة].

وقوله:

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٥].

فنفي التمني في الآية الأولى بـ (لا) فقال: ﴿وَلَا يَشْتَمَنُوهُ﴾ ونفاه في الثانية بـ (لن) فقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُ أَنَّكُمْ أَوْلَيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَقُسْمِنَّا إِنَّ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ۖ وَلَا يَشْتَمَنُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٧].

وقال في البقرة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَقُسْمِنَّا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ۖ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٤٩]. وأنـت ترى الفرق واضحاً بين السياقين، فإنـ الكلام في الآية الثانية على الآخرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ . . .﴾ والدار الآخرة استقبال فنفي بـ (لن) إذ هو حرف خاص بالاستقبال.

وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمن دون زمن: ﴿إِنْ زَعَمْتُ أَنَّكُمْ أَوْلَيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فهذا أمر مطلق فنفي بـ (لا) وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.

ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو ألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناطر فني جميل.

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في حروف النفي نحو قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَا نَا الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢١] وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَا نَا الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُعَوِّذِنَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٦] وقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٦] وغيره ما يعني عن إعادة ذكره.

ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً. فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعوه إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.

فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِيَنِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْبِرْ بَعْثَتِهِمْ وَيُحْبِطُهُمْ أَذْلَالَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ بَعْثَتِهُمْ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَلَا يَنَاطُونَ لَوْمَةً لَآئِيْرٍ﴾ [المائدة: ٦٦] فعدى (أذلة) جمع ذليل بـ (على) والأصل أن يعود باللام لأنه يقال: (هو ذليل له) ولا يقال: (ذليل عليه) وقد عدل عن التعدي باللام إلى التعدي بـ (على) لأن المعنى يتضمن ذاك، إذ لو عده باللام لكان ذماً لا مدحًا. فقولك: (وهو ذليل له) يفيد الذم، وهو هنا في مقام المدح، فجاء بـ (على) للإشارة بالذلة المستعلية وللدلاله على خفض الجناح كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٣٨] أي: هم يوطئون أكتافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ (على) للإشارة بالعلو (بخلاف مالو قال (أذلة للمؤمنين) جاء في (الكشف): «إإن قلت: هلا قيل: أذلة للمؤمنين أعزه على الكافرين؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجذحتهم»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّا كُمْ لَمَنِي هُنَّى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢١] فاستعمل مع الهدية حرفة الاستعلاء (على) ومع الضلال (في) وذلك لأن من كان على الهدى، كان

(١) الكشف / ٤٦٧.

مستعمل على الحق متمكن منه مثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها. والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة؟ فال الأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة] وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] فاستعمل للهدي (على) في حين قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ جِئْنَ﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿فَهُمْ فِي رَّبِّيهِمْ يَرْتَدُونَ﴾ [التوبية] وقال: ﴿وَيَذْرُهُمْ فِي طُغْيَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاتَةِ فَلَيَمْدُدْ لَهُ الرَّمَنْ مَدَّاً﴾ [مريم] أي: ساقطاً فيها.

جاء في (الكساف) في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: «فإن قلت: كيف خوف بين حرف الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتكب فيه لا يدرى أين يتوجه»^(۱).

وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة]: «قيل: في أداة (على) سر لطيف وهو الإشارة بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وقال رسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] والله عزوجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدي. فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن مستعملاً على الحق وعلى الهدي؟

(۱) الكشاف ۵۶۲/۱

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان الإتيان بأدابة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأدابة (في) الدال على انغماس صاحبه وانقامعه وتدعسه في ك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَبِّيهِمْ يَرَدَدُونَ﴾ [التوبه] قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعِلْمٍ نَا صُمًّا وَبِكُمْ فِي الظُّلْمَكَتْ﴾ [الأنعام] قوله: ﴿فَذَرُهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ جِين﴾ [المؤمنون] قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِسِّ﴾ [هود].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِنَّا كُمْ لَعَنِ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سباء] فإن طريق الحق تأخذ علوأ صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلأ هاوية بساalkها في أسفل سافلين^(۱).

ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى: ﴿وَيَلِلِّمَطَفِفِينَ﴾ [الذين إذا أكلوا علَّ النَّاسِ يَشْتَوْفُونَ﴿ وَإِذَا كَالُوْهُمْ أَوْ وَزَوْهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين].

قيل: إن (على) هنا بمعنى (من). وقيل: بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي: تسلطوا عليهم بالاكتيال^(۲).

والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قوله: (اكتال منه) و (اكتال عليه). فـ (اكتال منه) لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكتال عليه)، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا في المطففين. والمطففون كما بينهم القرآن إذا أخذوا من الناس أكثر من حقهم، وإذا أعطوهن أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من (من) وليس بمعنى (من) ولا تفيد (من) هذا المعنى.

ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوْهُمْ أَوْ وَزَوْهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين] ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم) وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، قالوا: وذلك أن اللام تقيد

(۱) التفسير القيم ۱۵-۱۶.

(۲) شرح الدماميني على المعني ۱/۲۸۹.

الاستحقاق ولم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم^(١).

ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:

﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١١٧].

فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال: (رغبت زيداً) لأنه لا يدرى المقصود أهو (رغبت في زيد) أم (رغبت عنه) أم (رغبت إليه) ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو (في) أم (عن) وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً. فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن. وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عنهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحالتين فلو قال: (في) لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى. ولو قيل: (عن) لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في (الكاف الشاف) في هذه الآية: «يحتمل في ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لجمالهن وعن ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لدمامتهن»^(٢).

ومما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:

﴿قُلُّوا مَا مَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَّتْ لِإِنْزَاهِنَمْ وَلَا سَمْعِيلَ وَلَا سَحَقَ وَلَا نَقْوَبَ وَلَا سَبَاطَ وَمَا أُوْقِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوْقِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

وقوله:

﴿قُلْ مَا مَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَّتْ لِإِنْزَاهِنَمْ وَلَا سَمْعِيلَ وَلَا سَحَقَ وَلَا نَقْوَبَ وَلَا سَبَاطَ وَمَا أُوْقِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) انظر (معاني النحو) - حروف الجر.

(٢) الكاف الشاف ٤٢٧/١.

فقال في آية البقرة: (وما أنزل إلينا) وقال في آل عمران: (وما أنزل علينا) جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين: أحدهما قوله: (أنزل إلينا) في الأولى و(علينا) في الثانية.

والموضع الثاني: تكرار (أوتي) في الأولى وتركها في الثانية... .

وشرح ذلك أن (على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو.

و (إلى) المتهى... فقوله تعالى: ﴿ قُلُّوا مَا أَمْنَكُ بِاللَّهِ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى)... فالمؤمنون لم يتزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم. فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).

ولما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله: ﴿ قُلْ مَا أَمْنَكَ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه... .

وأما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه (أوتي) من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزارتها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال: إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيقَةَ الْبَيْتِنَ لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [آل عمران] فقدم ذكر إيتاء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد^(۱).

ونقول تعليقاً على تعليله تكرار لفظ (أوتي) في البقرة دون آل عمران:

إن تكرار لفظ (أوتي) في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب.

من ذلك: أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى

(۱) درة التنزيل ۳۴-۴۶.

ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم. بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

ومنها: إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿وَقَاتُلُوكُوْهُوَدًا﴾^{١١} [البقرة] فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبيهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.

ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكرأخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيادنا محمد ونصره إنهم أدركوه قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيقَاتَ الظَّاهِرِينَ لِمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةً ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا أَعْكَمْتُمْ لَتَؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْهَمُنَّ﴾^{٤١} [آل عمران].

كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به فقد قال قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^{٤٢} [آل عمران].

وقال بعدها: ﴿وَمَنْ يَتَنَعَّمْ عَيْنَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْغَسِيرِينَ﴾^{٤٣} [آل عمران] فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإيتاء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإيتاء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرار الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتي وأتينا وأوتى وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعًا، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعًا، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران. وقد

رأينا في موضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظة في موضع دون آخر.

وأظنك في غنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد، الزمر ٥].

وقوله:

﴿كُلُّ يَجْرِي إِلَّا لَأَجْلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان].

فقد جاء في آية الرعد باللام (الأجل) وجاء في آية لقمان بـ (إلى) (إلى أجل مسمى)، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى: كل يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف وبلغه. وأما ما جاء بـ (إلى) فهو يفيد الانتهاء. جاء في (دراة التزيل): للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله: ﴿كُلُّ يَجْرِي إِلَّا لَأَجْلٍ مُسَمًّى﴾ وما سواه إنما هو ﴿يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى﴾.

والجواب أن يقال: إنَّ معنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى. قوله: ﴿يَجْرِي إِلَّا لَأَجْلٍ﴾ معناه: لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له.

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحضر والإعادة. فقبلها: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَثُكُمْ إِلَّا كَنَفِيسٍ وَحِجَةً﴾ [لقمان] وبعدها: ﴿يَتَاهِبَا النَّاسُ أَنْقُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجِزِي وَالَّذِينَ وَلَدَهُمْ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِي عَنِ الْيَوْمِ﴾ [لقمان] فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكون فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائل الموضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الْأَيَّلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْأَيَّلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَّةٌ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا رَوْجَهًا ﴾ [الزمر].

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: «وَمَا يَسْتَوِي الْعَرَانُ» إلى قوله: «وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴿١٢﴾ يُولَمُحُّ أَيَّلَ فِي النَّهَارِ وَيُولَمُحُّ النَّهَارَ فِي أَيَّلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ [فاطر] فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها - واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها «^(١)».

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبَرَارَ يَشَرُّبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِرَاجُهَا كَأُفُرًا ﴾ عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفَجِّيرًا ﴾ [الإنسان].

فقال أولاً: «يَشَرُّبُونَ مِنْ كَأسٍ» بـ(من) وقال بعدها: «عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا» بالباء . وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء هنا تفيد التبعيض بمعنى (من)^(٢) أي: يشرب منها . وقيل: بل ضمن شرب معنى (روي)^(٣) أي: يرتوي بها وهو أولى .

وفيها معنى آخر: وذلك أن قوله: «يَشَرِّبُ بِهَا» يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك: (نزلت بالمكان) فهو يدل على القرب والشرب ، فالتمعن حاصل بذلك النظر والشراب بخلاف الأول . جاء في (البرهان) أن « العين هنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه ، نحو : (نزلت بعين) فصار قوله: مكاناً يشرب به «^(٤)».

(١) درة التنزيل . ٣٧٥-٣٧٤

(٢) المغني ١/١٠٥ ، الهمع ٢١/٢

(٣) المغني ١/١٠٥ .

(٤) البرهان ٣/٣٣٨-٣٣٩

قالوا: وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:

الصنف الأول وهم الأبرار.

والصنف الآخر هم الذين سماهم «عباد الله» وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم وذلك أن القرآن يستعمل كلمة (عبد) على معنيين:

المعنى الأول: العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَكِّنَ لَهُنَّا عَبْدًا﴾ [مريم] وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.

والمعنى الثاني: العبودية الإختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطنًا نفسه على عبادته متحريًا مرضاته ساعيًا في طاعته واضعًا نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير. ويتفاصل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده. وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى: ﴿وَأَنَّمَا لَمَّا قَامَ عَبْدٌ لِلَّهِ يَتَّعَثِّرُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ [الجن] وقال: ﴿سَبِّحْنَاهُ الَّذِي أَنْزَلَنَا مِنْ بَطْرَاهُ لَمَّا قَرِئَ الْمُسْجِدُ الْحَرَامُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء] وقال: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّمَا كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء].

من هذا يتبين أن مرتبة الذين سماهم «عباد الله» أعلى من الأبرار. وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين. فقد قال في الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسِ كَانَ مَرَاجِهَا كَافُورًا﴾ وقال: في الآخرين: ﴿عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا عَبْدًا لِلَّهِ يَفْجِرُوهَا تَفْجِيرًا﴾. وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعيمين. فقد قال في الأبرار:

١- إنهم يشربون من كأس.

٢- ذكر أن هذه الكأس ليست خالصة بل ممتزجة ﴿كَانَ مَرَاجِهَا كَافُورًا﴾.

وأما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العين وهي مرتبة أعلى. ثم قال ﴿يَشَرِّبُهَا﴾ ولم يقل (يسرب

منها) أي: يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذة النظر وهم نازلون بالعيون.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى: «إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلْمَيْنِ ١٩٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْمُهُنَّ ١٩٧ إِنَّ كِتَابَ مَرْثُومٍ ١٩٨ يَشَهِّدُهُ الْمُقْرِبُونَ ١٩٩ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٠٠ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٠١ تَعْرُفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةً الْتَّعْيِمِ ٢٠٢ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٠٣ خَنَمُ مِسْكٌ ٢٠٤ وَفِي ذَلِكَ فَلَيَنْتَافِسَ الْمُنْتَافِسُونَ ٢٠٥ وَمِنْ زَاجُهُ مِنْ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ وَمِنْ زَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ٢٠٦ عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا الْمُقْرِبُونَ ٢٠٧» [المطففين].

فذكر الصنفين من السعداء: صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق. فانظر كيف قال في نعيم الأبرار: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٠٨ . . . وَمِنْ زَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ٢٠٩» أي: إنهم يسقون من رحيق ممزوج بالتسنيم، والتسنيم أعلى شراب في الجنة وهو يمزج لهم بحسب اعمالهم. في حين قال: «عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا الْمُقْرِبُونَ ٢١٠» أي: إن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزء من جنس العمل. وهم لا يشربون منها بل يشربون بها. فهذا - كما ترى نظير ما مر في سورة الإنسان.

ويجرنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتب بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً. فهو يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجياً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان. قال:

﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانٌ ٢١١ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١٢ ذَوَاتٍ أَفَنَانِ ٢١٣ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١٤ فِيهِمَا عَيْنًا تَجْرِيَانِ ٢١٥ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١٦ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنْكَهَةٍ رَوْجَانِ ٢١٧ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١٨ مُسَكِّونَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتِرْقٍ وَحْنَ الْجَنَّاتِ دَانِ ٢١٩ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٢٠ فِيهِنَّ قَصَرَتُ الْطَرْفُ لَمْ يَطْمِئِنَ إِنْ قَبَاهُمْ وَلَا جَانٌ ٢٢١ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٢٢ كَاهِنَ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ٢٢٣ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٢٤ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ٢٢٥ فَيَأْيَءَ الَّذِي رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٢٦﴾ [الرحمن].

ثم قال:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴾١١﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾١٢﴿مُّدَهَّأَتَانِ ﴾١٣﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾١٤﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ ﴾١٥﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾١٦﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ﴾١٧﴾
﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾١٨﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ ﴾١٩﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾٢٠﴾
﴿حُورٌ مَّعْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴾٢١﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾٢٢﴿لَمْ يَطِمْهُنَّ إِنْ قَبَاهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾٢٣﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾٢٤﴾
﴿مُشَكِّينٌ عَلَى رَقْفٍ حُضْرٍ وَعَقْرَبٍ حَسَانٌ ﴾٢٥﴿فَيَأْتِيَ إِلَهٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾٢٦﴾[الرحمن].

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنان بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال: (ومن دونهما جنتان) أي: أقل منزلة منهمما. وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١- قال في وصف الجنتين العليين: إنهم «دواًاناً أَفَنَانِ» في حين قال في الآخرين: «مُدَهَّأَتَانِ» أي: مائلتان للسواد من شدة الخضراء. والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله «مُدَهَّأَتَانِ».

٢- وقال في العليين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ» وقال في الآخرين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ». وماء الجري أكثر من ماء النضح . وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لا يفيدها قوله نضاختان^(١).

٣- وقال في العليين: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَكِهَةٍ وَنَجَانِ» وقال في الآخرين: «فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ». فانظر أين فاكهة الثنائيين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين. من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراف والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الآخرين.

٤- وقال في العليين: «مُشَكِّينٌ عَلَى رَقْفٍ حُضْرٍ وَعَقْرَبٍ حَسَانٌ». وقال في الآخرين: «مُشَكِّينٌ عَلَى رَقْفٍ حُضْرٍ وَعَقْرَبٍ حَسَانٌ».

(١) انظر الكشاف ١٩١/٣.

فقد ذكر بطائن الأولى فقال: إنها من إستبرق ولم يذكر ظهائرها لعلوها وللإشارة إلى أن الوصف لا يرقى إليها. قال في (ال Kashaf): «وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟»^(١).

في حين ذكر الأخرى فقال: هي ررف خضر وعقبري حسان. وانظر أين هذا من ذاك؟

٥- وقال في العليين: (فيهن قاصرات الطرف) في حين قال في الآخرين: (حور مقصورات في الخيام).

فانظر هداك الله وصف (القاصرات) بصيغة اسم الفاعل ووصف (المقصورات) بصيغة اسم المفعول ووازن بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦- وقال في وصف قاصرات الطرف: «كَاهِنَ آلِيَّاً قُوتُ وَالْمَرْجَانُ» ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعوة إلى التشويق لإحسان العمل و«هَلْ جَزَاءُ الْأَيْحَسِنِ إِلَّا الْأَيْحَسِنُ؟»

وانظر إلى دقة أخرى عجيبة في وصف هاتين الجنتين ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى: «فَيَأْتِيَ إِلَّا زَرِيمًا شَكَّبَانِ» تكرر في كل جنة ثمانية مرات بعد أبواب الجنة. وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى: «سَنَقْعُدُ لَكُمْ أَيْهَا الشَّقَّالَنِ» سبع مرات بعد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثمانية كما أخبر به الصادق المصدق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز: «هَمَّاسَعَةُ بَوَبٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ حُرُمٌ مَقْسُومٌ» [الحجر].

فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته. ونظير هذا التفريق في الجزاء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعم أصحاب اليمين.

قال تعالى في السابقين:

(١) الكشاف ١٩١/٣.

﴿وَالسَّدِيقُونَ السَّدِيقُونَ ﴾ أُولَئِكَ الْمُقْرَبُونَ ﴿١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ
الآخِرِينَ ﴿٤﴾ عَلَى سُرُورٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٥﴾ مُتَكَبِّرُونَ عَيْنَهَا مُتَقْدِلُونَ ﴿٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخْلَدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقٍ كَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ ﴿٨﴾ لَا يُصْدِعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزِفُونَ ﴿٩﴾ وَفَكَاهَةٌ مَمَّا يَتَحَبَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَحِمٌ طَيْرٌ مَّمَّا
يَشَهُونَ ﴿١١﴾ وَحُورٌ عَيْنٌ ﴿١٢﴾ كَامْتَلٌ الْلَّوْلُوُ الْمَكْنُونُ ﴿١٣﴾ جَرَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا الْغَوَا وَلَا
يَأْتِيهَا ﴿١٥﴾ إِلَّا قِلَّا سَلَّمَا سَلَّمَا ﴿١٦﴾ [الواقعة].

وقال في أصحاب اليمين:

﴿وَأَحْبَبَ الْيَمِينَ مَا أَحْبَبَ الْيَمِينَ ﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿١٧﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿١٨﴾ وَظَلِيلٍ مَمْدُودٍ ﴿١٩﴾
وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٢٠﴾ وَفَكَاهَةٌ كَثِيرٌ ﴿٢١﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴿٢٢﴾ وَفَرْشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ
إِنْشَاءً ﴿٢٤﴾ بَعَلَنَّهُنَّ أَبَكَارًا ﴿٢٥﴾ عَرِبًا أَتَرَابًا ﴿٢٦﴾ لَا أَصْحَبٌ الْيَمِينَ ﴿٢٧﴾ [الواقعة].

فانظر كيف فرق بين النعيمين:

- ذكر أن السابقين على سُرُورٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متکثين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال: «وَفَرْشٌ مَرْفُوعَةٌ» وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحالتين. وقيل: إن المراد بالفرش هنال النساء.
- وذكر أن السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين. ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين. بل قال: «وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ» والفرق ظاهر.

٣- وذكر نعيم السابقين فقال: «وَفَكَاهَةٌ مَمَّا يَتَحَبَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِمٌ طَيْرٌ مَّمَّا يَشَهُونَ ﴿٢١﴾» في حين قال في أصحاب اليمين: «فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿١٧﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿١٨﴾» إلى أن قال: «وَفَكَاهَةٌ كَثِيرٌ ﴿٢١﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴿٢٢﴾». فأين السدر المخصوص والطلح المنضود من قوله: «وَفَكَاهَةٌ مَمَّا يَتَحَبَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِمٌ طَيْرٌ مَّمَّا يَشَهُونَ ﴿٢١﴾»؟

٤- وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال: «وَحُورٌ عَيْنٌ . . . ﴿١٢﴾ كَامْتَلٌ الْلَّوْلُوُ الْمَكْنُونُ ﴿١٣﴾» ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين بل قال: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٢٤﴾ بَعَلَنَّهُنَّ أَبَكَارًا ﴿٢٥﴾ عَرِبًا أَتَرَابًا ﴿٢٦﴾ لَا أَصْحَبٌ الْيَمِينَ ﴿٢٧﴾». وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن: «كَانُوهُنَّ أَلْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ».

ويقال هنا ما قيل ثم.

ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة.

لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، ويضعها وضعاً فنياً عجيباً. وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام. وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن. «فَإِنَّمَا يُحَدِّثُ مَثَلَةً إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ». (٢٦)

فواصل الآي

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض مثل: (تعلمون، تؤمنون، تتقون) ومثل (خبيراً، كبيراً، عليماً، حكيناً).

ومن الملاحظ أن القرآن يعني بهذا الانسجام عنائية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم الكلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: ﴿قَالُوا إِمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٧]﴾ [الشعراء] بتقديم موسى على هرون، فيجعل الكلمة (هرون) نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة. ومرة يقول: ﴿قَالُوا إِمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى [٦٧]﴾ [طه] بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه.

وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحدود لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [٦٩]﴾ [آل عمران] أو ينفعونكم أو يضرُّونَ [٦٩]﴾ [الشعراء] إذ الأصل: (أو يضرُّونكم) مقابل: (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضرُّونكم)، إذ لو ابقاءه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءِنَا فَاضْلُلُنَا السَّبِيلَ [١٧]﴾ [الأحزاب] فقد مد فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآي المتقدمة والمتاخرة.

وقد نرى أنه يبدل الكلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُذُّوا يَعْمَلَ اللَّهُ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [٢٣]﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿وَإِن تَعُذُّوا فَقْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [٢٤]﴾ [النحل] فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتيم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: (كفار) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها (الأنهار، النهار، كفار، الأصنام).

وواصلة آية النحل: (رحيم) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها: (تشكرُون، تهتَدون، تذَكرون).

وقد ترى أنه يضع الكلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبهاً بالموضع الأول تجنبًا للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى: «وَمَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَى إِثْمًا عَظِيمًا» [النساء] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: «وَمَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» [النساء]. فأنت قد ترى أنه غير بين الفاصلتين تجنبًا للتكرار. ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.

غير أن الذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعيًّا في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختتم آية الشعراء بكلمة (هرون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يجرِ موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.

وقد تظن أن في كلامنا هذا غلوًّا ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقدير نكته للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولا من نفس بريئة من العصبية والهوى. ولا نريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها وإنما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقره. غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الألوسي رحمه الله راداً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ إِلَّا كَانَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [البقرة]: «ولعله قدم (الرؤوف) وهو أبلغ محافظة على الفواصل»^(۱). «وقول القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله: لعل تقديم (الرؤوف) مع أنه أبلغ ممحافظة على الفواصل ليس بشيء، لأن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حال، ولأن [الرأفة]^(۲) حيث وردت في القرآن قدمت ولو في غير

(۱) أنوار التنزيل ۳۰.

(۲) في الأصل: (ولأن الرحمة) والصواب ما أثبتناه كما هو ظاهر.

الفواصل، كما في قوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً أَبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد] في وسط الآية^(١).

صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقاً في اكتناء أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعلياتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأولوه وعللوه تعليلاً آخر. ولكن هناك قسم آخر تمكّن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولا غموض.

وأحسب أنه من الأولى أن نضرب أمثلة نوضح بها هذا الادعاء وأن لا نطيل في الكلام وتقرير الأحكام.

فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً وهو قوله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [٧٦] أو يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [الشعراء].

فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر. وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضاً فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم. وأطلق الضر لسبعين:

الأول : أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

والآخر : أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضرّ موضع إطلاق، فشخص النفع وأطلق الضر. والمعنى أن هذه الآلة لا تتمكن من الإضرار بعذوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تبعدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال: (أو يضروونكم) لما أفاد هذين المعنين. فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟

(١) روح المعاني ٧/٢

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [٧٦] [طه].

ولم يقل : (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعل مخرج العموم، أي : إن فرعون لم يتصف بصفة الهدية البتة. ولو قال : (وما هداهم) لكان عدم الهدية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم لكنه قال : (وما هدى) أي : ما هدى أحداً^(١).

فهو قد أضل قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا غيرهم.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [٢١] [إبراهيم].

وقوله :

﴿وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الرَّحْمَنِ﴾ [١٨] [النحل].

فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله : (كفار) مراعاة لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ(رحيم)، مراعاة لفواصل الآي فيها.

ولاشك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته.

فقد قال في سورة إبراهيم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّارًا وَأَحْلَوْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَارِ﴾ [٣٩] جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَسْكُنُ الْقَرَارَ [٤٠] وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُصْلَوْ عَنْ سَيِّلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ [٤١] قُلْ لِعَبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقْيمُوا أَصْلَوةً وَيُنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَآبِيعٍ فِيهِ وَلَا خَلَلٌ﴾ [٤٢] [إبراهيم].

فاقتضى ذلك ختم الآية بصفة الإنسان.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو)، حذف المفعول به.

وقال في سورة النحل:

﴿وَالْأَنْفَمْ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
جِينٌ تُرْبَحُونَ وَجِينٌ شَرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِنَاسِيهِ إِلَّا يُشِيقُ
الْأَنْفُسُ . . . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
شَيْمُونٌ ⑦ يُئْتِيْكُمْ بِهِ الْأَرْزَاقُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَغْنَبُ وَمِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ ⑧ وَسَخَّرَ لَكُمْ أَيْلَالَ وَالْهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرُ . . .
وَمَا ذَرَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْلِفًا أَلْوَانَهُ ⑨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑩ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَسَتَغْرُجُوا مِنْهُ حَلَيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ ⑪ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ⑫ وَالْأَقْنَى فِي الْأَرْضِ
رَوْسٌ أَنَّ تَبِدِّيْكُمْ وَأَنْهَرًا وَسُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهَدُّونَ ⑬﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان فختمه بصفته.
 جاء في (معترك الأقران) أنه « إنما حصر سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه
 وسورة النحل بوصف المنعم، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان
 وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته »^(۱).

وقال في (البرهان): « ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم
 وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟

والجواب: أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبِلَ
 عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أو صافه.

وما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق
 صفاتاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه »^(۲).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا إِنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ⑯﴾ [طه].

(۱) معرك الأقران ۴/۱ وانظر ملاك التأويل ۵۸۰-۵۸۱.

(۲) البرهان ۱/۸۶-۸۷.

وقوله:

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةُ سَجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا إِمَّا بَرِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٢﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء].

قدم في (طه) ذكر هرون وفي (الشعراء) ذكر موسى. وقد تظن أن ذلك ما يقتضيه أواخر الآي. ونقول: صحيح أن أواخر الآي في سورة (طه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية، وفي (الشعراء) تقتضي أن تكون كلمة (هرون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحوظ آخر يقتضي تقديم ما قدم وتأخير ما آخر، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك. وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين:

١ - إن ذكر (هرون) تكرر في سورة (طه) كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً. من ذلك قوله في سورة طه:

أ - ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ يَهُهُ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه].

ب - ﴿أَذْهَبْ أَنَّتَ وَأَحْوُكَ بِعَايَتِي وَلَا نَبِيَا فِي ذَكْرِي ﴿٣٣﴾﴾ [طه]. فقد أمر كلاً من موسى وهرون بالذهب بأياته ولم يخص موسى بذلك.

ج - وكرر ذلك فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٣٤﴾ فَقُولَا لَهُ فَوْلَا لِتَنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

د - وكان الجواب صادراً منهما معاً : ﴿فَالَا رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

ه - وقد طمأنهما ربهم معاً فقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٣٧﴾﴾ [طه].

و - وأمرهما معاً فقال: ﴿فَأَنِي أَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكُمْ فَأَنْزَلْ مَعَنَا يَنِي إِسْرَئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ حِنْتَنَاكَ بِعَايَتِي مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [طه].

ز - وكان خطاب فرعون لهما معاً : ﴿قَالَ فَمَنْ زَبَّجَكُمَا يَمْوَسَى ﴿٣٩﴾﴾ [طه]. ولم يقل له: فمن ربكم؟

ح - ونسبهما كليهما إلى السحر فقال: ﴿إِنَّ هَلَانِ لَسَحْرَنِ يُرِيدَانِ أَنْ يَخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ يَسْعِرُهُمَا وَيَذْهَبُ إِلَيْهِمْ يَقْتَلُكُمْ إِنَّهُ مُنْتَلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [طه].

ط - وقد ورد تخليف موسى لهرون في قومه فنصح لهم في غيبته. قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُونَ إِنَّا فُتَّنَشُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَأَتَيْنَاهُنَّ وَلَطِيعُوا
أَمْرِي﴾ [طه].

ي - ولقد عاتب موسى أخاه هرون بشدة: ﴿قَالَ يَهُرُونُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ صَلُوًا
أَلَا تَثْبِتُنَّهُ﴾ [طه].

في حين لم يرد هرون سورة الشعراة إلا قليلاً وهو قوله:

أ - ﴿فَأَرْسَلَ إِلَيْهِرُونَ﴾ [الشعراة].

ب - ﴿فَأَدَهَبَاهَا عَانِيَتَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراة].

وفيما كان الخطاب في آيات طه موجهاً إلى موسى وهرون معاً، كان موجهاً إلى موسى وحده في الشعراة: ﴿قَالَ لَيْنَ أَنْخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراة].

وقد نسب موسى وحده إلى السحر ولم ينسب معه هرون كما جاء في طه فقال: ﴿إِنَّهَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٦] **يُرِيدُ أَنْ يُغْرِيَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ** [الشعراة].

ولم يرد ذكر لهرون بعد هذا.

فأنت ترى أن القصة في طه مبنية على الثنائية وأنها في الشعراة مبنية على الإفراد.

٢ - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات طه خوف موسى **﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِفَةً مُؤْسَى﴾** [١٧] [طه] ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراة.

فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراة، ولم تذكر حالة الضعف البشري الذي اعتبراه. فاقتضى كل ذلك المعايرة في التعبير بين القصتين، وأظنك في غنى عن أن أقول لك: لو قيل لك: قدم وأخر بين الإسمين حسبما يتضمنه السياق لقدّمت هرون على موسى في طه، وموسى على هرون في الشعراة.

وعلاوة على ذلك هناك طريقة أخرى، وهي أن سورة (طه) تبدأ بالحروفين: الطاء والهاء. وسورة الشعراة تبدأ بـ (طسم). فكلتا سورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء، وهو أول حروف هرون وليس فيها حرف من حروف موسى. والحرف الأخير من (طسم) هو الميم وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هرون. أفلًا يزيد حسناً على حسن تقديم هرون على موسى في طه وتقديم موسى على هرون في الشعراة؟

وقد ترى ذلك إغراقاً في التعليل، وربما كان ذاك، إلا أن العجيب أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيه قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر القصص، مثل: (طه، وتس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراة) وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك. فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف (ط) قصة موسى مفصلة في أوائل السورة. والملاحظة الأخرى أن ما يبدأ بـ (طسم) تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ (تس) فكأن زيادة الميم إشعار بزيادة القصة. فانظر يا رعاك الله أي سر من أسرار التعبير هذا؟

ومن بديع الفاصلة قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطَلُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَفَرُونَ﴾ [غافر].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: (المبطلون) وختم الآية الثانية بقوله: (الكافرون) وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه. فالآية الأولى وردت في سياق الحق، ونقىض الحق الباطل. والثانية في سياق الإيمان، ونقىض الإيمان الكفر. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطَلُونَ﴾ [غافر]. وقال في الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا فَالْوَاءَ امْنَأَ بِاللَّهِ وَهَدَمْ وَكَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَهُ مُشْرِكِينَ﴾ فلئن يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد دخلت في عبادته، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَفَرُونَ [غافر].

جاء في (البرهان) للكرماني في اختيار هاتين الفاصلتين أن: «الأول متصل بقوله: ﴿فُضِّلَ الْحَقُّ﴾ نقىض الحق الباطل. والثاني متصل بإيمان غير مجد، ونقىض الإيمان الكفر»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِهِمْ كُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(٢) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُقُّ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَتُخْرِجُ بِهِ رَزْعًا ثَائِلًّا مِنْهُ أَغْمَمُهُمْ وَأَقْسَمُهُمْ أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾^(٣) [السجدة].

«فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِهِمْ﴾ ولم يقل: ﴿أَرَلَمْ يَرَوْا﴾. وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع أو إخبار القرون وهو مما يسمع.

وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقال بعدها: ﴿أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي^(٤).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَيْلَلَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ أَلَّهُ يَأْتِيْكُمْ بِضِيَّاهُ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥) ﴿قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ أَلَّهُ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ شَكُونَتْ فِيهِ أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾^(٦) [القصص].

فانظر كيف ختم آية الليل بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾ لأنه صالح للإبصار؟

في (البرهان) في هاتين الآيتين : فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لمناسبة ما بين السمع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار.

(١) البرهان ٤٢١.

(٢) البرهان ١/٨٠ وانظر الإتقان ٢/١٠١.

وكذلك قال في الآية التي تليها: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَيْنَكُمُ الْأَنَهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِنَّ اللَّهَ غَيْرُ اللَّهِ بِأَيْمَانِكُمْ بِلِيلٍ تَشْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ» [القصص]... فاقتضت البلاغة أن يقول: «أَفَلَا تُبَصِّرُونَ» إذ الظرف مضيء صالح للإبصار. وهذا من دقيق المناسبة المعنوية^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَرَزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّمَا سَمِيعٌ عَلِيِّمٌ ﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً:

﴿ وَإِمَّا يَرَزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت].

في حين قال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجْنِدُونَ فِي أَيَّتَهُ اللَّهُ يُفْتَنُ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرُّ مَا هُمْ بِإِلَيْهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر].

فانظر كيف جاء بالاستعاذه من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله: «إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» وجاء فيمن يرى ويصر من شياطين الإنس بقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» فانظر دقة هذا التعبير وجماله. جاء في (التفسير القيم): «وتأمل حكمة القرآن كيف جاء بالاستعاذه من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: «السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» في الأعراف وحم السجدة. وجاءت الاستعاذه من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالإبصار بلفظ: «السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» في سورة حم المؤمن... لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة بالبصر. وأما نزع الشيطان فوساوس وخرارات يلقاها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذه بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذه بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويُدْرِكُ بالرؤيه والله أعلم»^(٢).

(١) البرهان ٨٢ / ١ وانظر ملاك التأويل ٧٦٢ / ٢.

(٢) التفسير القيم ٥٨٦.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَذِكَرْ يَعْنِيْكَ رَبِّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتَمِّمُ فَقْدَتَكَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ إِلَٰٰ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّهُ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيْمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف] .

وقوله:

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَمِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهَىٰ فَهُمْ فِيهِ شَرٌّ كَاءَ سَيَخْرِيْهِمْ وَصَفْهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيْمٌ ﴾ [الأنعام] .

فقدم العلم على الحكم في سورة (يوسف)، وقدم الحكم على العلم في (الأنعام)، وذلك لأنه في سورة يوسف تقدم قوله: « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » وهذا موطن علم قدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع قدم الحكم لذلك. جاء في (البرهان): « وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام. وأما في أول سورة يوسف فقدم العليم على الحكيم لقوله في آخرها: وعلمتني من تأويل الأحاديث »^(١).

ومن الطريف أن نذكر هنا أنه حيث اجتمع الأسمان: (العليم والحكيم) في سورة الأنعام قدم الحكيم على العليم^(٢) وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدم العليم على الحكيم^(٣) وذلك لأن مواطن يوسف كلها مواطن علم أولاً قدم (العليم) ومواطن الأنعام مواطن حكمة أو حكم قدم (الحكيم)، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت مقصودة قصداً.

فانظر أي تنسيق وأي دقة في هذا الكلام العزيز؟

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهِزَ بِرُسْلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخْذَتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عَقَابِ ﴾ [الرعد] .

(١) البرهان ٢٦٢/٣.

(٢) انظر الآيات ٨٣، ١٢٨، ١٣٩.

(٣) انظر الآيات ٦، ٨٣، ١٠٠.

وقوله:

﴿ وَلَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾^(١) **وَقَوْمٌ إِزْرَاهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٌ**
وَأَصْحَابُ مَدْيَنٍ **وَكُذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخْذَتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ** ^(٢) ﴾
[الحج].

قال في آية الرعد: «**فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ**» وقال في آية الحج: «**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ**» وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين. والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد. إذ رب نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل وعيد بإزاء جرمي الذي يناسبه.

جاء في (ملاك التأويل): «للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ**» والثانية بقوله: **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ**» مع تساوي الآيتين في مقصود الوعيد بمكذبي الرسل عليهم السلام.

والجواب والله أعلم، أن العقاب أشد موقعاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل. أما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالبأخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقيب جريمه. وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: «**وَلَقَدْ أَسْتَهِنْتُ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ**» والاستهزاء أمرٌ مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتکبة أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب.

أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء قال تعالى: «**وَلَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ . . .**» فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب . . . فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها، ولم يكن عكس الوارد ليناسب ^(١).

(١) ملاك التأويل ٥٦٨-٥٦٩/٢

ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة:

﴿أَخْرَقْنَا لِتُغْرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف].

وقوله له عندما قتل الغلام:

﴿أَفْتَلْتَ نَفَسًا كَيْدَهُ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِنْكَرًا﴾ [الكهف].

فوصف خرق السفينة بأنه شيء إمر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نكر. وذلك أن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لمالكها. وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر. والإمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل. وعن قتادة: النكر أشد من الإمر. فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر^(۱).

ومنه قوله تعالى:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمَةُ﴾ [التوبه].

وقوله:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه].

فقد قال في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الثانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

« ووجه ذلك - والله أعلم - أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلةً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضييق والإخراج... فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن... قال تعالى: ﴿قَتَلُوكُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ يَابْدِيْكُمْ وَيَخْزِنُهُمْ وَيَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَكْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبه].

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾... أي: من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: بما في

(۱) انظر ملاك التأويل ۶۵۲/۲.

القتال أو طي ما جرى من ذلك كله بقدرته السابق أولاً... وما في ذلك من الحكمة... .

وأما الآية الثانية فسيبها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرةهم فلم تغرن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أحد، إذ لم يربح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل... فختمت هذه الآية بقوله: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله، فجاء كلٌّ من هذا الباب على ما يناسب ويلاتم ولا يلائم خلافه «^(١)».

ومن ذلك قوله تعالى:

«لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿١١﴾» [هود].

وقوله:

«لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٢﴾» [النحل].

وسر هذا الاختلاف أن آية هود فيما صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم وضوعف لهم العذاب، وأية النحل فيما صدّ هو ولم يصدّ غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين فجيء لهم باسم التفضيل. قال تعالى في (هود): «أَلَّذِينَ يَصْدُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْعَذُونَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمُ الْكُفَّارُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَذْلِكَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾».

وقال في (النحل): «ذَلِكَ بِإِنَّهُمْ أَسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٨﴾ لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٩﴾» جاء

(١) ملاك التأويل ٤٥٦-٤٥٧.

في (البرهان) للكرمانی أن قوله في هود: «**هُمُ الْأَخْسَرُونَ**» «لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فَضَلُّوا وأضلوا فهم الأخسرون يُضاعفُ لهم العذاب، وفي النحل صدوا فهم الخاسرون»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

«**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكِبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِينَ**» [البقرة: ١٥٣].

وقوله:

«**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**» [البقرة: ١٥٤].

فقد أعاد الضمير في الآية الأولى على الصلاة وختم الآية بالكلام عليها. وختم الكلام في الآية الثانية على الصبر، وذلك أن الكلام في الآية الأولى على الصلاة فقد تقدم ذكر الصلاة والمطالبة بها. قال تعالى: «**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكُورَةَ وَأَزْكُوْرُوا مَعَ الرَّزِكِينَ**» [البقرة: ١٥٥] بخلاف قوله تعالى: «**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**» [البقرة: ١٥٦] فقد ختم الآية بالكلام على الصبر وذلك لأن الكلام عليه والسياق يقتضيه، فقد قال تعالى بعد هذه الآية: «**وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٍ بَلْ أَحْيَاءً وَلَكِنَ لَا شَعُورُكُمْ وَلَنَبْتُلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْحَوْقَانِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَسِرِ الصَّابِرِينَ**» [البقرة: ١٥٧] **الَّذِينَ إِذَا أَصَبَّتْهُمْ مُّصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِحُونَ**» [البقرة: ١٥٨].

فلما كان السياق في الموطن الأول عن الصلاة، أعاد الضمير عليها وختم الآية بها. ولما كان السياق في الموطن الثاني عن الصبر، ختم الآية بالكلام على الصابرين^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

«**إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَن يُشَرِّكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشَرِّكَ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا**» [النساء: ١٤٩].

(١) البرهان ٢٣٢ وانظر درة التنزيل ٢١٩-٢٢٠.

(٢) معاني النحو ١/٦٨-٦٩.

وقوله مرة أخرى في السورة نفسها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] ١١٣.

فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿فَقَدْ أَفْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وختم الآية الثانية بقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى في سياق الكلام على افتراءات اليهود وكذبهم، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا مُحَرِّفُونَ الْكَلْمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء] وقال بعدها: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَبِ وَكَفَنْ بِهِ إِثْمًا ثَمِينًا﴾ [النساء] فناسب ذلك قوله: ﴿فَقَدْ أَفْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وأما الآية الأخرى فهي في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفترروا على الله لأنهم ليسوا أصحاب كتاب أصلًا وإنما هم ضالون، فناسب ذلك قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ثم انظر كيف قال بعدها على لسان الشيطان: ﴿وَلَا يُضْلِلُهُمْ وَلَا مُنِتَّهُمْ﴾ [النساء].

فالكلام في سياق الضلال والإضلal فناسب ذلك هذه الخاتمة. جاء في كتاب (من بلاغة القرآن) في سر هذا الاختلاف بين الآيتين: «ونستطيع أن نلمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختتم الآية بالافتراء الذي اعتقد اليهود وهم أهل الكتاب.

أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفتررون ولكنهم ضالون ضاللاً بعيداً»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَصَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكْ خَيْرًا أَلْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُنَقَّبِينَ﴾ فَمَنْ بَدَأَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِنْتَهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَعِيَ عَلَيْهِمْ ﴿١٤﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُؤْسِنِ جَنَفَ أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْتَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة] ١٤١.

(١) من بلاغة القرآن. ٨٥

ختم الآية الأولى بالسمع والعلم لما قال قبل: «فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ» وختم الآية الثانية بالمغفرة والرحمة لما قال قبلها: «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» وهذا نظير قوله تعالى:

«إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْرِ وَمَا أَهْلَبَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادِرًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» [البقرة: ١٧٧].

فقد ختم الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» لما قال قبلها «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». جاء في (البرهان) للكرمانى: «قوله في آية الوصية: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ عَلِيهِ»، خص السمع والعلم بالذكر لما في الآية من قوله: «بَعْدَ مَا سَمِعَهُ» ليكون مطابقاً. وقال في الآية الأخرى بعدها: «إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» لقوله قبله: «فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» فهو مطابق معنى»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

«ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ يُظْلِمُ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ» [الأنعام: ٣٢].

وقوله:

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرَىٰ يُظْلِمُ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» [هود: ٦٠].

فقد ختم آية الأنعام بقوله: «وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ» وختم آية هود بقوله: «وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإندار والتبلیغ. قال تعالى:

«يَمْعَشُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَنُ الَّذِي أَيْتُكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْقِقُ وَسُذْرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَيْرَهُمْ لِجَوَاهِرِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ» [ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ يُظْلِمُ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ] [الأنعام: ٣٢].

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإندار والتبلیغ وتبیان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم ينذرروا ولم يكلفوها، فإن من لم ينذر فهو غافل. قال تعالى:

(١) البرهان ١٠٤.

﴿لَشَنِدِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ إِبَّا وَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾[يسٌ] وما كان الله ليهلك مثل هؤلاء الأقوام، ولذا ختمها بقوله ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بِقِيَةٍ يَنْهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مَمَنْ أَجْنَبَنَا مِنْهُمْ وَأَتَبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُحْرِمِينَ ﴾[وما كان ربكم ليهلك أفراداً وأهلهما مصلحون] [هود]﴾.

فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: لم قال في الأولى: ﴿غَافِلُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿مُصْلِحُونَ﴾؟

والجواب: إن ذلك إشارة إلى ما تقدم من العقاب في قوله: ﴿فَالَّذِي مَشَّوْنَكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ وبعده: ﴿يَمْعَشَرَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْصُدُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَتَقَرَّبُونَ كُمْ لِفَاهَ يَوْمَكُمْ هَذَا﴾[الأنعام] يعني: العقاب في يوم القيمة، لأنه لم يكن ربكم ليفعله من قبل أن يحتاج عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم، ولا يتزكونهم في غفلة من أمورهم. فاقتضى هذا المكان أن يقال لهم: لم يؤخذوا وهم غافلون بل كانوا منبهين بالأعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فللبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بِقِيَةٍ يَنْهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مَمَنْ أَجْنَبَنَا مِنْهُمْ وَأَتَبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُحْرِمِينَ ﴾[هود]﴾. فدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى نهادهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض. وكان نقىض الفساد في الأرض الصلاح فقال: لم يكن الله ليهلكم وهم مصلحون. فاقتضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين^(۱).

(۱) درة التنزيل . ۱۳۲-۱۳۱

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء].

ففي آية الأعراف وصف العذاب بالإيلام، وفي هود بالقرب، وفي الشعراء وصف اليوم بالعظمة، وذلك أنه في الأعراف ذكر قوم صالح وكثرة تحديهم واستهزائهم وعтоهم ولم يذكر مثل ذلك في السور الأخرى. قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا بِالَّذِي أَمْنَثْمُ بِهِ كَفُرُونَ﴾ [الأنفال] ﴿فَعَقَرُوا أَلْتَافَةً وَعَكَوْا عَنْ أَنْتَرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَنْصُلِحُ أَئْتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

فقد ذكر عنهم أنهم:

١- أعلنا كفرهم (إنا بالذي آمنتكم به كافرون).

٢- وأنهم عتوا عن أمر ربهم.

٣- وأنهم تحدوه وقالوا: إلتنا بما تعدننا إن كنت من المرسلين.

وليس الأمر كذلك في المكانين الآخرين. فقد قال في هود: ﴿قَالُوا يَنْصُلِحُ فَذَكَرَتْ فِينَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْهَمَنَا أَنْ نَبْدُ مَا يَعْبُدُ مَابَأْفَنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود].

فليس فيه مثل ذلك التحدي ولم يذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم حتى أنهم لم يصرحوا بکفرهم، بل ذكروا أنهم في شك ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾. فأنت ترى أن السياق في كل من الموطنين مختلف عن الآخر.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء فإنه لم يذكر تحديهم ولا عتوهم واستكبارهم، فاستحقوا أن يذكر لهم العذاب الأليم في سورة الأعراف.

وأما في سورة هود فقد وصف العذاب بالقرب لما ذكر قبله: «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» [هود].

وأما في الشعراء فقد وصف اليوم لما ذكر قبلها: «لَمَّا شَرِبَ وَلَكُنْ شَرِبَ يَوْمٌ مَعْلُومٌ» [الشعراء] جاء في (البرهان) للكرماني في سر اختلاف هذه الآيات أنه في سورة الأعراف «بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال: عذاب أليم.

وفي هود لما اتصل بقوله: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) وصفه بالقرب فقال: «عَذَابٌ قَرِيبٌ».

وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله: «لَمَّا شَرِبَ وَلَكُنْ شَرِبَ يَوْمٌ مَعْلُومٌ» والتقدير: لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم فقال: عذاب يوم عظيم»^(۱).

لقد تبين مما مر أن القرآن الكريم لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعيًّا فيها المعنى والسياق والجرس ومراعيًّا فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعيًّا فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعيًّا فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختيار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختيار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه. وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجمله من كلام وما أعظمه من تعبير.

(۱) البرهان ۱۸۳ وانظر درة التنزيل ۱۵۶.

السمة التعبيرية للسياق

قد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة.

وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة. وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد. وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَبِدَاكُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية].

في حين قال:

﴿وَبِدَاكُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر].

وقال:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر].

فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية ولفظ (الكسب) في الزمر. قيل: وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب.

فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَتُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [النحل].

وجاء في الجاثية قوله ﴿الْيَوْمَ يُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية] وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْعِي مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية]. وقوله: ﴿فَآمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [آل عمران].

في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ذُوقُوا مَا كُثِنَ تَكْسِبُونَ ﴾[الزمر] قوله ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيَّكُثُرُ مَا كَسَبُوا﴾^(١).
فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها^(٢).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات^(٣) في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات^(٤). فوضع كل لفظة في الموطن الذي يتضمنها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهَا ثُوُبَىٰ يَتْمُوسَى﴾[طه].

وقوله:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نَوْرٌ أَنْ بُوْرِكَ مَنْ فِي الْأَنَارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[النمل].

فقال في (طه): (أتاها) وفي (النمل): (جاءها). قيل: وسبب ذلك أنه كثر لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياه [٤٧]، فلنأتيتك [٥٨]، ثم أتى [٦٠]، ثم أتوا [٦٤]، حيث أتى [٦٩].

ولفظ (جاء) في النمل أكثر نحو: فلما جاءتهم [١٣]، وجئتكم [٢٢]، فلما جاء سليمان [٣٦]^(٤).

ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وأن ألفاظ المعجم في النمل أكثر منها في طه، فقد وردت ألفاظ الإتيان في طه

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٧٣-٢٧٤، ٤١٦، درة التنزيل ٤٠٨-٤٠٩، ملاك التأويل ٦٠١-٦٠٢.

(٢) انظر الآيات ٤٨، ٢٤، ٥٠، ٥١ (مرتين).

(٣) انظر الآيات ١٤، ١٠، ٢٢.

(٤) البرهان للكرمانى ٣١٢-٣١٣.

خمس عشرة مرة وفي النمل ثلاث عشرة مرة. ووردت ألفاظ المجيء في طه أربع مرات وفي النمل ثمانية مرات. فاختير لفظ المجيء في النمل والإتيان في طه، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يتضمنه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله:

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فاختار في سورة البقرة لفظ (الله) وفي الأنعام لفظ (الرب). ومن أسباب هذا الاختيار والله أعلم أن لفظ (الله) تردد في البقرة أكثر مما في الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ (الله) في البقرة (٢٨٢) مائتين واثنتين وثمانين مرة، وفي الأنعام (٨٧) سبعاً وثمانين مرة. ووردت كلمة (رب) في البقرة (٤٧) سبعاً وأربعين مرة، وفي الأنعام (٥٣) ثلاثة وخمسين مرة. فناسب أن يضع كلمة (الله) في البقرة وكلمة (رب) في الأنعام.

وعلاوة على هذا يقتضي السياق وضع كل لفظة في المكان الذي وضعت فيه، فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق لأنه من الألوهية، والألوهية هي العبادة قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيمَانَ تَبَدُّونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ويدل على ذلك أنه لما قال في سورة النحل: ﴿وَأَشْكُرُوا نَعْمَاتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيمَانَ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٦] قال بعدها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١١].

وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة ولفظ (الرب) أصلق بهذا السياق، لأن الرب من التربية والتنشئة^(١).

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٠٣ ، درة التنزيل ٤٣-٤٢ .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس].

فأظهر الناس في آية المؤمن وأضمرهم في آية يonus، وذلك أن السياق الذي وردت فيه آية المؤمن تكرر فيه لفظ الناس، بخلاف السياق في سورة يonus إذ بُني على الإضمار. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر الناس في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وقد أضمر في موضع الإظهار في سورة يonus؟ وهل كان جائزًا وقوع هذا موقع ذاك؟ . . .

فأما قوله في سورة المؤمن: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» . . . فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ حَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [غافر].

وقال بعده: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» [غافر]. ثم جاء: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» [غافر].

فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة وليس كذلك الأمر في سورة يonus عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة. ألا ترى أنه قال تعالى مخبراً عنمن يدخل من الظالمين النار: «ثُمَّ قَبِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَلِيلِ هَلْ يُحْرَوْنَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» [يونس] فانقضى هذا الكلام واستئنف خبر عن القوم الذين يُبعث رسول الله ﷺ إليهم وقال: «وَيَسْتَعْنُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ» [يونس] فأضمر ذكره في قوله: «وَيَسْتَعْنُونَكَ أَحَقُّ».

ثم قال بعده: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [يونس] فأضمر ما أضاف إليه (أكثر). ثم انتهى إلى

قوله بعده: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكُنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ»^(١) [يونس] فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدمه «^(٢)».

وقد تكون كثرة اللفظ وغلوته مطلقة في السورة كلها لا في السياق الذي تقع فيه الآية وحده. فمن ذلك قوله تعالى:

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا»^(٣) [طه].

وقوله:

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا»^(٤) [الزخرف].

فقد ذكر (جعل) في الزخرف و (سلك) في طه، ولعل من بين أسباب هذا الاختيار أن فعل العمل ورد في الزخرف أكثر مما في طه، فقد ورد في الزخرف اثنى عشرة مرة وورد في طه ثلاث مرات^(٥). فاختار العمل في الزخرف والسلوك في طه، والله أعلم.

ونحو هذا قوله تعالى:

«وَلَئِنْ رُدِدتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَّا»^(٦) [الكهف].

وقوله:

«وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَإِنَّ لِي عِنْدَمُ لَهُ حُسْنَى»^(٧) [فصلت].

فقد قال في (الكهف): (رددت) وقال في (فصلت): (رجعت)، ولو رجعنا إلى استعمال هذين اللفظين ومشتقاتهما في كل من السورتين لوجدنا أن لفظ (الرد) ورد في الكهف ثلاث مرات^(٨) ولم يرد في فصلت إلا مرة واحدة^(٩)، وأما الرجع

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١٣.

(٢) انظر الآيات ٢٩، ٥٣، ٥٨.

(٣) انظر الآيات ٣٦، ٦٤، ٨٧.

(٤) انظر الآية ٤٧.

فلم يرِد في الكهف وقد ورد في فصلت مرتين^(١). فوضع كل فعل في مكانه الذي هو أليق به.

ومن بديع ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة].

فقد قال في آية الحج، (الله) وقال في آية السجدة، (ربك) ولو نظرنا في استعمال هاتين اللفظتين في كل من هاتين السورتين لرأينا أنه وضع كل لفظة بحسب كثرة ورودها في كل سورة. هذا علاوة على اختيار كل لفظة بحسب ما يتضمنه المقام من ناحية المعنى أيضاً. فقد وردت لفظة (الله) في سورة الحج خمساً وسبعين مرة في حين لم ترد هذه اللفظة في السجدة إلا مرة واحدة^(٢).

وقد وردت الكلمة (رب) في السجدة عشر مرات، ووردت في سورة الحج ثمانين مرات، فوضع كل لفظة في السورة التي كثر استعمالها فيها.

هذا علاوة على ما في الآيتين من أمور فنية أخرى. فإنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة (فيما كانوا فيه يختلفون) أكد الفصل بـ (هو) لأن الأصل في الفصل أن يكون عند الاختلاف. ولما لم يذكر الاختلاف في سورة الحج لم يؤكده.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبَّهُ يَسْطُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ].

وقوله:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِكَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ].

(١) انظر الآيتين ٢١، ٥٠.

(٢) انظر الآية ٤.

في حين قال:

﴿اللَّهُ يَسْعِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت].

فاختار كلمة (رب) في سورة سباء، وكلمة (الله) في العنكبوت، وذلك أن لفظ (الرب) ورد في سباء أكثر مما في العنكبوت، ولفظ (الله) ورد في العنكبوت أكثر مما في سباء. فقد ورد لفظ (الرب) في سباء أربع عشرة مرة، وورد في العنكبوت خمس مرات. وورد لفظ (الله) في العنكبوت إثنين وأربعين مرة، في حين لم يرد في سباء إلا ثمانية مرات، فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الكلمات.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَنَّمَ﴾ [النساء].

وقوله:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَنَّمَ﴾ [الزمر].

في حين قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَنَّمَ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال في الأنعام وحدها: «أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَهَنَّمَ» ولم يقل مثل ذلك في سائر سور القرآن، في حين قال: (خلقكم) في المواطن الأخرى، ذلك أن الفعل (أنشأ) ورد في الأنعام في أربعة مواطن^(۱) ولم يرد في السور الثلاث الأخرى أصلاً، فاستعمله للتناسب اللغوي في هذه السورة دون غيرها.

ومن لطيف هذا النوع وبديعه قوله تعالى:

﴿فَكِيدُونِي جَيِّعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود].

(۱) انظر الآيات ۶ ، ۹۸ ، ۱۳۳ ، ۱۴۱ .

وقوله:

﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد قدم الفاء وأخر (ثم) في آية هود، وقدم (ثم) وأخر الفاء في آية الأعراف. ومن الطريف أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في سورة الأعراف، قدمت (ثم) على الفاء وفي هود بالعكس. وهذا أغرب شيء وأعجبه. قال تعالى في الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ صَوْرَاتِكُمْ ثُمَّ قَاتَلَنَا إِلَيْكُمْ أَسْجَدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الآيات ١١-١٣].

وقال:

﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيْئَةِ الْحَسَنَةِ . . . فَأَخْذَتْهُمْ بَغْنَةً . . .﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِإِيمَانِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهَامَانَ فَظَلَمُوا إِلَيْهَا﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقد يكون مفتاح السورة دالاً على تردد قسم من الألفاظ في السورة، وذلك يبدو جلياً فيما يبدأ بالأحرف المقطعة نحو: ألم وحم وطس ونحوها، فكثيراً ما تردد الألفاظ التي تلي هذه الأحرف على نمط معين في السورة أو يكثر استعمالها فيها. فمن ذلك تردد لفظ (الكتاب) و (القرآن) وغيرهما من الألفاظ. فنرى أن لفظي الكتاب والقرآن مثلاً يتزدادان في السورة على نحو معين، وذلك أن كل سورة يلي الأحرف المقطعة فيها ذكر (الكتاب) وحده و لم يذكر معه (القرآن) تتردد فيها هذه اللفظة أكثر من لفظ (القرآن) وربما لم ترد فيها لفظة (القرآن). وكل سورة يلي فيها الأحرف المقطعة ذكر (القرآن) وحده تتردد فيها لفظة (القرآن) أكثر من لفظ (الكتاب) وربما لم ترد فيها لفظة (الكتاب) ولا مشتقات الكتابة. وكل سورة اجتمع فيها ذكرهما تردد ذكرهما بصورة متقاربة، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بأكثر من لفظ واحد.

وإليك إيضاح ذلك:

ففي سورة البقرة مثلاً قال تعالى:

﴿الْمَ ١ ذَلِكَ الْكِتَبُ لَا رَبُّ لَهُ ۚ هُدَىٰ لِلنَّاسِينَ ۲﴾.

فقد ذكر الكتاب وحده بعد (الم) فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتاب ومشتقات الكتابة في هذه السورة سبعاً وأربعين مرة، في حين لم يرد لفظ القرآن أو أي مشتق من مشتقات القراءة إلا مرة واحدة، وهو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۱۸۹﴾ [البقرة].

وفي سورة آل عمران قال تعالى:

﴿الْمَ ١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُومُ ۲ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْعَقْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۳﴾.

فقد ذكر (الكتاب) وحده، فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتابة ومشتقاتها في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يرد فيها لفظ القرآن.

وهذا النهج لم يختلف في أية سورة من السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة. يظهر ذلك في الأعراف ويونس وهود والرعد وإبراهيم والشعراء والقصص ولقمان والسعيدة وغيرها.

وقد يلي الأحرف المقطعة ذكر القرآن وحده، فيتردد هذا اللفظ أكثر من الكتاب، بل ربما لم يرد فيها لفظ الكتاب ولا أي لفظ من مشتقات الكتابة، ذلك نحو قوله تعالى:

﴿طَهٌ ١ مَا أَنَّزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَقَ ۲﴾ [طه] فقد ورد ذكر القرآن ولم يرد لفظ الكتاب بعد هذين الحرفين، فنلاحظ أنه تردد لفظ القرآن في هذه السورة ثلاث مرات وورد لفظ الكتاب فيها مرة واحدة.

ونحوها قوله تعالى: ﴿قٌ ١ وَالْقُرْآنَ الْمَعِيدٌ ۲﴾ [ق] فقد ورد فيها ذكر القرآن مرتين وورد فيها لفظ الكتاب مرة واحدة. ولم يحصل مرة أن زاد لفظ

القرآن على لفظ لكتابة أو العكس في هذا النوع إلا سورة (صَ) فإن ذكر القرآن والكتاب تساويا فيها فقد ورد كل منهما مرة واحدة.

وقد يجتمع لفظا الكتاب والقرآن معاً فيترددان بمقدار متقارب وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿الرَّبِّ إِلَّا كَيْفَ يَنْهَا أَيُّهُمْ يُؤْمِنُ﴾ فقد اجتمعا في الافتتاح، وقد ذكر الكتاب في السورة مرتين والقرآن ثلاث مرات.

وقوله في سورة النمل: ﴿طَسٌّ إِلَّا كَيْفَ يَنْهَا أَيُّهُمْ يُؤْمِنُ﴾ فقد ذكر القرآن في السورة أربع مرات والكتاب خمس مرات.

وهذا من عجائب التعبير ودقائقه.

ولا يقتصر الأمر في مفتاح سور هذه على ذكر الكتاب والقرآن وتزددهما على نحو معين، بل هو أوسع من ذلك وأعجب، فقد تردد الألفاظ التي ترد في الافتتاح كثيراً في أثناء السورة، وقد تبني عليها السورة كلها أحياناً.

وإليك مثلاً يوضح ذلك:

خذ مثلاً مفتاح سورة البقرة وهو قوله تعالى:
﴿الَّهُ ذَلِكَ الْكِتَبُ لَرَبِّ فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومفتاح سورة لقمان وهو قوله:

﴿الَّهُ تَعَالَىٰ إِنَّكَ لِكَيْفَيْرٌ هُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

1- فقد أشار في آية البقرة إلى الكتاب ثم نفى عنه الريب.
وأشار في لقمان إلى آيات الكتاب وليس إلى الكتاب.

وانظر بعد ذلك كيف قال في البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَلَّنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأُنَوِّرُ إِلَيْكُمْ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾.

فأراد أن يجتث الريب من الكتاب إن كان موجوداً.

وكيف قال في لقمان: ﴿وَلَذَا تُنَلِّ عَلَيْهِ إِيمَنُوا لَكَ مُسْتَكِبِرًا كَانَ لَنَرَى سَمْعَهَا﴾
فذكر آيات الكتاب وليس الكتاب وانظر إلى ارتباط كل آية بالمفتاح.

وقد تقول: ألم يذكر الكتاب في هذه السورة والآيات في سورة البقرة؟ فنقول: بل ذكر الكتاب والآيات في كلتا السورتين، ولكن ذكرت الآيات في لقمان أكثر من الكتاب، وذكر الكتاب في البقرة أكثر من الآيات. فإن لفظ (الكتاب) لم يرد في لقمان إلا مرتين، وورد لفظ الآيات خمس مرات. وأن لفظ (الكتاب) ومشتقاته ورداً في البقرة سبعاً وأربعين مرة، وأن الآية ومشتقاتها وردت فيها إحدى وعشرين مرة.

٢- قال في لقمان: ﴿هُدَىٰ وَرَحْمَةٌ﴾ فزاد الرحمة على الهدى بخلاف البقرة، وانظر بعد ذلك مظاهر الرحمة التي عددها ربنا في السورة من مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنَّ تَمِيدَ يَكُمْ﴾ [لقمان] وقوله: ﴿أَنَّ رَوَىٰ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً طَاهِرَةً وَبِاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَدِّلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان] فانظر كيف جمع الهدى والرحمة في هذه الآية؟

إلى غير ذلك من الآيات في السورة.

٣- وصف الكتاب في لقمان بـ (الحكيم)، وهذا الوصف قد يكون بمعنى اسم الفاعل أي: المحكم بكسر الكاف، وقد يكون بمعنى اسم المفعول أي: المحكم بفتح الكاف. وهو هنا بمعنى اسم المفعول أي: (المحكم) كما قال تعالى: ﴿كَتَبْ أَحْكَمْتَ إِيمَانَنِ﴾ . وتأتي هذه اللفظة وصفاً لله بمعنى المحكم، فلما كان الكتاب حكيمًا بمعنى محكم كان الله حكيمًا بمعنى محكم، فانظر أنه لما قال في وصف الكتاب: ﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾ قال في وصف الله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان، ٣١].

ثم انظر كيف ذكر الحكمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ ؤَيَّنَا لِقَمَنَ الْحِكْمَةَ أَنَّ أَشْكَرَ لِلَّهِ﴾ [لقمان].

٤- قال في البقرة: ﴿هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . فانظر كيف قال فيما بعد: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرْبِكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَتَقْوَا النَّارَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَإِنَّى فَأَتَقْوِينَ﴾ [البقرة]. وقد تكرر لفظ التقوى ومشتقاتها ستًا وثلاثين مرة في هذه السورة.

وقال في سورة لقمان: «هُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ» فانظر كيف قال فيما بعد: «وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» [لقمان] فذكر الإحسان .

٥- قال في مفتاح البقرة: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» [البقرة] وختمنها بقوله: «إِيمَانَ الرَّسُولِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَمَلَكِكِهِ وَكُلُّهُمْ وَرْسَلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» [٢٦].

فانظر كيف ذكر الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله في بدء السورة، وختمنها بذلك فقال: «إِيمَانَ الرَّسُولِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ» وذكر الإيمان بالرسل قبله فقال: «لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

وقال في أول السورة: «إِنَّ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا سَوَاءً عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَنَّ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» وختمنها بقوله: «فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» [١٧].

وقال في بدء لقمان: «أَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْمِنُونَ أَلْرَبُوكَةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْقِنُونَ» فأكيد الإيقان بالآخرة.

فأنت ترى أنه قال في البقرة: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْقِنُونَ» [البقرة] وقال في لقمان: «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْقِنُونَ» فأكيد الضمير الأول (هم) بالضمير الثاني. فلما أكد الإيمان باليوم الآخر في البدء قال في خاتمتها: «يَنَّا هُنَّا النَّاسُ أَتَقْوَارِبُكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَعْرِزُ وَاللَّهُ عَنِ الْلَّدُوْنِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ الْمَدِّ» [لقمان] فحذرهم من اليوم الآخر.

ولا نريد أن نطيل فهذا فيه كلام كثير.

وقد تطبع السورة كلها بطابع الافتتاح وليس السياق الذي تقع فيه الآية فحسب، ومن هذا النوع من السور سورة مريم. فهي تبدأ بقوله تعالى:

«كَمَّهِيَعْصِي ذَكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَاً» [مريم].

فأنت ترى أنها تبدأ بالرحمة، ولا تقتصر الرحمة على السياق الذي وقعت فيه الآية، بل إن السورة كلها تفيض بالرحمة، وألفاظ الرحمة تشيع فيها من

أولها إلى آخرها. فقد قالت مريم لرسول ربها الذي تمثل لها بشراً سوياً: «إِنَّ
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيَّاً» [مريم] فقد استعاذه بالرحمن ليرحمها ويقيها
السوء ولم تقل: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» كما فعل موسى حين قال لقومه: «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْجَنَّهِلِينَ» [البقرة] وذلك أن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسخ
وتنكيل ولا تناسب الرحمة ذاك. قال تعالى: «وَلَقَدْ عَذَّبْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدْنَا مِنْكُمْ فِي
السَّبَبَتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قَرَدَةً خَسِيعَنَّ فَجَعَلْنَاهُنَّا نَكَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً
لِلْمُتَّقِينَ» [البقرة].

هذا علاوة على أن لفظ (الرحمن) تكرر في مريم ست عشرة مرة، ولفظ
(الله) تكرر في البقرة مائتين واثنتين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في
البقرة إلا مرة واحدة وهو قوله تعالى: «وَإِنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ» [البقرة] فوضع كل كلمة في مكانها اللائق بها.

ونعود إلى جو الرحمة في سورة مريم.

فقد قال الله في عيسى: «وَلَنْ يَجْعَلَهُمْ أَيَّةً لِلثَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا» [مريم].

وقالت مريم: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا» [مريم].

وقال إبراهيم لأبيه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا» [مريم].

ثم قال له في عبارة كلها رحمة: «يَتَابُتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابًا مِنَ
الرَّحْمَنِ» [مريم]. ولم يقل: (عذاب من الله). ثم انظر كيف لما ذكر
المسّ ناسب ذلك ذكر الرحمة، بخلاف قوله تعالى: «قُلْ أَرَدْتُمْ إِنَّ
أَنَّكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَرَهُ هَلْ يَهْلُكُ إِلَّا الْقَوْمُ أَظْلَلُمُونَ» [الأنعام]. وأنت
ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين والمقامين، فلا يحسن وضع (الرحمن) في
آية الأنعام كما هو بين. وهذا نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: «أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ»
و «أَعُوذُ بِاللَّهِ».

وذكر رحمته لإسحاق ويعقوب فقال: «وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ إِسَانَ
صِنْقِيلَيَا» [مريم].

ورحمته لموسى فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ رَحْمَنَّا أَخَاهُ هَرُونَ بِيَتًا﴾ [مريم].

وقال في وصف من أنعم عليهم من خلقه: ﴿إِذَا نَلَى عَلَيْهِمْ يَأْتِي الرَّحْمَنَ خَرُوا سُجَّدًا وَبِكِيرًا﴾ [مريم].

وذكر جنته التي وعدها عباده المتقين فقال: ﴿جَهَنَّمْ عَدِنٌ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم].

ثم ذكر أنه ليحضرن العتاة حول جهنم فقال: ﴿ثُمَّ لَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَئْتُهُمْ أَشَدُ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنْدَهَا﴾ [مريم].

وهدد من كان في الضلاله وتوعده قائلاً: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَدَّهُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَّا﴾ [مريم].

وذكر الذي كفر وزعم أنه سيؤتي مالاً وولداً فقال فيه: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخْذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم].

وذكر المتقين فقال: ﴿يَوْمَ تَخْشُرُ الْمُتَقِّينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ [مريم].

وذكر من يُظْنَنُ فيهم أنهم يملكون الشفاعة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَخْذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم].

ثم ذكر من زعم أن الله اتخذ ولداً فقال: ﴿وَقَالُوا أَخْذَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا﴾ [مريم].

ورد عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ جَهَنَّمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَّ مِنْهُ وَتَسْقُي الْأَرْضَ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَخَذَ وَلَدًا إِنْ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

ثم قال في خاتمة السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ أَلَّرَحْمَنَ وَلَدًا﴾ [مريم].

وهكذا ابتدأ السورة بالرحمة وتنتهي بالرحمة، ويشيع جوها كله بالرحمة، و تستأثر باسم الرحمن، فلا تدانيه في ذلك سورة من سور.

فانظر كيف طبعت السورة بالطابع الذي ورد في الافتتاح.

ونكتفي بهذا القدر وإلا فالكلام طويل طويل.

وانظر بعد ذلك إلى سمو هذا الكلام ورفعته ودقته في اختيار الفاظه، ثم
احكم أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟.

الحشد الفني

لقد مر بنا تبيان الناحية الفنية في موضع واحد من الآية غالباً، كأن يختار لفظة على لفظة أو يقدم لفظة على أخرى، أو يزيد في مكان ويحذف من مكان آخر ونحو ذلك. وربما اقتضاناً الحديث أن نعرض لأكثر من موضع في الآية الواحدة أو السياق الواحد، مما يدل دلالة واضحة على أن كل كلمة بل كل حرف وضع وضعاً فنياً مقصوداً في غاية الدقة والجمال.

وليست هذه الآيات أو السياقات التي سنتخاطرها وحدتها موضع الحشد، بل إن القرآن كله حشد فني عظيم متكامل، غير أنه لا بد لبيان ذلك أن نختار أمثلة منه تعينا على إيضاح ما ندعيه.

ونود قبل أن نشرع في ضرب الأمثلة أن نبين أنه قد يراعى في اختيار التعبير أمور عديدة وجوانب كثيرة، فقد يراعى السياق الذي ورد فيه التعبير، والسورة التي ورد فيها السياق، والسياقات الأخرى التي يرد فيها تعبير مقارب لهذا التعبير، والسور الأخرى التي فيها مواطن تعبيرية متشابهة أو مختلفة. فهو قد يراعى في تعبير السورة الواحدة وبنائتها تعبير جميع سور القرآن الكريم وبناءها.

ولنوضح ذلك بأمثلة من سورة واحدة ولتكن سورة الأنعام، ولا نريد أن نبين الجوانب البلاغية والفنية فيما ذكر، بل نقصر الكلام على بيان قسم من العلاقات الفنية التي يراعيها القرآن في السورة نفسها أو سور أخرى.

لقد افتتحت السورة بقوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلْمَتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللّٰهَ أَنْفَقَ رِبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام] فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعدل بربه شيئاً. فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كان التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

ثم انظر إلى التناظر بين التعبيرين فإنه قدّم في التعبير الأول متعلق (يعدلون)
وهو قوله: (بربهم)، وقدّم في التعبير الآخر مفعول (أبغي) وهو قوله: «أَعْتَرَ اللَّهَ».

ثم انظر كيف قال في الختام: «وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» وقال في البدء: «خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلْمَتِ وَالنُّورَ» أليس الذي خلق السماوات والأرض وجعل
الظلمات والنور رب كل شيء؟

فانظر على هذا الكلام ورفعته.

ولا تحسين أن هذه السورة هي السورة الوحيدة التي نسب بين مفتتحها
 وخاتمتها. فإن التنااسب بين مفتتح السور وختواتها أمر معلوم ومشهور. ومن
 ذلك على سبيل المثال سورة النساء.

فقد بدأت السورة بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَقْسِيسٍ وَجَطَّعَ
وَظَاقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلَ عَنْ لَوْنِ يَهُ وَالْأَرْحَامِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رِيقَبَا ۝ وَإِنُّوا إِلَيْنَا مَوْلَاهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيْبِ ۝ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَّا
كَيْرَبَا ۝ [النساء].

وختمت بقوله تعالى:

«يَسْأَلُونَكَ قُلْ اللَّهُ يَقْتِنِي كُمْ فِي الْكَلَّةِ إِنْ أَمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا
نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۝ ۝ [النساء].

فقد بدأت بخلق الإنسان وبث ذريته في الأرض: «أَنَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
تَقْسِيسٍ وَجَطَّعَ وَظَاقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً» [النساء] وانتهت بهلاكه من دون
عقب «إِنْ أَمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» وهي صورة فنية عظيمة لبدء الحياة ونهايتها.

كما ابتدأت بإيتاء الأموال للنشء الجديد من اليتامي من أنصبتهم من
المواريث وهم يستقبلون الحياة، واختتمت بتقسيم تركات من ودع الحياة.

وهذا من أعجب التنااسب وأبدعه.

ومن ذلك سورة الأعراف فقد بدأت بقوله تعالى:

«كَتَبَ أُنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدَرِكَ حَرَجٌ ۝ ۝ [الأعراف].

وختمت بقوله:

﴿وَإِذَا فُرِيَتِ الْقُرْنَانُ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف].

وهل الكتاب المنزل إليه غير القرآن؟

فاظر كيف بدأت السورة بذكر الكتاب وختمت به أيضاً.

ومن ذلك سورة (هود) فقد ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا
الله﴾ [هود] وختمت بقوله: ﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود].

فاظر كيف ابتدأت السورة بالنهي عن عبادة غير الله وختمت بالأمر بعبادته.

ومن ذلك سورة (المؤمنون) فقد «جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾
وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة
والخاتمة^(١).

ومن ذلك سورة (يوسوس) فقد قال في أولها:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدْمَ
صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يوسوس].

وقال في خواتيمها:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا﴾ [يوسوس].

فيبدأ بالإنذار والتبيير وختم بهما أيضاً، فيبين الآية الأخيرة كيفية تنفيذ ما طلب منه في الآية الأولى. فقد قال له في الآية الأولى: (أنذر وبشر) ثم علمه في آيات الختام كيف يفعل ذاك فقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ . . .﴾ فكأنهما جزء من آية واحدة.

ومن ذلك في سورة ﴿ص﴾ فقد بدأت بقوله:

﴿صَ وَالْقُرْنَانُ ذِي الْذِكْرِ﴾ [ص].

(١) الكشاف ٣٧١/٢

وقال في خواتيمها:
 »إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ [ص].

فأقسم في بدء السورة بالقرآن ذي الذكر، وختمتها بالكلام على القرآن أيضاً
 وقال: إنه ذكر للعالمين. فيبين ما أجمله في الافتتاح.

ومن ذلك سورة (ق) فقد بدأت بقوله تعالى:

»قَوْلَقُرْئَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ [ق].

وختمت بقوله:

»فَذَكَرِي بِالْقُرْئَانِ مَنْ يَحْافُظُ وَعِيدِ ﴿٦﴾ [ق].

والتناسب هنا أظهر من أن يشار إليه.

وغير ذلك كثير. ولا نريد أن نطيل في ذلك، فإن فيما مر كفاية فيما
 أحسب. فاتضح أن التناسب بين مفتاح سور وخواتيمها ليس شيئاً عارضاً ولا
 موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذا الكتاب الكريم وأمر مقصود
 في هذا الكلام الرفيع.

ونعود إلى سورة الأنعام.

فقد قال في هذه السورة: »فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام] وقال في
 البقرة: »إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ فوضع كل لفظة منها في سياقها الذي يقتضيها
 أولاً. ثم راعى في الأنعام ما ورد في البقرة - وفي البقرة ما ورد في الأنعام من
 تردد لفظي (الرب) و (الله) كما سبق بيانه.

وقال في الأنعام: »أَنْشَأَكُمْ مِّنْ تَقْسِ وَجَدَقَ ﴿٢﴾ وقال في النساء والأعراف
 والزمر: »حَكَّكُمْ مِّنْ تَقْسِ وَجَدَقَ ﴿٣﴾ وقد راعى في هذا الاختيار السياق الذي وردت
 فيه الآية كما راعى تردد لفظ (الإنسان) في الأنعام والنساء والأعراف والزمر
 فراعى عدة سور في آن واحد.

وقال في الأنعام: »إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وقال في
 الأعراف: »إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ فزاد اللام في (سريع)،

وذلك أن سياق الأعراف يقتضي هذه الزيادة، إذ هو في مقام تعجيل العقوبات بخلاف الأنعام.

وقال في الأنعام: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَيْتُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَيْتُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ فقد زاد كلمة (الحق) في آية الأنعام وأخلاقها منها في الشعراء، وقد راعى في ذلك الجانب اللغطي لبناء السورتين علاوة على الجانب المعنوي، فقد ترددت كلمة (الحق) في الأنعام اثنين عشرة مرة، ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء، فوضع كل لفظة في المكان الذي هي أليق به.

ثم انظر كيف ذكر (سوف) في الأنعام والسين في الشعراء، فإنه علاوة على السياق الخاص الذي وردت فيه كل آية من الآيتين، والذي يقتضي كل منهما ذكر ما ورد في سورة الأنعام على تأخير العقوبات بخلاف سورة الشعراء. وهذا واضح في بناء كل من السورتين.. وانظر علاقة ذاك بما ذكرناه في (سريع العقاب) و (لسريع العقاب)، وقد سبق أن بينا ذلك بصورة مفصلة.

وقال في الأنعام: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ﴾ وقال في الإسراء: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَاهُمْ﴾ ففرق بين التعبيرين بحسب سياق كل من الآيتين وبنائهما.

فانظر كيف راعى في سورة واحدة سورة متعددة، راعى ألفاظها وسياقها وجوها وكل كلمة وردت فيها، فقد راعى البقرة والأعراف والشعراء والإسراء والنساء والزمر وغيرها، بل ربما راعى في الموطن الواحد جميع سور القرآن وجميع آياته من جميع العلائق والاحتمالات.

فانظر الآن أي تعبير هذا الذي بين الدفتين واحكم بنفسك: أيقدر على مثله البشر أو أي مخلوق من مخلوقات الله؟

وهذا غيض من فيض قطرة من بحر.

ثم نشرع الآن في بيان أمثلة من الحشد الفني.

١- قال تعالى في سورة سباء:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّنَا تَأْتِنَا مَعْلِمٌ الْغَيْثُ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِنْقَالٌ ذَرَّةً فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣٦ .

وقال في سورة يونس:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَاءٍ وَمَا تَنْتَلِعُ مِنْهُ مِنْ قُرْبَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَنَّا عَيْنَكُمْ شَهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِنْقَالٍ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ١١ .

لنتنظر الآن إلى الفروق في التعبير بين الآيتين:

آية يونس

آية سباء

لَا يَعْرُب

عَنْ رَبِّكَ

مِنْ مِنْقَالٍ ذَرَّةً

لَا يَعْرُب

عَنْهُ

فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

[بتقديم السماوات على الأرض وجمعها] [بتقديم الأرض على السماء وأفراد السماء]

وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ (بالرفع) وَلَا أَكْبَرَ (بالنصب)

أما النفي بـ (لا) في سباء فلأن الكلام على الساعة، وال الساعة استقبال فجاء بـ (لا) الدالة على الاستقبال في النفي. وأما النفي بـ (ما) في يونس فلأن الكلام على الحال، و (ما) مختصة بنفي الحال. فجاء بكل حرف في الموضع الذي يليق به. ألا ترى إلى بدء الآية كيف قال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا

الساعة) فنفي بـ (لا) لما كان الكلام على الساعة ولم يقل: (ما تأتينا) لأن الساعة استقبال؟

وقال في آية سبأ: «لَا يَعْزِزُ عَنْهُ»، وقال في آية يونس: «وَمَا يَعْزِزُ عَنْ رَبِّكَ» فجاء بالضمير في سبأ لأنه تقدم ذكر الرب عالم الغيب فيها فأعاد الضمير عليه، فقد قال: «قُلْ بَلَى وَرَبِّكَ لَتَأْتِنَّ كُمْ عَلَيْهِ الْغَيْبُ». ولم يتقدم ذكر له في يونس فلذلك ذكره صريحاً.

وأما زيادة (من) في آية يونس وعدم ذكرها في آية سبأ، فلأن سياق كل آية منها يقتضي ذلك. وذلك أن الكلام في آية يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنه يعلم كل شيء، ويدأ الآية بقوله: «وَمَا نَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا نَتَلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ».

وأما في آية (سبأ) فالكلام على الساعة ابتداء، قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّكَ لَتَأْتِنَّ كُمْ عَلَيْهِ الْغَيْبُ...» [سبأ] فجاء بعلم الغيب تبعاً للساعة، أما في آية يونس فالكلام ابتداء على علم الغيب ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يندر عنه شيء، فناسب ذلك زيادة (من) الاستغرافية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور.

وأما تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ (مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) فلأن الكلام على الساعة وأمرها يأتي من السماء وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: «وَنَفَخْنَاهُ فِي الْأَنْعَمِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» [آل الزمر] وكما قال: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَقَرَرَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَعْلَمُ» [آل النمل].

في حين قدم الأرض على السماء في آية يونس لأن الكلام على أهل الأرض وذلك أنه قال: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا نَتَلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ» [يونس] فناسب ذلك تقديم الأرض في آية يونس،

وناسب تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ^(١). جاء في (الكساف) في هذه الآية: «إِنْ قَلْتَ: لَمْ قَدِمْتِ الْأَرْضَ عَلَى السَّمَاءِ بِخَلْفِ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ سبأ ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزِزُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: «لَا يَعْزِزُ عَنْهُ» لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء^(٢).

ومثله قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيَادَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتَقامَةٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْنِي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُ كُلَّمَا كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [آل عمران].

وقوله: «رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» [إبراهيم].

وقوله: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ يُشْئِي النَّسَاءَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعْلِمُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْعِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْبَلُونَ وَمَا أَنْسَرَ يُمْعِنِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [العنكبوت].

فإنه لما كان الكلام على أهل الأرض فيما مر من الآيات قدم الأرض على السماء^(٣). وأفرد السماء في آية يونس وجمعها في آية سبأ، وقد يبدو ذلك مخالفًا للسياق لأن السماوات أكثر من السماء، والمناسب لاستغراق علم الله بالغيب الجمع. وبأدنى تأمل يتضح أن كل لفظة في مكانها أنساب وألائق.

فقد بينا في موضع سابق أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنين، فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الْأَذْيَا

(١) انظر بدائع الفوائد ١/٧٤.

(٢) الكشاف ٢/٧٩.

(٣) انظر البرهان للكرماني ٢٢٧.

بِصَّابِحَةِ ﴿الْمُلْك﴾ [الملك] وقوله: «وَأَتَوْ فَنَحَنَا عَلَيْهِمْ يَا بَا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلَّوْ فِيهِ يَعْرُجُونَ»
لَقَالُوا إِنَّمَا شَكَرْتَ أَنْصَارَنَا بِلْ مَنْ هُنْ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ» ﴿الحجر﴾.

وإماماً أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره. ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من (السماءات) لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع.

وقد وردت في آية يونس بهذا المعنى الشامل العام: «وَمَا يَعْزِيزُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِّنْقَالٍ ذَرَقَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» وهو المناسب للدلالة على سعة علم الله وإحاطته بالغيب واستغراق علمه لكل شيء. فهو أوسع من أن يكون في السماءات السبع وأعم. وناسب ذلك أيضاً ذكر (من) الاستغرافية معها في هذه الآية. وجاء بها مجموعة في آية سبأ لأنه ليس المقام مقام استغراق وإحاطة كما ذكرنا. ثم قال في آية سبأ، «وَلَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ» بالرفع. وقال في آية يونس: «وَلَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ» بالنصب، فجاء في آية يونس بلا النافية للجنس الدالة على الاستغراق والتأكيد، ليناسب مقام إحاطة علم الله بالغيب واستغرقه لكل شيء، ويناسب الاستغراق الذي جاءت به (من) الاستغرافية والاستغراق الذي أفادته الكلمة (السماء)، لأن (لا) النافية للجنس تفيد الاستغراق كما هو معلوم.

وجاء في آية سبأ بـ (لا) النافية التي لا تنص على الاستغراق، وهي أقل توكيداً من (لا) النافية للجنس، لأن المقام لا يقتضيه والسياق ليس عليه، بل ذكر علم الغيب فيه تبعاً لذكر الساعة كما أوضحتنا.

فترى أن كل كلمة بل كل حرف وضع في مكانه اللائق المناسب.

٢- وإليك مثلاً آخر:

قال تعالى:

«وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا إِنْسَانٌ وَلَا حَرَمَنَا
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَ الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَعَ
الْمُؤْمِنُونَ» ﴿النحل﴾.

وقال:

﴿ سَيَمُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا أَبَاوْنَا وَلَا حَرَّمَنَا مِنْ شَيْءٍ وَكَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ إِنْ قَبْلَهُمْ حَتَّىٰ ذَأْوَأْ بَأْسَنَأْ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَنْعِمُونَ إِلَّا أَظْنَنَ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُخْرَصُونَ ﴾ [الأنعام].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

الأنعام

النحل

ما أشركنا	ما عبدنا
وَلَا آباؤنا (بدون نحن)	نَحْنُ وَلَا آباؤنا
حرمنا من شيء	حرمنا من دونه مِنْ شيء
كذب الذين من قبلهم	فعل الذين من قبلهم

إن سياق سورة النحل في الرد على الشرك والنعي على المعبودات الباطلة من دون الله، فالسورة تبدأ بتزييه الله عن الشرك: «سُبْحَنَهُ وَتَعَلَّمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ» [النحل] «تَعَلَّمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ» [النحل]. وتبيّن أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلا مخلوقات، مثلهم بل هي أحط منهم فهي لا تعي ولا تشعر «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ» [النحل] «أَمَوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَا وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْثُثُونَ» [النحل] «إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ» [النحل].

وتستمر السورة في الكلام على العبادات وبيان أن كل شيء إنما هو خاضع لله عابد له. قال تعالى: «أَوْلَئِرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيُهُ اللَّهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمَائِيلِ سُجَّدًا لَّهُ وَهُنَّ دَارِخُونَ» [النحل] «وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُنْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» [النحل].

وقال: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيْعُونَ» [النحل].

بينما سياق سورة الأنعام في الكلام على ما زعموه من محرمات الأطعمة، وما يعتقدونه من أمور باطلة في أنصبة الحرج والأنعام، وما افتروه على الله من تحليل وتحريم بغير علم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِنَ الْحَرْجِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَغْمِهِ وَهَذَا شَرٌ كَيْنًا﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْتُمْ وَحْرَجٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ لَشَاءَ إِرْعَمِهِمْ وَأَنْعَمْ حَرْمَتْ ظَهُورُهَا وَأَنْفَدْ لَا يَدْكُونَ لَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْتَرَاهُ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَقْرَوْنَ﴾
 وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِذَكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شَرٌ كَيْنَ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّمَا حَكِيمٌ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام].

﴿ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ أَثْنَيْنِ قُلْ مَا لَذَكَرَتِنِ حَرَمٌ أَوْ أَلَّاثِينِ أَمَا أَشَمَّلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَلَّاثِينِ نَبَغُونِ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ﴾
 وَمِنَ الْأَلَّابِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَثْنَيْنِ قُلْ مَا لَذَكَرَتِنِ حَرَمٌ أَوْ الْأَلَّاثِينِ أَمْ كُنْتُمْ شَهِدَاءَ إِذْ وَصَنَحْكُمَ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِنَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضَلِّلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْأَفْلَامِينَ﴾
 قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَرَمًا عَلَى طَاعِيمِ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فِي أَنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَهُدِّءُ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَابِرَ فِي أَنَّ رَبِّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
 وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَمِ حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ شُعُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلْتُمْ ظَهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَائِيَا أَوْ مَا أَخْتَطَطْ يَعْظِمْ ذَلِكَ جَزِيَّهُمْ بِسَيِّئِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾
 فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا إِبَآؤُنَا . . .﴾ [الأنعام].

فلما كان السياق في آيات النحل على الشرك في العبادات وعبادة غير الله ونحو ذلك مما يتعلق بالعبادة قال: (ما عبدنا من دونه).

ومما حسن ذلك أيضاً قوله تعالى بعد الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِّيْ أَعْبُدُوا لِلَّهِ وَأَبْحَثُنَّ بِهَا الظَّلَعُوتَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك ذكر العبادة.

ولما كان السياق في الأنعام على الشرك في التحليل والتحرير، ولاسيما في الأطعمة وليس المقصود بالشرك هنا الشرك الخاص بعبادة غير الله لم يصرح بالعبادة. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مَا لَرَبِّكُمْ أَنْسَهَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسقٌ وَلَئِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُوحِنَ إِلَيْكُمْ أَزْوَاجَهُمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِلَكُمْ لَتُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام].

فسماهم مشركين لإطاعتهم أولياء الشيطان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لفظ (الشرك) وما تفرع عنه تردد في الأنعام أكثر مما في النحل. ولفظ العبادة تردد في النحل أكثر مما في الأنعام. فقد تردد لفظ (الشرك) ومشتقاته ثمانية وعشرين مرة في الأنعام، وتردد في النحل تسعة مرات، وتردلت العبادة في النحل أربع مرات، وفي الأنعام مرتين، فوضع لفظ العبادة في النحل والشرك في الأنعام جاعلاً كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

ولما كان السياق في النحل في العبادة والتوحيد وهي أهم من الأطعمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ [الذاريات] زاد (نحن) توكيداً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الكلام في النحل موجه إلى المخاطبين أكثر مما في الأنعام، لذا كان من المناسب زيادة (نحن) في النحل دون الأنعام لأنه جواب منهم.

وقد تردد ذكر من هم دون الله من المعبودات في النحل أكثر مما في الأنعام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنْ أَسْسَنَوْتِ الْأَرْضِ ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ مُخْلَقُونَ ﴾ [النحل] لذا زاد: (من دونه) فيها.

هذا علاوة على أن ذكر (من دونه) بعد قوله: (ما عبدنا) يقتضيه المعنى، بخلاف (ما أشركنا) وذلك أنه لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لم يكن المعنى

مستقيماً. وكذلك لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا من شيء). فإنه لم ينفع عليهم أصل العبادة فان العبادة مطلوبة، ولكن نعى عليهم عبادة غير الله. فلو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) ل كانت العبادة مرفوضة أصلاً، ولو قال: (ما عبدنا من شيء) لكان الله سبحانه يدخل في جملة المعبودات المرفوضة، وسيكون المعنى أنه لا شيء يصلح للعبادة حتى الله سبحانه. ولذا كان لا بد من ذكر (من دونه من شيء) ليصح المعنى المراد.

وأما قوله: (لو شاء الله ما أشركنا) فإنه واضح القصد تمام المعنى، فإن مفهوم الشرك واضح معلوم وهو مذموم بكل صوره وأشكاله. فقوله: (ما أشركنا) معناه: ما أشركنا مع الله أحداً. ولا يتضمن هذا التعبير زيادة شيء لتوضيحه.

جاء في (درة التنزيل) في ذكر (من دونه شيء) بعد قوله: (ما عبدنا) دون (ما أشركنا). «قوله: (ما أشركنا) مُستغنٌ عن ذكر المفعول به وإنْ كان في الأصل متعدياً لقوله: (أن تشركوا به شيئاً) وإنما لم يحتاج إلى ذكر المفعول به كما احتاج إليه (عبدنا) لأن الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته. والعبادة لا تدل على إثبات معبود لا يجوز إثباته، لأنها تدل على معبود هو مثبت لا يصح نفيه.

قوله: (ما عبدنا) غير مستنكر أن يعبدوا، وإنما المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئاً فكان تمام المعنى بذلك قوله: (من دونه من شيء). وكذلك: (ولا حرمنا من دونه من شيء) لا بد من (حرمنا) من قوله: (من دونه من شيء). ولم يتحقق إليه بعد قولنا: (ما أشركنا) لأن الإشراك دال على أن صاحبه يحرم شيئاً من دون الله، ولا يدل (عبدنا) على ذلك. فوفى اللفظان في سورة النحل حقهما من التمام^(١).

وقال في (الأنعام): «كَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وفي النحل: «كَذَّلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وذلك لما تردد في الأنعام افتراوهم وكذبهم على الله فقد قال عنهم أنهم: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا

(١) درة التنزيل ١٣٤-١٣٣.

فَقَالُوا هَذَا إِنَّا لَيَرَعِمُهُمْ وَهَذَا لِشَرِكَاتِنَا ﴿١٣٧﴾ وَهَذَا كَذْبٌ وَافْتَرَاءٌ عَلَى اللَّهِ . وَقَالَ بَعْدَهَا : « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ » وَقَالَ بَعْدَهَا : « وَقَالُوا هَذِهِ أَنْتَمْ وَحْرُثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهُمْ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعِيمِهِمْ وَأَنْتُمْ حَرِثُ ظُهُورُهُمْ وَأَنْتُمْ لَا يَدْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْتَرَاهُ عَلَيْهِ سِيَجِزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٩﴾ . »

وقد ذكر من كذبهم الشيء الكثير - انظر الآية ١٣٩ .

وقد قالوا: إن الله حرم ثمانية أزواج من الأنعام فقال لهم: « قُلْ مَا الَّذِكَرَيْنَ حَرَمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ نَعْوَنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٠﴾ وَمِنْ أَلْبَلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَا الَّذِكَرَيْنَ حَرَمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شَهِداً إِذْ وَصَّلْتُمُ اللَّهَ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضْلِلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ . »

أما السياق في النحل فيقتضي لفظ (فعل) دون (كذب) وذلك أن الآية وقعت في سياق الفعل والعمل دون سياق الافتراء والتکذيب ، فقد قال قبلها: « سَلَمُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَسْمَلُونَ ﴿٢١﴾ » وقال: « كَنَّكُلَّ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلِكُنْ كَانُوا أَقْسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ ». فقد ذكر فعل الذين من قبلهم وذكر ظلمهم لأنفسهم . والظلم فعل .

وقال: « فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٣﴾ » فذكر عمليهم واستهزاءهم وهذا كله فعل ثم جاء بالأية بعدها .

فأنت ترى أن (الفعل) هو المناسب لسياق النحل ، وأن التکذيب هو المناسب لسياق الأنعام .

هذا علاوة على تردد (الكذب) في الأنعام أكثر مما في النحل . فقد تردد ذكر الكذب في الأنعام إحدى وعشرين مرة ، في حين تردد في النحل عشر مرات فكان ذكر (كذب) أليق في الأنعام .

وتردد (الفعل) في النحل أكثر مما في الأنعام فقد تردد فيها أربع مرات ، وفي الأنعام ثلاث مرات فكان لفظ (فعل) أليق في النحل . وهكذا وضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها .

ثم إن خاتمة كل آية أليق بها من صاحبتها. فقد ختم آية الكذب والافتراء والقول على الله بغير علم بقويه: «**فَلَمْ يَرَهُ عَنْهُمْ كُلُّ مَنْ عَلِمَ فَتَرَجَّهُوا لَنَا إِنْ تَشْعُونَ إِلَّا أَظَانَ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَحْصُونَ**» [الأنعام: ١٦٣]. فإذا لم يكن عندهم علم لم يكونوا إلا ظانين متخرصين.

وختم آية التبليغ الواقعة في سياق التبليغ بقوله: «**فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَبْلَغَ الْمُبِينَ**» [النحل: ٤٥] ويأتي بعدها تبليغ الرسل لأممهم دعوة الله «**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الظَّاغُوتَ**» [آل عمران: ٢٦].

٣ - وإليك مثلاً آخر وهو قوله تعالى في سورة التوبه:

«**فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزَهَّقُ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَفِيرُونَ**» [٤٠].

وقوله في هذه السورة أيضاً:

«**وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْدُّنْيَا وَتَزَهَّقُ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَفِيرُونَ**» [٤١].

والآن انظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين:

الآية ٨٥

الآية ٥٥

أموالهم ولا أولادهم	أموالهم وأولادهم (بدون لا)
ليعذبهم	أن يعذبهم
في الحياة الدنيا	في الدنيا

وبسبب ذلك والله أعلم أن السياق في الآية الأولى ذات الرقم ٥٥ يختلف عن السياق في الآية الثانية.

إن الآية الأولى في سياق إنفاق الأموال والخطاب للمنافقين. قال تعالى:

«**فَلَمْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنَّ يُنَقِّبَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**» [٥٣] وما معهم أن

تُقبلُ مِنْهُمْ نَفْقَهُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُفَّارٌ
وَلَا يُفْقِدُونَ إِلَّا وَهُمْ كَفَرُونَ ﴿٤﴾ فَلَا تُعِجِّبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ ... الآية﴾.

وبعدها: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَعْطُوكُمْ مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يَعْطُوكُمْ مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْخَطُونَ ﴿٥﴾».

وبعدها: « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُعْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ فُلُوْجُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْعَرِيمَةِ ﴿٦﴾».

فالسياق في إنفاق الأموال والكلام على المنافقين وأموالهم، ثم وجه الخطاب إلى الرسول قائلاً: « فَلَا تُعِجِّبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيَعْذِبَهُمْ بِهَا» فزاد (لا) النافية توكيداً « فَلَا تُعِجِّبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ» وزاد اللام في (ليعذبهم) لزيادة الاختصاص وتوكيده

في حين أن السياق مختلف في الآية الأخرى. قال تعالى: « إِنَّ رَجَلَكَ اللَّهُ
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدِيُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْتَلُوا مَعِيَ عَدُوًا إِنَّكُمْ رَضِيْشُمْ
بِالْقَعْدَةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْحَلَافِينَ ﴿٧﴾ وَلَا تُصْلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَنْقِمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا تُوْلُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨﴾ وَلَا تُعِجِّبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا ... ﴿٩﴾».

فسياق الآيات الأولى في إنفاق الأموال، فأكمل ذلك بزيادة (لا) واللام. ولما اختلف السياق في الآيات الأخرى خالفة في التعبير فلم يذكر (لا) ولا اللام، لأن المقام لا يقتضي التوكيد هنا.

ولما طال الكلام على الإنفاق والأموال في الآيات الأولى، زاد الكلام في هذه الآية دون الأخرى فقد زاد (لا) و (اللام) و (الحياة). ولما كان المال عصب الحياة كما يقال ومحطة الوصول إلى الرفاهية والسعادة زاد كلمة (الحياة) هنا، بخلاف الآية الأخرى فإنها في سياق الجهاد والقتال. والقتال والجهاد مظنة القتل وقد الحياة، ولذا لم يأت بالحياة في سياق الجهاد، بخلاف سياق المال، لأن الحرب سبيل فقد الحياة بخلاف المال والله أعلم.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَحْدَةٌ وَآتَاهُمْ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُنَّ ۖ وَنَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ
بِنَهْمٍ كُلُّ إِلَيْنَا رَجُعوا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقوله:

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَحْدَةٌ وَآتَاهُمْ رَبُّكُمْ فَأَنَّفُونَ ۖ فَنَقْطَعُوا أَمْرَهُرِ بَيْنَهُمْ زِبْرًا كُلُّ حِزْبٍ يَمَا
لَدَهُمْ فَرِحُونَ ۚ﴾ [المؤمنون].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

المؤمنون	الأنبياء
----------	----------

فاتقون	فاعبدون
فقطعوا	ونقطعوا
زبرا	-
كل حزب بما لديهم فرجون	كل إلينا راجعون

* * *

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: (فاعبدون) وفي سورة المؤمنون:
(فاتقون) فإن كل سياق يتضي ذلك من أكثر من وجه.

فإن آية المؤمنين جاءت في عقب ذكر عقوبات طوائف كثيرة من الأمم ممن
عصوا الرسل وإهلاكم وذلك نحو قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَّاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ۝» وقوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝».

ويستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية وذلك نحو قوله تعالى: «فَذَرْهُرُّ في
غَرَّتِهِمْ حَتَّىٰ جِينٍ ۝» وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ۝» وغير ذلك وغيره. فأنت ترى أن التحذير والتهديد اكتنف هذه الآية
اكتنافاً، بل إن جو السورة مشحون بالتحذير والتهديد.

وأما آية الأنبياء فإنها جاءت بعد ما يدل على الإحسان والتفضيل واللطف التام كما في قصة أیوب وزکریا ومریم.

ف nanoprop أن يوضع لفظ: (فاقتون) في آية (المؤمنون) لما فيه من التحذير والتخييف المناسب للعقوبات والإهلاك، ولفظ: (فاعبدون) في آية (الأنبياء) بعد ذكر الإحسان واللطف «ف nanoprop الأمر بالعبادة لمن هذه صفتة»^(١).

ثم انظر من ناحية أخرى إلى خاتمة السورتين، فقد ختم سورة الأنبياء فيمن سبقت لهم الحسنة وختم لهم بالسعادة، وختم سورة المؤمنين فيمن كان من أصحاب الشقاء وكان من أصحاب الجحيم.

ف nanoprop من هذا الوجه أن تختتم آية المؤمنين بالأمر بالاتقاء ليتقوا عذاب النار ويحذرها هذا المصير الو悲يل، كما ناسب أن تختتم آية الأنبياء بالأمر بالعبادة ليتالوا هذه السعادة ويحظوا بهذا الإحسان والفضل الكبير. وهذا كما ترى مناسب لما تقدم كأداً من الآيتين من عقوبات وتحذير في سورة (المؤمنون) ولطف وتفضيل في سورة (الأنبياء).

ثم انظر من الناحية التعبيرية، فإن لفظ الاتقاء والتقوى ومشتقاتها لم ترد في سورة الأنبياء البة لأن السياق لا يقتضيها، بخلاف سورة (المؤمنون) فإنه ورد فيها ذلك أربع مرات وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا يَنْقُونَ﴾^(٢) وقوله: ﴿فَأَرَسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا يَنْقُونَ﴾^(٣) وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْقُونَ﴾^(٤).

وأما لفظ العبادة ومشتقاتها فقد وردت في سورة الأنبياء ثمان مرات^(٥)، ووردت في سورة (المؤمنون) مرتين فقط^(٦).

فيكون على هذا الأمر بالتقى في آية (المؤمنون) في موطنه ومعدنه، والأمر بالعبادة في آية الأنبياء كذلك.

(١) انظر البحر المحيط ٤٠٩/٦، روح المعانٰي ٤١/١٨، ملاك التأويل ٧٠٨/٢

(٢) انظر الآيات ١٩، ٢٥، ٥٣، ٧٣، ٨٤، ٩٢، ٩٨، ١٠٦.

(٣) انظر الآيتين ٣٢، ٤٧.

فناسب من كل وجه الأمر بالعبادة في آية الأنبياء والأمر بالاتقاء في آية المؤمنون).

وأما قوله في الأنبياء: (وتقطعوا) بالواو، وفي سورة المؤمنون: (فتقطعوا) بالفاء فيقتضي كل سياق ما ورد فيه. فقد جاء في آية المؤمنون بالفاء للدلالة على أن التقطع والافتراق وقع في عقب الأمر بالقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته، مما يدل على شدة كفرهم وعنادهم، جاء في (روح المعاني): «والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبیح حالهم»^(١).

وجاء في الأنبياء بالواو مما يحتمل تأخر تقطيعهم عن الأمر بالعبادة^(٢) لأن الواو لمطلق الجمع وليس كالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب. فنص على الأولين بأنهم افترقوا وأنكروا في عقب أمرهم بالقوى، ولم ينص على هؤلاء بذلك. فورود الفاء في سياق آية المؤمنون أنساب لما فيه من عقوبات وإهلاك وتحذير، وورود الواو في سياق آية الأنبياء أنساب.

وقال في آية المؤمنون: (زُبُرًا) توكيداً للتفرق الذي حصل، ومعنى زُبُر: فرق جماعة^(٣). وهذا التوكيد هو المناسب لهؤلاء الأقوام المبالغين في العناد والكفر، بخلاف آية الأنبياء.

وقال في آية المؤمنون: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» وهو المناسب لقوله (زُبُرًا) والزير: هي الجماعات والأحزاب والفرق كما ذكرنا، فلما أكد التفرق ناسب ذكر الأحزاب لذلك.

وقال في ختام آية الأنبياء: «كُلُّ إِلَيْنَا رَجُعُوكُمْ» وذلك لقوله بعد هذه الآية: «وَحَرَمَ عَلَى قَرِيبَةِ أَهْلَكُنَّهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»^(٤) وعلاوة على ذلك تردد

(١) روح المعاني ١٨/٤١.

(٢) انظر البحر المحيط ٦/٤٠٩، ملاك التأويل ٢/٧١٠-٧١٢.

(٣) انظر روح المعاني ١٨/٤١.

الرجوع ومستقاته في هذه السورة ست مرات، في حين لم يرد في سورة (المؤمنون) إلا ثلاثة مرات.

ف nanop ك كل تعبير السياق الذي ورد فيه أحسن مناسبة ولاءمه أتم ملاءمة.

٥ - ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة].

وللنظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين.

السجدة

الحج

من غمٌ

-

وقيل لهم

-

عذاب النار

عذاب الحريق

-

الذي كتم به تكذبون

* * *

أما زيادة قوله (من غمٌ) في آية الحج فهو المناسب، وذلك أنه ذكر الجزء مفصلاً في سياق الحج بالنسبة للمؤمنين والكافرين. وقال تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْنَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعْتَ لَهُمْ شَابُّ مِنْ نَارٍ يُصَبَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ أَلْحِيمُمْ ﴾ يُصَهِّرُهُمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَنُودُ ﴿ وَلَكُمْ مَقْدِيمٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَكَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وَهُدُوا إِلَى الظَّبِيبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ .

أما في سورة السجدة فقد وقع ذكر الجزاء موجزاً بالنسبة إلى الطرفين: قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّتُ الْمَأْوَىٰ نَرَلًا إِيمَانُهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَيْلُهُمُ النَّارُ كُلُّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

فناسب قوله: (من غم) ذكر التفصيل الوارد في سورة الحج دون السجدة^(١)، ثم إن العذاب المذكور في آيات الحج أشد مما ورد في السجدة، والعذاب الشديد مدعوة إلى الغم كما لا يخفى فناسب ذكر الغم لذلك.

وأما ذكر: (وقيل لهم) في آية السجدة دون آية الحج، فقد يظن ظان أنه كان ينبغي ذكر هذه العبارة في آية الحج دون آية السجدة، لما في آيات الحج من تفصيل، وفي آية السجدة من إيجاز، ولكن بأدنى تأمل يتضح أنها وقعت في المكان المناسب لها تماماً وأن المقام يقتضيها من أكثر من وجه. ذلك أن مشهد العذاب في آيات السجدة مشهد غائب مخبر عنه وأن التعبير فيهابني على الغيبة. والسياق في كل من المواطنين يوضح هذا الأمر أبين توضيح. قال تعالى في سورة الحج: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّنْ نَارٍ...﴾.

فقد بدأ المشهد بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فأشار إلى هذين الخصميين باسم الإشارة الدال على المشاهدة والحضور والقرب. فناسب ذلك عدم ذكر: (وقيل لهم) الدال على الغيبة.

وأما في السجدة فالمشهد غائب كما ذكرت، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَيْلُهُمُ النَّارُ كُلُّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

فناسب ذلك أن يقال: (وقيل لهم) بخلاف آية الحج.

(١) انظر ملاك التأويل ٧١٧-٧١٨/٢

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: إن القول ومشتقاته تردد في سورة السجدة أكثر مما تردد في سورة الحج، فقد ورد في سورة السجدة سبع مرات، وورد في سورة الحج ست مرات، مع أن سورة الحج أطول من سورة السجدة بكثير، فإن آيات سورة الحج تبلغ ثمانين آية، في حين تبلغ آيات سورة السجدة ثلاثين آية.

فناسب من هذا الوجه أيضاً أن يذكر القول في السجدة دون الحج.

وأما قوله في آية الحج: «وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». وقوله في آية السجدة: «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ» فإن كلا تعبيرا مناسباً لموطنه الذي ورد فيه. فإن آية الحج قيلت في الكافرين. قال تعالى: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ يَدَيْهِنَّ مِنْ نَارٍ...».

وآية السجدة قيلت في الفاسقين، قال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَلَا وَلَهُمْ نَارٌ». والفسق قد يطلق على ما دون الكفر وقد يطلق على الكفر، فلما صرخ بالكفر في سورة الحج كان ذكر العذاب أشد فقال: «وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». والحريق هو النار البالغة في الإحراق^(۱). فذكر أن للفاسقين النار وللكافر النار البالغة في الإحراق. وهذا يناسب من ناحية أخرى ذكر الغم في آية الحج دون السجدة.

فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

وأما ذكره في آية السجدة التكذيب بعذاب النار وهو قوله: «عَذَابَ النَّارِ أَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» ولم يقل مثل ذلك في آية الحج، فذلك لأن آية السجدة في الفاسقين، والفسق قد يقال لما دون الكفر، فبين أن هذا الصنف هم من الكفارة المكذبين بالوعيد لثلا يظن ظان أنهم من عصاة المؤمنين. وأما في سورة الحج فقد أفصح بكفرهم فلا حاجة لذلك. جاء في (ملاك التأويل): «أن آية السجدة لما قيل فيها: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا» والفسق: الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع

(۱) روح المعاني ۱۷/۱۲۲.

الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع
الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الآخروي
فقيل لهم: «ذُوقُوا عذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَبُّونَ».

أما آية الحج فتقدم قبل ذكر الإفصاح بكفرهم في قوله: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا»
فلم يحتاج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة، فجاء كل على ما يجب
ويناسب^(١) فأنت ترى أن كل لفظ إنما وضع في مكانه الذي هو أليق به.

٦ - ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام.

﴿ قُلْ تَمَّا وَأَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ لَا شَرِكَّا لِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا
وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقِنَّعْنَزْفَكُمْ وَإِيَاهُمْ وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَ أَتَى حَرَمَ اللَّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَنْكُمْ بِهِ لَعْنُوكُمْ
نَقْلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِإِيَّاهُ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَتَلَقَّ أَشْدَمَ وَأَقْوَأُ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قَاتَلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْكَانَ دَامِرِي وَعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ بِهِ لَعْنُوكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ .

وقوله في سورة الإسراء:

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخَرَ فَنَقْعُدْ مَذْمُومًا تَحْذُلُوا ﴿١٧﴾ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا إِمَّا يَبْغُنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحْدُثُمَا أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تَقْتُلُهُمَا أَقْبَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٨﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْذَلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمَهُمَا كَرِيَافَ
صَغِيرًا ﴿١٩﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي ثُقُوْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَلِيْحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوْيَنِ غَفُورًا ﴿٢٠﴾ وَمَاتَ
ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُذْرَ بَذِيرًا ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِحْوَانَ الشَّيْطَانِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا ﴿٢٢﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَ عَنْهُمْ أَتْغَاهَ رَحْمَتِي مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
مَيْسُورًا ﴿٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَنَقْعُدْ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَسْمِطُ الْرِزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ يَعْبَادُهُ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقِنَّعْنَزْفَكُمْ
نَرْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَاتَلْهُمْ كَانَ خِطَابًا كَيْرًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَقْرِبُوا الْرِزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَرِحَشَةً وَسَاءَ

(١) ملاك التأويل ٧١٨/٢

سَيِّلًا ﴿٣﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا
يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٤﴾ وَلَا نَقْرِبُوا مَا لَيْسَ إِلَّا بِإِلَيْهِ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَلْعَبَ أَشَدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٥﴾ وَأَوْفُوا الْكِيلَ إِذَا كَلَمْ وَزِنُوا بِالْقَسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمَعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْوَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا ﴿٧﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَكَ تَبْلُغُ الْجَهَالُ طُولًا ﴿٨﴾

[الإسراء].

* * *

هاتان الموعظتان متشابهتان تقريرياً إلا في الإيجاز أو التفصيل. فقد بنيت
آيات الأنعام على الاختصار والإيجاز، وبينت آيات الإسراء على التوضيح
والتفصيل.

إن الأمور المشتركة التي تشتمل عليها كلتا هاتين المجموعتين من الآيات هي:

- ١ - النهي عن الإشراك بالله.
- ٢ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين.
- ٣ - النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر.
- ٤ - النهي عن الاقتراب من الفاحشة.
- ٥ - النهي عن قتل النفس.
- ٦ - النهي عن التصرف بمال اليتيم.
- ٧ - الأمر بإيفاء الكيل والميزان.
- ٨ - الأمر بالإيفاء بالعهد.

إن هذه الآيات وردت في السورتين على نسق واحد مع اختلاف يسير
بينهما. وإليك طرفاً من هذا الاختلاف.

- ١ - قال في الأنعام: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَقِي» وقال في الإسراء:
«خَشِيَّةً إِمْلَقِي».

٢ - قدم ضمير الآباء على الأبناء في الأنعام: «تَحْنُنْ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»، وقدم ضمير الأبناء في الإسراء: «تَحْنُنْ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُكُمْ».

٣ - نهى عن الفواحش عموماً في الأنعام فقال: «وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»». ونهى عن الزنى خاصة في الإسراء فقال: «وَلَا تَقْرِبُوا الرِّجْلَ إِنَّمَا كَانَ فِيهِ حَشَدٌ وَسَاءَ سَيِّلًا».

٤ - قدم الإيفاء بالكيل والميزان على الوفاء بالعهد في الأنعام. وقدم الوفاء بالعهد عليهم في الإسراء.

٥ - زاد الأمر بقول العدل في الأنعام فقال: «وَإِذَا فَلَتَمْ فَاعْدُلُوا»». ولم يذكر ذلك في الإسراء. وزاد في الإسراء إيتاء ذوي القربي والنهي عن التقير.

٦ - قدم الجار والمجرور على فعل الإيفاء في الأنعام فقال: «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا»». وقدم الفعل على الجار والمجرور في الإسراء فقال: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ».

٧ - زاد عبارة «إِذَا كَلَمْتُمْ» بعد قوله: «وَأَوْفُوا الْكِيلَ» في الإسراء، ولم يذكر ذلك في الأنعام.

هذه أهم الاختلافات بين الآيتين في السورتين علاوة على الاختلاف في التفصيل أو الإجمال كما ذكرنا. وسنبين أسباب هذه الاختلافات بصورة موجزة.

١ - قال في الأنعام: «قُلْ تَمَاكُلُوا أَتُلُّ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» فنهى عن الشرك.

وقال في الإسراء: «لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَغَرْ فَنَقْعُدْ مَذْمُومًا مَخْذُولًا» فنهى عن الشرك، ثم قال: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» فأمر بتخصيص الله بالعبادة. ففصل في الإسراء ما لم يفصل في الأنعام، وذلك مناسب مع سياق كل منهما من حيث التفصيل أو الإيجاز.

٢ - قال في الإسراء والأنعام بعد النهي عن الشرك بالله: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا» وذلك لعظم منزلة الإحسان إلى الأبوين عند الله.

ولما قال في الأنعام: «**فَلْ تَكَاثُرَا أَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**» كان المظنون أن يقول: (ولا تسيئوا إلى الوالدين) لأنه سبيل ذكر المحرمات، والإساءة إلى الوالدين من المحرمات، إلا أنه عدل عن ذلك إلى قوله: «**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا**» لأن عدم الإساءة لا يفي بحق الوالدين. فالمطلوب هو الإحسان إليهما وليس عدم الإساءة إليهما. ولو قال: (ولا تسيئوا إليهما) لفهم من ذلك أن عدم الإساءة كافٍ بحقهما والإحسان تفضل منك عليهما. جاء في تفسير البيضاوي في قوله: «**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا**» «أي: وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلاله على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما»^(۱).

وقد زاد على ذلك في سورة الإسراء فتبسط في ذكر إحسان معاملتهما وعدم الإساءة إليهما فقال: «**إِمَّا يَتَلَعَّنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كَلاهُمَا فَلَا تَقْتُلُهُمَا أَفَ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ آرْجُوهُمَا كَمَا رَبَّيْنَا فِي صَغِيرِهِمْ». ﴿٢٤﴾

وهو المناسب لسياق التفصيل فيها بخلاف سياق آيات الأنعام المبني على الإيجاز والاختصار.

٣ - قال في الأنعام: «**وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُنْ نَرْزُقَكُمْ وَإِيَاهُمْ**».

وقال في الإسراء: «**وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُنْ نَرْزُقَهُمْ وَإِيَاهُكُمْ**».

قدم في الأنعام رزق الآباء على الأبناء فقال: «**تَحْنُنْ نَرْزُقَكُمْ وَإِيَاهُمْ**» وقدم في الإسراء رزق الأبناء على الآباء فقال: «**تَحْنُنْ نَرْزُقَهُمْ وَإِيَاهُكُمْ**» وذلك لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم «**مِنْ إِمْلَاقٍ**» فهم محتاجون إلى الرزق العاجل للقيام بتكلفة الأبناء. وأما في الإسراء فهم يقتلون أبناءهم خشية الفقر في المستقبل لا أنهم مفتقرون في الحال، ولذلك قدم رزق الأبناء على الآباء لإخبارهم أن رزقهم معهم وأنهم لا يشاركونهم في رزقهم. فآية الأنعام في الفقراء، وآية الإسراء في الموسرين. جاء في (البحر المحيط) أن قوله:

(۱) أنوار التنزيل ۱۹۶.

﴿مِنْ إِمْلَقٍ﴾ ظاهره «حصول الإملاق للوالد لا توقعه وخشيته، وإن كان واحداً للمال فبدأ أولاً بقوله: ﴿تَخَنُّ نَرْزُقُكُمْ﴾ خطاباً للأباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخالق الرازق ثم عطف عليهم الأولاد.

وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدىء فيه بقوله: ﴿تَخَنُّ نَرْزُقُهُمْ﴾ إخباراً بتکفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقينهم، وعطف عليهم الآباء، وصارت الآياتان مفيدتين معندين:

أحدهما: أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم.

والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيتهم^(۱). وقد سبق أن ذكرنا ذلك في موطن سابق.

ثم إنه وضع كل آية في سياقها المناسب فقد وضع قوله: ﴿وَلَا نَفْتَلُوا أُولَئِكُمْ خَشْيَةً إِمْلَقٍ﴾ في سياق الموسرين في آيات الإسراء فقد قال قبلها: ﴿وَإِاتَّهُمْ ذَلِيقَهُ حَقَّهُهُ وَالْمَسْكِينَ وَأَنَّ السَّيِّلَ﴾، والمأمور بإعطاء حقوق هؤلاء هم الأغنياء الموسرون لا الفقراء. ثم قال ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبَذِّرًا﴾ والمأمور بعدم التبذير هو المسر في الأكثر، لأن الفقير ليس عنده شيء في الغالب فيبذره.

ثم قال: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَّا عُنْقَكَ وَلَا يَنْسُطْهَا كُلُّ الْبَسْطِ﴾ وهذا يقال لمن كان عنده مال ولا يقال للقير المعدم، فإن الفقير لا يمكن من بسط يده كل البسط وإنفاق ما عنده. فناسب ذلك أن يقول مخاطباً الموسرين: ﴿وَلَا نَفْتَلُوا أُولَئِكُمْ خَشْيَةً إِمْلَقٍ﴾.

فوضع كل آية في مكانها الذي هو أليق بها.

وقد تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿فَدَحَرَ اللَّذِينَ قَاتَلُوا أُولَئِكُمْ سَفَهًا يَعْتَرِ عِلْمًا﴾ ذلك أن الداعي لقتل المفترين أبناءهم أقوى من داعي الموسرين فوضعها في سياقها المناسب. ثم بين أن هؤلاء خسروا ولم يربحوا كما كانوا يظنون.

(۱) البحر المحيط ۲۵۱/۴

وقال في الإسراء: «إِنَّ قَاتَلَهُمْ كَانَ خَطَّافًا كَيْرًا» ولم يقل مثل ذلك في الأنعام، ذلك أن قتل الآباء الموسرين أولادهم خشية الافتقار أعظم جرماً من قتل الآباء المفتقرین الذين ليس عندهم ما يقوم بإعالة أولادهم. ولا شك أن كلیهما مرتكب لکبیر إلا أن هذا أكبر وأعظم جرماً.

٤ - قال في الأنعام: «وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». وقد مر في السورة نحو هذا فقال: «وَذَرُوا أَظَاهَرَ الْأَثْمِ وَبَاطِنَهُ». .

وقال في الإسراء: «وَلَا تَقْرِبُوا الْزَّيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَآءَ سَيِّلًا».

فقد عُمِّ في الأنعام فذكر الفوائح ما ظهر منها وما بطن. وخص الزنى بالذكر من بين الفوائح في الإسراء. وسبب ذلك والله أعلم أن المفتر الذي لا يجد شيئاً قد يرتكب سيئات كثيرة ليس خلته، فهو قد يسرق وقد يزني وقد يقتل وقد يفعل وقد يفعل وقد نسب إلى الرسول ﷺ أنه قال: (كاد الفقر أن يكون كفراً). وجاء في الأثر: (عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه). وقد أسقط عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة لأن الناس جياع. حتى إن الاشتراكية الحديثة جعلت الفساد كله مسبباً عن الفقر.

فوضع في سياق المفتقرين النهي عن عموم الفوائح، لأن الفقر مدعوة إلى ارتكابها.

وقد خص الزنى بالذكر في الإسراء لأنه أكبر أو من أكبر ما يبغى الموسرون، فهم يبذلون له المال الكثير ويلهثون وراءه.

فانظر كيف جمع الفوائح مع المفتقرين وذكر الزنى خصوصاً مع الموسرين، ولم يكتف بذلك بل علل النهي عنه بقوله: «إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَآءَ سَيِّلًا» فنهى بذلك عن سائر الفوائح.

ثم انظر كيف نهى عن ذلك بقوله: «وَلَا تَقْرِبُوا». والنهي بـ (لا تقربوا) أشد من النهي بـ (لا تزنوا) أو (لا تفعلو فاحشة) ونحوها، ذلك أنه نهي عن الاقتراب منه فضلاً عن مباشرته و فعله. جاء في (روح المعاني): «ولا تقربوا الزنى بمباثرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته، والنهي عن قربانه

على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داعٍ إلى مباشرته»^(١).

وقد وسط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة، ذلك لأن الزنى مدعوة إلى قتل الأولاد غير الشرعيين أو جعلهم في حكم المقتولين برميهم للتخلص منهم. فيكون التعبير قد تدرج من قتل الأولاد بسبب الفقر إلى قتل الأولاد بسبب الفاحشة إلى قتل النفس عموماً.

جاء في (روح المعاني): «وتوصيت النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة مطلقاً... باعتبار أنه قتل للأولاد، لما أنه تضييع للأنساب فإن من لم يثبت نسبة ميت حكماً»^(٢).

٥ - قال في الأنعام: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

وقال في الإسراء: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيهِ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا».

فاكتفى بذكر النهي في الأنعام ولم يكتف بذلك في الإسراء، بل ذكر ذلك وذكر حق الولي في الاقتراض ونهاه عن الإسراف في القتل.

والنهي عن الإسراف هنا متناسب مع النهي عن التبذير في الأموال، ثم إن هذا التبسيط والإفاضة ملائمان لسياق الإسراء، كما أن ذلك الإيجاز والاختصار ملائمان لسياق الأنعام.

٦ - قال في الأنعام والإسراء: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَدَهُ» [٣٤ و ١٥٢] فقد نهاهم عن الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن فكيف بالتصريف فيه؟ وهذا النهي أبلغ من القول: (ولا تتصرّفوا بمال اليتيم) أو نحو ذلك، فقد «نهى عن قربانه لما ذكر سابقاً من المبالغة في التعرض له»^(٣).

(١) روح المعاني ١٥ / ٦٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) روح المعاني ١٥ / ٧٠.

٧ - قدم الإيفاء بالكيل والميزان على الإيفاء بالعهد في الأنعام، وقدم الإيفاء بالعهد على الإيفاء بالكيل والميزان في الإسراء، ذلك لأنه من ذكر المفترضين في الأنعام: «وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِلْمَاقٍ»، ومر ذكر الموسرين في الإسراء، والفقراء أدعى إلى التطفيف وعدم الإيفاء بالكيل لحاجة المفترضين إلى المال، فكان وضع كل تعبير في مكانه الذي هو أليق به.

٨ - قال في الأنعام: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ».

وقال في الإسراء: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَرِزْقًا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ». فزاد (إذا كلتم). وهذه الزيادة متناسبة مع سياق التفصيل في الإسراء. ومعنى: (إذا كلتم) وقت الكيل، فقد أمر بالإيفاء وقت الكيل وعدم تأخير بعض الحق. جاء في (البحر المحيط): «والتفصيد بقوله: (إذا كلتم) أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد وأن لا يتاخر الإيفاء بأن يكيل بنقصان ما، ثم يوفيه بعد فلا يتاخر الإيفاء عن وقت الكيل»^(١).

وفي هذا التقييد فائدة أخرى فمعنى (إذا كلتم): إذا بعتم، والتطفيف يكون في هذا الموطن فإن البائع هو الذي يطفف وينقص في الكيل أما الذي يكتال فلا حاجة إلى أمره بالإيفاء^(٢).

٩ - قال في الأنعام بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْكَانَ ذَاقَهُ».

ومناسبيه مع ما قبله أن ما قبله أمر بالعدل في الأمور المادية، وهذا أمر بالعدل في القول.

١٠ - قال في الأنعام: «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» بتقديم الجار وال مجرور على الفعل.

وقال في الإسراء: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» بتقديم الفعل على الجار وال مجرور.

(١) البحر المحيط / ٦ - ٣٤ .

(٢) انظر روح المعاني / ١٥ - ٧١ .

وهذا التقديم في آية الأنعام للاهتمام والعناية، ذلك أنه أضاف العهد إلى الله فازداد تفخيمًا وكان ذلك أدعي إلى تقديمها.

وقد تقول: ولكن الله سبحانه قال في مكان آخر: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ [النحل] فقدم الفعل على عهد الله.

وأحسب أن الفرق واضح بينهما ففي آية النحل خصص عهد الله بقوله: (إذا عاهدتكم) وأطلقه في آية الأنعام. والفرق بينهما أن العهد الذي في النحل يعني به العهد الذي يعقده الشخص باختياره بدليل قوله: (إذا عاهدتكم). جاء في (التفسير الكبير): «ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: (إذا عاهدتكم) يدل على هذا المعنى»^(١).

وأما ما في آية الأنعام فهو عام يشمل جميع العهود ما عهده الله إلى عباده وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم. ولا شك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم. فقدم المجرور في الأنعام للاهتمام والعناية، وقدم الفعل في النحل.

وهناك أمور أخرى طريفة في هاتين المجموعتين من الآيات، غير أنها نكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية فيما أحسب.

(١) التفسير الكبير / ٢٠ - ١٠٧ .

الحشد الفني في القصص القرآني

إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاعظام به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، ويحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة:

منها: بيان أن قدر الله ماضٍ لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلّى ذلك في قتل فرعون أبناءبني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه ربٍ في حجره الشخص الذي كان مقدراً له أن يزيل ملكه.

ومنها: بيان عاقبة الظلم والظالمين، ويتجلّى ذلك في نهاية فرعون النهاية الوبيلة.

ومنها: بيان لنفسية الشعوب المستضعفه المستذلة ولتكونها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتحرر. ويتجلّى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بنى إسرائيل الذين تربوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصلفهم وجنبهم وحبهم للدنيا، ومحاولة سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهذه الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيم أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الذليل ولم ينشأ تلك النشأة المهيّنة.

ومنها: بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وأمنت به، وأنه ليس بسع أحد أي أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتّخذ من وسائل

إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت فرعون أعني إيمان امرأة فرعون.

وفيها وفيها، ذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها.

ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة بل، نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل تراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه المقام وذلك في حشد فني عظيم.

وحتى لا نطيل في سرد هذه الأحكام نذكر أمثلة على ذلك في اختيار طرف من القصص القرآني ولنبدأ بقصة سيدنا آدم عليه السلام.

قصة سيدنا آدم عليه السلام

١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف

قال تعالى في سورة البقرة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يَكُلُ شَيْءاً عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَنْجُلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْمِاءَ وَخَنْسِيَّتْ بَسِيجٍ حَمَدِكَ وَنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَعَلَمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْتُمْ تُغْنُونِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا سَبَّحْنَكَ لَا يَعْلَمُ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ قَالَ يَكْتَدُمُ أَنْتُمْ هُمُ الْأَنْجَاهُمْ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ قَالَ أَنْمَّ أَقْلَلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ عَيْبَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا يَمْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَنَا الْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَبِي وَآسْتَكِبْرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِينَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا يَكْتَدُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَرَجُلَكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَقْرِبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِنَّا فِيهِ وَقُلْنَا أَهْمِطُوا بَعْضُكُمْ لِيَعْصِيْ عَدُوّهُ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمُتَنَعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ﴿ فَلَلَّقَعَ إِدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلَمَتٌ فَنَابَ عَيْنَهُ إِلَيْهِ هُوَ أَلَوَّبُ الْجَحْمُ ﴾ ﴿ قُلْنَا أَهْمِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ مَنِيْ هَذِيْ فَمَنْ تَعِيْ هَذَا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُّونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِغَايَتِنَا أَوْ لَتِكَ أَصْبَحْ أَنَّارٌ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴾ ﴿ * * *

وقال في سورة الأعراف :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا نَشَكِرُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ مَا مَنْعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَرَتْكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَنْكِبَرْ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صَرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ لَمْ لَاتَّيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَدِيرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهِهٌ وَمَا مَدْحُورًا لَمَنْ تَيَّعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ بِكُمْ أَجَمِيعَنَّ ﴾ ﴿ وَيَكْتَدُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَرَجُلَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَقْرِبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ فَوَسُوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّي لَهُمَا مَا وُرِدَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا تَهْدِكُمَا رِيْكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيْنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَلِيلِينَ ﴾ ﴿ وَفَاسِمَهُمَا إِنِّي لِكُمَا لَيْمَنَ الْتَّصْبِحِينَ ﴾ ﴿ فَدَلَّهُمَا بِقُرْبٍ فَلَمَّا دَأَفَا الْشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَتَحَصَّفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا

رَبِّهِمَا أَلَّا أَنْهِكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَنَ لِكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبُّنَا ظَمَنَا أَنْفَسَنَا
 وَإِنَّ لَّرْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنْكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَهِيْطُوا بِعَصْكُمْ لِيَعْصِ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 مُسْتَقْرٌّ وَمَنْعَ إِلَى حِينٍ ﴿١٩﴾ قَالَ فِيهَا حَيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوْنَ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ ﴿٢٠﴾ يَبْحِيْءَ اَدَمَ فَذَأْرَلَنَا عَلَيْكُمْ
 لِيَاسَا يُوَرِّي سَوَّهَ تَكُمْ وَرَشَا وَلِيَاسُ الْنَّقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ اَيَّدَتْ اللَّهُ لَعَلَمُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٢١﴾ يَدْبِيْ
 اَدَمَ لَآيَقِنَتْكُمُ الشَّيْطَنُ كَمَا اَخْرَجَ اَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَزْعُ عنْهُمَا لِيَسَهُمَا لِيَرِهِمَا سَوَّهَ تَهِمَّا إِنَّهُ
 يَرِكُمْ هُوَ وَقِيلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا نُوَرِّهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَنَ اُولَيَّةً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ .

* * *

تبدأ هذه القصة في البقرة من أقدم حدث فيها حين أبلغ رب ملائكته بقراره في أن يجعل في الأرض خليفة وذلك قبل خلق آدم. وفيها ذكر مراجعة الملائكة لربهم في هذا القرار مبدئين عدم رغبتهم في هذا الاستخلاف لأسباب ذكروها. فقطع عليهم تخوفهم وظنونهم بعلمه الذي لا يحد. ثم ذكر اختبار المفاضلة الذي أجراه بين آدم والملائكة ففضلهم فيه آدم، وثبت لهم فيه أنهم ليسوا أهلاً للاستخلاف في الأرض بخلاف آدم.

لقد ذكر هذه الأوليات في أول سورة في القرآن تذكر فيها القصة ولم يذكرها في موطن آخر، وذكر هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات له أكثر من دلالة، فنية وغير فنية.

ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً، فقد وردت أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن، كما أنها أول قصة افتتح فيها القصص القرآني. في حين ذكرت القصة في سورة الأعراف من مرحلة الخلق والتصوير فهي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فكأنها كانت استكمالاً لما ورد في البقرة.

ذكر الله قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى: « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يُكْلِ شَفِيعَ عَلَيْمٍ ﴿٢٤﴾ ».

وهذه الآية التي سبقت بها قصة آدم بدأت بتكرير الإنسان: «خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» وختمت بالعلم: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكرير آدم وتكرير العلم.

أما تكرير آدم فيظهر فيما يأتي:

١ - ذكر استخلاف آدم في الأرض: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فهذا تكرير، إذ المستخلف ذو منزلة رفيعة ولا شك.

٢ - تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة.
٣ - إسجاد الملائكة له.

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

١ - إثبات العلم الشامل لله.
٢ - نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة.
٣ - إثبات التعليم لأدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم.

ومن هنا يتبيّن أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله. فكأنها جاءت تفصيلاً لما أجمل في الآية قبلها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا المكان، ولم يرد في أي مكان آخر من القرآن الكريم. وهو أنساب مكان له أيضاً إذ الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون لل الخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه.

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكاناته وقدراته على هذا الاستخلاف.

أما الجانب الأول وهو جانب التدبير والتصرف فقد فوضه به ربه بأوسع نطاق بقوله: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعاً ما صرّح أن يكون خليفة الله فيها.

وأما من حيث إمكاناته وقدراته فقد تبيّن بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة.

وقد ذكرت الآية التي وردت في مقدمة القصة هذين الركنين وهمما قوله:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قوله: ﴿وَهُوَ يُكَلِّ شَفَاعَةً عَلَيْهِمْ﴾.

فتكون الآية أجملت ركني الاستخلاف أيضاً، وبهذا تقع مسألة الاستخلاف هذه في أنساب مكان لها أيضاً.

ويتبين مما مر:

أن الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجملت قصة آدم من ناحية، وأجملت ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

فتكون قصة آدم بصورتها هذه وقعت في أنساب سياق لها وأعجبه.

هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال فإننا يمكننا القول: إن القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم. فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم. فهي تدور أساساً على تكريم آدم. وكل ما فيها من ألفاظ وموافق إنما هي مبنية على هذا التكريم.

في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع فيها التكريم ثانوياً. ونظرة واحدة إلى السياق الذي وقعت فيه القصة والعبارات التي وردت فيها تريح مصدق هذا الأمر.

لقد بدأت القصة في الأعراف بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّتُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشَكَّرُونَ﴾.

وأنت ترى الفرق واضحاً من حيث التكريم بين قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قوله: ﴿مَكَنَّتُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾. وغني عن القول إن التعبير الأول يدل على تكريم أكبر من الثاني. ثم انظر كيف ختم الآية بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشَكَّرُونَ﴾ فهي في مقام العتاب علىبني آدم ومؤاخذتهم على قلة شكرهم وليس في مقام تكريمهم. وقبلها قال ﴿قَلِيلًا مَا تَدَكَّرُونَ﴾ فأنت ترى أن المقدمتين تختلفان، وكل قصة إنما جاءت منسجمة مع مقدمتها.

أما من حيث السياق فإن القصة وقعت في الأعراف في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب رب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿وَكُم مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا بَأْسَانَا يَنْتَأْوِهُمْ قَاتِلُوكُمْ فَنَّا كَانَ دَعْوَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسَانًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

فقد ذكر أنه عاقب قسمًا كثيرةً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم، فالفرق واضح بين السياقين. ولذا بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها. وإليك إيضاح ذلك:

١ - لقد ذكر معصية إبليس في البقرة بقوله: ﴿أَبِي وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَفَّارِ﴾ فقد جمع لإبليس الإباء والاستكبار والكفر للدلالة على شناعة معصيته بحق آدم الذي أكرمه الله وعلمه. ولم يقل مثل ذلك في أي مكان آخر من القرآن بل هو إما أن يقول: (أبى) وإنما أن يقول: (استكبر) كما سترى ذاك، ولم يجمعهما إلا في هذا الموطن. وأما في الأعراف فقد قال: ﴿إِلَّا إِلَّيْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وأنت ترى الفرق واضحًا بين التعبيرين. فقد ذكرت كل عبارة بحسب موقف التكريم.

٢ - قال في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَقْرَبَا هَذِنِو الشَّجَرَةَ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَيَتَعَادُمُ أَسْكُنْ أَنَّتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَقْرَبَا هَذِنِو الشَّجَرَةَ﴾.

وأنت تلاحظ الفروق بين التعبيرين في هاتين الآيتين. فقد قال:

في البقرة

في الأعراف

وقلنا يا آدم اسكن

فكلا

وكلامها

رغداً

من حيث شئتما

حيث شئتما

فقد أنسد القول في البقرة إلى نفسه (وقلنا يا آدم) وهذا ي قوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضل والتكرير، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب: «**قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّذْهُورًا . . . وَيَقَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**» فلم يفرد آدم بقول.

وناسب التكريم والتعظيم أن يذكر (رغداً) في البقرة دون الأعراف لأن المقامين، مختلفان جاء في (البرهان) للكرماني: «زاد في البقرة (رغداً) لما زاد في الخبر تعظيمًا بقوله: (وقلنا) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها: قال»^(١).

وقال في البقرة: (وكلا) وقال في الأعراف: (فكلا) فجاء بالواو في البقرة وجاء بالفاء في الأعراف. والواو لمطلق الجمع والفاء تفيد التعقيب والترتيب. فالواو أوسع من الفاء لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فيصبح أن يكون معطوفها مفيدة للتعليق ولغيره. جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: (وكلا منها رغداً) بالواو وقال ههنا: (فكلا) مما السبب فيه؟.

وجوابه من وجهين:

الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو. ولا منافاة بين النوع والجنس»^(٢).

فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء. أما الفاء فتفيد التعقيب، أي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة. فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار، وهو المناسب لمقام التكريم. ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقاً للأمر.

(١) البرهان ٨٦

(٢) التفسير الكبير ٤٥/١٤

ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ولو تأخر لكان مخالفًا للأمر ويتحقق لك أن تمنعه منه. فاللواو أرحب زمناً من القاء. فذكر كل حرف في المكان الذي هو أليق به.

وقال في البقرة: « وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ».

وقال في الأعراف: « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ».

فقد أعاد ضمير الجنة في البقرة مع الأكل فقال: (منها) ولم يعده في الأعراف. فأنت ترى أنه ذكر الجنة وضميرها في البقرة. وهو المناسب لمقام التكريم فيها، ولم يفعل مثل ذلك في الأعراف.

ثم إن الظرف (حيث شتما) في البقرة يحتمل أن يكون للسكن والأكل جميعاً والمعنى: (اسكنا حيث شتما وكلا حيث شتما) فالسكن حيث يشاءان والأكل حيث يشاءان أيضاً.

وأما التعبير في الأعراف فلا يتحمل إلا أن يكون للأكل (فكلا من حيث شتما) ولا يصح تعليقه بالسكن، فلا يصح أن يقال: (اسكنا من حيث شتما) فالمشيئة والتخيير في البقرة أوسع لأنها تشمل السكن والأكل بخلاف الأعراف، وهو المناسب لمقام التكريم في البقرة كما هو ظاهر.

٣ - قال في البقرة: « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ».

وقال في الأعراف: « فَذَلَّهُمَا بِفُورٍ ».

والإزال لغير التدليلية فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التدليلية فلا تكون إلا إلى أسفل، ذلك أنها من التدليلية في البئر فإذا دللت أحداً فقد أنزلته إلى أسفل، بخلاف الزلة فقد لا تكون إلى أسفل. ومعنى (ذلهما): أنزلهما من مكان إلى مكان أحاط منه. فخفف المعصية في البقرة وسمى زلة مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف. فاستعمل كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

٤ - لم يذكر في البقرة معايبة الرب أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف فقد ذكر أنه عاتبهمما عليها فقال: « وَنَادَاهُمَا اللَّهُ أَنْتُمْ كُمَا عَنِ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلْتُكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ».

ولا شك أن مرتبة العتاب أدنى من عدمه.

ثم انظر كيف ناسب هذا العتاب لأبوي البشر في الجنة عتاب أبنائهما في الدنيا في الآية التي سبقت هذه القصة: ﴿فَلِلَّهِ مَا تَشْكُرُونَ﴾ وكيف وقعاً موقعاً متناسقاً واحداً؟

٥ - طوى في البقرة تصريح آدم عن نفسه بالمعصية ولم يذكرها إكراماً له في حين ذكرها في الأعراف فقال: ﴿فَالاَّ رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وانظر بعد هذا كيف يتسلق ندم آدم هنا مع ما ذكره قبل القصة من ندم المعاقبين من بني آدم ﴿وَكُم مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْعَانِ بَيْتَنَا أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْعَانَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢].

ثم انظر كيف اتفق الندمان على أمر واحد وهو الظلم فقال آدم: ﴿ظَلَمْنَا اَنفُسَنَا﴾ وقال أبناءه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم ارجع النظر مرة أخرى وانظر كيف كانت العقوبة على قدر الظلم، فقد قال آدم: (ظلمتنا) بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والطروء للدلالة على أنها زلة طارئة وليس معصية إصرار. وقال أبناءه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات على الظلم والإصرار فتاب على الأولين وأهلك الآخرين.

فانظر يا رعاك الله أي كلام هذا وأية لوعة فنية هذه!

٦ - ذكر في البقرة أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ولم يذكر ذلك في الأعراف، وإنما ذكر فيها أن آدم طلب من ربه المغفرة، والرحمة ولم يذكر أنه تاب عليه.

فانظر الفرق بين المقامين:

مقام البقرة الذي لم يذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة وذكر أنه تاب عليه مع ذلك.

ومقام الأعراف الذي ذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة ولم يذكر أنه تاب عليه. وانظر تناسب سياق البقرة مع مقام التكريم وسياق الأعراف مع مقام العتاب والمؤاخذة وقل: جل قائل هذا الكلام.

٧ - قال في البقرة: ﴿ قُلْنَا أَهِبْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنْ هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴾ (٢٤).

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف. والتكريم واضح في هذه الآية إذ فيها وعد من تبع الهدى بالعودة إلى الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

ثم انظر كيف قال: (تابع) بالتحفيف ولم يقل: (اتبع) بالتشديد كما فعل في (طه) فقد قال فيها: ﴿ قَالَ أَهِبْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِيَعْصِي فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنْ هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدًى فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (٢٤) ذلك أن الفعل بالتشديد يفيد المبالغة فاكتفى في البقرة بالأخف من الحدث ولم يشدد عليهم تحفيفا على البشر مراعاة لمقام التكريم.

هذا علاوة على أن في وضع كل فعل من هذين الفعلين في موضعه أسرار وأسرار.

منها: أن الفعل (تابع) تردد في سورة البقرة أكثر من آية سورة أخرى في القرآن الكريم، فوضعه في مكانه الذي هو أليق به. وقد مر بنا نظائر هذا الاستعمال.

ومنها: أن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم. فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به.

ومنها: أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴾ (٢٤) أي: في الآخرة. ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿ فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فقوله: (فلا يضل) متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها: وأما في الآخرة فيكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة. وقوله: (ولا يشقى) متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلي من الشقاء بدليل قوله تعالى لأدم قبيل هذه الآية: ﴿ فَلَا يُخْرِجُنَّكُمْ مِّنَ الْجَنَّةَ فَتَشْقَى ﴾ أي: إذا خرجت من الجنة شقيت، وقد أخرجهما من الجنة فلا بد من الشقاء إذن.

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقة.

ثم إن كل آية من الآيتين تقتضي الفعل الذي اختير لها من جهة أخرى، ذلك أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وأية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتکلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف.

وقد تقول: أفلأ يتطلب الفوز في الآخرة مجاهدة الضلال في الدنيا؟ فأقول: إنَّ الفوز في الآخرة على مراتب بعضها أعلى من بعض. وليس كل الناجين في الآخرة من كانوا يجاهدون الضلال في الدنيا أو لم يصلوا في أمر من الأمور. فمجاهدة الضلال والتحري لعدم الواقع فيه مرتبة عالية تتطلب جهداً كبيراً ومشقة في العمل. فوضع كل فعل في المكان الذي يقتضيه تماماً.

فانظر كيف يراعي في اختيار اللفظة أوجهًا متعددة، كل وجه يقتضيها من ناحية وينادي عليها بحيث تكون اللفظة كأنها مصوحة لهذا الموضع، أو أن الموضع كأنما أعد إعداداً لتحول فيه.

ثم انظر هداك الله أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟! .

٨ - قال في الأعراف: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَهُ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» وقال فيها أيضًا: «فَأَهْبِطْ مِنْهَا مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَحْكُمَ فِيهَا»

وقال في خاتمة السورة : «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَتَّحِونَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوْنَ ﴿١﴾» فناسب بين القصة وخاتمة السورة، ذلك أنه نفي عن ملائكته التكبر وأثبت لهم السجود، بخلاف إبليس الذي أثبت له التكبر ونفي عنه السجود.

وقال في البقرة في إبليس: «وَكَانَ مِنَ الْكَفَّارِ» وقال في خاتمة السورة: «فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَفَّارِ» فلما بين القصة وخاتمة السورة كما فعل في الأعراف.

ونحو ذلك قوله تعالى على لسان إبليس في قصة الأعراف: «مُّلْمَأْتَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَكِيرِينَ» وقوله تعالى في مقدمة القصة: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَذِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» فقد لاءم بين الآيتين أجمل ملامة، فقد قطع إبليس عهداً على نفسه بأنه سيحول بينبني آدم والشكر. وظاهر أنبني آدم وقعوا في شرك إبليس الذي نصبه لهم لئلا يشكروا فكانوا كما أراد (قليلاً ما يشكرون). وصدق قول الله فيهم: «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ شَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ [٢١]». فقد استجابوا لوسوسته كما استجاب أبوهم لها من قبل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - قال تعالى في الأعراف: «فَوَسُوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّيَ لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا [٢٢]» فذكر أن الغرض من الوسوسة هو أن يبدي لهم السوءات المخفية. وقد وقع ذلك فعلاً: «فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ [٢٣]» بغية سترها.

وعقب على ذلك بقوله: «يَبْيَنِيَّ إَادَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَيْنَكُو لِيَاسًا يُوَرِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِيَاشَ الْنَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ [٢٤]».

وهذا التعقيب هو المناسب لظهور السوءات وانكشفها في الجنة. ثم انظر كيف ذكر هنا كلمة (لباس) مع التقوى فقال: «وَلِيَاشَ الْنَّقْوَى» مناسبة لما مر من السياق. فالقوى لباس يواري السوءات الباطنة، واللباس والرياش يواري السوءات الظاهرة. فانظر هذا التناسب الجميل. جاء في (التفسير الكبير):

«إنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشف العورة أنه كان يخصف الورق عليها أتبه بأن بين أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عوراتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر»^(١).

(١) التفسير الكبير / ١٤ . ٥١

ثم انظر إلى تحذير الله لذرية آدم كيف يتناسب وما مر فقال: ﴿ يَنْبِئُكُمْ أَدَمَ لَا يَقْنَطُّ كُلُّ شَيْطَانٍ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةَ يَنْزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِرُبَّهُمَا سَوَاءٌ تِّهْمَةٌ ﴾^(١) [الأعراف].

وانظر بعد ذلك كيف أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فقال: ﴿ يَنْبِئُكُمْ أَدَمَ حُذُّدُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾^(٢) [الأعراف]. والزينة هي الرياش واللباس^(٣). وعقب بعد ذلك بقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِبَادِهِ وَأَطْبَبَتْ مِنْ أَلْرَزْقِ ﴾^(٤) [الأعراف].

ثم انظر بعد ذلك كيف قال في عذاب أهل جهنم: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ ﴾^(٥) وكيف ناسب كل ذلك ما مر في قصة آدم.

فأن ترى أن الشيطان نزع عن أبوينا اللباس في الجنة، وهو في هذه الدار حريص على أن يفتننا للتعرى من اللباس الظاهر والباطن، ولا يرضى في الآخرة إلا بأن نتسربل من سرائيل جهنم أعاذنا الله منها وأن يكون لنا منها مهاد وغواش نسأل الله العافية.

فانظر أي تناست هذا وأي فن عجيب.

(١) انظر الكشاف / ١ / ٥٤٦ .

٢ - قصة آدم في سورة الأعراف و (ص)

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾
 صَوْرَتْكُمْ مِمْمَنْ قَنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرِيلُ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ مَا
 مَنَعَكُمْ أَلَا سَجُدُوا إِذْ أَمْرَتُكُمْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا يَكُونُ لَكَ
 أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣﴾ قَالَ أَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْشُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ
 قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٤﴾ مِمْمَنْ لَأَزْيَّنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ
 شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَكِيرِينَ ﴿٥﴾ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُونًا وَمَا مَذْهُورًا لَمَنْ تَعَكِّسْ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ وَبَعْدَمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَهْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ فَوَسَوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّي لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبِّكُمَا عَنْ
 هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيَّنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْمُخْلَقِينَ ﴿٨﴾ وَفَاسَمَهُمَا إِنِّي لِكُمَا لَيْنَ التَّصْحِيحَ
 فَدَلَّهُمَا بِمُؤْرِبٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُمَا سُوءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَانِيَهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا
 رَبُّهُمَا أَلَّا أَنْهِكُمَا عَنْ يَالِكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُمَا عَدُوٌّ مُّشِينٌ ﴿٩﴾ قَالَ أَرِنَا طَلَمَنَا أَنْفَسَنَا
 وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِيَعْ�ِسَ عَدُوُّكُمْ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 مُسْتَقْرٌ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١﴾ قَالَ فِيهَا تَعِيُونَ وَفِيهَا تَمُوُونَ وَمِنْهَا أَخْرَجُونَ ﴿١٢﴾ .

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبُوٌّ عَظِيمٌ ﴾١٣﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾١٤﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾١٥﴾ إِنِّي يُوحَى
 إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾١٦﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾١٧﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَفَصَحْتَ فِيهِ مِنْ
 رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾١٨﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾١٩﴾ إِلَّا إِبْرِيلُ أَسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ
 الْكُفَّارِينَ ﴾٢٠﴾ قَالَ يَا إِبْرِيلُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكَبَرَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ ﴾٢١﴾ قَالَ أَنَا
 خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾٢٢﴾ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾٢٣﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
 الْحِسْنَى ﴾٢٤﴾ قَالَ رَبِّي فَأَظْرِفْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْشُونَ ﴾٢٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾٢٦﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ
 الْمَعْلُومِ ﴾٢٧﴾ قَالَ فَعِرِّلْكَ لِأَغْرِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾٢٩﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ

أَقُولُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَيَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ مِنْ أَخْرِ وَمَا أَنَا مَنْ أَتَكُلُّفُنَّ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ بَأْمَ بَعْدَ حِينَ﴾ .

بيتنا في موطن سابق علاقة قصة آدم بالآية التي تقدمتها في سورة الأعراف مما يعني عن إعادة ذكره.

أما القصة في سورة (ص) فقد وردت بعد ذكر الخصومة في الملا الأعلى «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ». وهذا هو الموطن الوحيد الذي ورد فيه ذكر لهذه الخصومة، ولم يرد مثل ذلك في أي موطن آخر من القرآن الكريم. وهذا هو المقام المناسب لذكرها، ذلك أن جو السورة مشحون بالخصومات فقد افتتحت السورة بالخصوصة والشقاق: «بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشَقَاقٍ» وهل الشقاق إلا خصومة؟

ووردت فيها قصة الخصومة التي فصل فيها النبي الله داود قال تعالى: «وَهَلْ أَنَّكَ نَبَوْا الْخَصْمَ إِذْ سَوَرُوا الْمَحْرَابَ ﴿إِذْ دَحَلُوا عَلَى دَاؤِدَ فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَاتُلُوا لَا تَخْفَ حَضْمَانَ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ .

وخصوصة النبي الله أيوب مع زوجه حتى إنه حلف ليضرِّبَها مائة جلد، فأفتابه الله بقوله: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضَغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ». .

وخصوصة أهل النار في النار وتبادل الشتائم فيما بينهم: «هَذَا فَوْجٌ مُّقْنَحٌ مَعْكُمْ لَأَمْرَحْبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتَ لَأَمْرَحْبًا كُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُونَ لَنَا فِيْنَ الْفَرَارُ﴾ .

ثم ختم هذه الخصومة بقوله: «إِنْ ذَلِكَ لَقُوْنٌ تَخَاصِّمُ أَهْلُ النَّارِ». . وخصوصة الملا الأعلى في أمر آدم: «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ». . فانظر كيف جاء ذكر الخصومة هنا مناسباً لجو السورة تماماً.

ما مر يتبيّن أن القصة وقعت هُنَا في سياق الخصومات وما تقتضيه من أخذ ورد ومحاجة، بخلاف القصة في سورة الأعراف. فقد ذكرنا فيما سبق أن القصة فيها وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب رب سبحانه فقد قال قبلها: «وَكَمْ مِنْ قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا

فَجَاءَهَا بَأْسَانَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٦﴾ فَمَا كَانَ دَعَوْنِيهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسَانَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَلَمِينَ ﴿٧﴾ [الأعراف].

فقد ذكر أنه عاقب قسمًا منبني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم. فمقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر مما هو في (ص). وقد بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في الأعراف: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمْرَتُكَ» ﴿١٢﴾.

وقال في (ص): «قَالَ يَأَيُّلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ» ﴿٥٦﴾.

فقد زاد (لا) في الأعراف لتأكيد السجود وهو قوله: (أَلَا تَسجد) دون ما ورد في (ص) وذلك لأسباب عدة اقتضت الزيادة فيها. منها:

أن التوكيد في قصة الأعراف أشد فاقتضى ذلك أن يؤتى بـ (لا) الزائدة المؤكدة. يدل على ذلك بدؤه القصة في الأعراف بقوله: «وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ». و(القد) مؤكdan هما اللام وقد. وهي - أعني لقد - قسم مقدر عند النهاة. والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص) فإنها تبدأ بقوله: «وَإِذْ قَلَنَا». وأن المؤكdas فيها أكثر (القد، زيادة (لا)، إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدن، لآتينهم، لأملأن جهنم منكم أجمعين، وقادسهما إنني لكما لمن الناصحين) فناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ومما حسن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله تعالى: «إِذْ أَمْرَتُكَ» ومخالفة هذا الأمر كبيرة ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ» فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد وللفظ أعنف وأغلظ.

وهناك جانب فني آخر حسن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص) وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ «الْمَصَ» وقد انتبه القدامي إلى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر ترددتها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها^(١).

(١) انظر بدائع الفوائد ١٧٣ / ٣

فиласب ذلك زيادة (لا) وهي لام وألف في السورة التي تبدأ بـألف ولام دون التي لم تبدأ بهما.

ثم إن جو السورة في الأعراف يختلف عنه في (ص) مما حسن تأكيد السجود في الأعراف دون (ص)، ذلك أن مشتقات السجود كالسجود والمساجدين ونحوها ترددت في سورة الأعراف تسعة مرات^(١) بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر فيها إلا ثلاثة مرات^(٢). وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكِرُونَ عَنِ عِبَادَتِهِ وَيُسَيِّحُونَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوْنَ﴾ [الأعراف] في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذه القصة في الآيات ٧٥، ٧٣، ٧٢.

لقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) جميعها ثلاثة مرات، فиласب ذلك أن يؤكّد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم. ثم إن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر كما ذكرنا، فиласب ذلك الزيادة في التوكيد والغلوظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى اسم إبليس فلم يذكره في الأعراف فقال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ﴾ [١١] في حين ذكر اسمه في (ص) فقال: ﴿قَالَ يَقُولُ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [٧٥].

ويدل على ذلك صيغة الطرد في الأعراف قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْجَرِينَ﴾ [١٢] فقد كرر الطرد مرتين وهما قوله: (فاهبط) وقوله: ﴿فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْجَرِينَ﴾. وكرر الطرد مرة أخرى في الآية الثامنة عشرة قائلاً: ﴿أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا وَمَا مَنَعَهُ رَجِيمًا﴾.

وليس الأمر كذلك في سورة (ص) فإنه قال: ﴿قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [٧٧] ولم يكرر الطرد مرة أخرى.

(١) انظر الآيات ١١ (ثلاث مرات)، ١٢، ٢٩، ٣١، ١٢٠، ١٦١، ٢٠٦.

(٢) انظر الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد طرده في الأعراف كما طرده في (ص) ثم زاد عليه فقال في الأعراف: «فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الْصَّاغِرِينَ» وقال أيضاً: «أَخْرُجْ مِنْهَا مَدْهُوْرًا»، وقال في (ص): «فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» فكرر الطرد بصيغة الخروج مرتين في الأعراف ومرة في (ص). وزاد على ذلك في الأعراف فقال: «فَالَّفَاظُ مِنْهَا» والهبوط أشد طرداً من الخروج إذ الهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، بخلاف الخروج فقد لا يكون كذلك. فهو أخرجه أولاً ثم أهبطه مما يدل على شدة الغضب في الأعراف.

ومما يدل أيضاً على أن مقام السخط في قصة الأعراف أكبر: عدم التبسيط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص). وأن عدم التبسيط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك أنه قال في (الأعراف): «فَالَّمَاءِنَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَرَتُكَ».

في حين قال في (ص): «فَالَّمَاءِنَسْ مَاءِنَكَ أَنْ سَجَدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدِي أَسْتَكْبِرَتْ أَمْ كُثَرَ مِنَ الْعَالَيْنَ» والتبسيط واضح في القول الأخير.

وقال في الأعراف: «فَالَّأَنْظَرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ».

في حين قال في (ص): «فَالَّرَبِّي فَانْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ» فزاد (رب) والفاء.

وقال في الأعراف: «فَالَّإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ».

في حين قال في (ص): «فَالَّفَانِكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

فراد الفاء وزاد «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

ثم انظر من الناحية الفنية كيف أنه في (ص) لما ذكر الفاء في قوله: «فَالَّرَبِّي فَانْظُرْنِي» كان الجواب بالفاء كذلك: «فَالَّفَانِكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»، ولما لم يذكر الفاء في قوله: «فَالَّأَنْظَرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ» كان الجواب بدون فاء كذلك: «فَالَّإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ».

فانظر كيف أنه لما رأى أن الله تبسيط معه في الكلام تبسيط هو أيضاً، بخلاف ما في الأعراف فإنه لما رأى السخط الكبير لم يجرؤ أن يتبسيط في الكلام بل جعله على أوجز صورة وأقصر تعبير، ولكل مقام مقال.

فانظر يا رعاك الله علو هذا الكلام وفخامته والبصیر يرى.

٣ - قصة آدم في الحجر و (ص)

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّاً مَّسْنُونٍ ﴾ ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارٍ أَسْمُوْرٍ ﴾ ﴿ وَلَذِكْ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَّاً مَّسْنُونٍ ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَمْ سَجِدِينَ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبْنَ أَنَّ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَتَبَلَّلِشَ مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَّاً مَّسْنُونٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ﴿ وَلَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الْدِينِ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِمَّا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِّيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوَيْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عَبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّ عَبَادَيِ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْفَاسِدِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ ﴾ .

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبِيٌّ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعَرِّضُونَ ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ ﴾ ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ أَلَا أَنَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ إِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَمْ سَجِدِينَ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَتَبَلَّلِشَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدِي أَسْتَكْبَرَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ﴿ وَلَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْدِينِ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ﴿ قَالَ فَيُعَزِّيزُكَ لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عَبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾ ﴿ قَالَ فَأَلْحِقْ وَالْحَقَّ ﴾ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْفِرِينَ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَلَلْعِلْمُ بِنَاوْ بَعْدَ حِينِ ﴾ ﴿ .

* * *

عرض القرآن الكريم في سورة الحجر و (ص) جانباً واحداً من القصة وهو ذكر معصية إبليس وعداوه للإنسان، ولم يذكر فيما ما يتعلق بآدم، بل لم يرد

فيهما اسم آدم أصلًا، بخلاف ما مر في سوري البقرة والأعراف فإنه ورد فيهما ذكر جانبي القصة: ما يتعلق بآدم وما يتعلق بابليس.

فكأن الغرض من ذكر القصة في الحجر و (ص) تحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ومع أن الجانب المذكور من القصة يكاد يكون واحداً في السورتين غير أنها لم تتطابقا. فثمة أمور عرضت لها القصة في الحجر تختلف عما في (ص)، وهذا نظير ما مر بنا من اختلاف القصتين، في البقرة والأعراف.

إن كثيراً من الألفاظ والعبارات متطابقة في القصتين غير أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً يتناصف وسياق كل قصة.

وإليك بيان ذلك وإيضاح طرف من الأسباب الداعية لهذا الاختلاف:

في (ص)

في (الحجر)

- خالق بشراً من صلصال من حماً مسنون خالق بشراً من طين
- إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين
- مالك ألا تكون مع الساجدين ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي
استكبرت أم كنت من العالين.

قال أنا خير منه خلقتني من نار
- قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من
صلصال من حماً مسنون.
وخلقتني من طين.

(ذكر إبليس أصل آدم ولم يذكر أصله هو) (ذكر إبليس أصله وأصل آدم
وذكر أنه خير منه).

وأن عليك لعنة
- وأن عليك اللعنة

قال فبغزتك
- قال ربٌ بما أغويتني

لأغويتهم أجمعين (من دون ذكر
التزيين).
أجمعين

. وممن تبعك.
- إلا من اتبعك

١ - ذكر في سورة الحجر أنه خلق آدم من صلصال من حماً مسنون، وذكر في (ص) أنه خلقه من طين. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَذِّقَ رَبُّكَ لِمَلَكِيَّةَ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّاً مَّسْنُونٍ﴾ .

وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِمَلَكِيَّةَ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ .

وكلمة (صلصال) مكونة من (صاد) وهو مفتاح سورة (ص) ومن (ألف ولام) وهما في مفتاح سورة الحجر، وقد تكررت هذه الكلمة في القصة مرتين، فتكون اللام تكررت أربع مرات والألف مرتين والصاد أربع مرات. وعلى هذا يكون وضع الكلمة في السورة المبدوعة بالألف واللام أنساب، لأن مجموع ترددتها أكثر من الصاد.

ومن ناحية أخرى إن القصة في سورة الحجر وردت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّاً مَّسْنُونٍ﴾ فكان المناسب أن ترد هذه اللفظة في صلب القصة أيضاً.

٢ - ذكر في الحجر أن إبليس (أبي).

وذكر في (ص) أنه استكبر.

قال تعالى في الحجر: ﴿إِلَّا إِلِيَّسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٢١﴾.

وقال في ص: ﴿إِلَّا إِلِيَّسَ أَسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٦﴾.

ومعنى (أبي) غير معنى (استكبر) فإن معنى (أبي): رفض وامتناع. ومعنى (استكبر): رأى نفسه خيراً من الآخرين. والرفض والامتناع قد يكونان لغير الاستكبار. وقد بنيت كل قصه على ما ذكر فيها. فقد بنيت قصة الحجر على الإباء والرفض، وبنيت قصة (ص) على الاستكبار، بذلك على ذلك أمور منها:

أنه لما قال في (ص): (استكبر) كان سؤال رب العزة له: ﴿أَسْتَكَبَرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا هو المناسب للاستكبار. ولم يقل مثل ذلك في الحجر.

ثم انظر إلى جواب إبليس في (ص) كيف كان مناسباً للاستكبار، ذلك أنه قال: ﴿فَأَلَّا خَيَّرْ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ تَأْرِ وَخَلَقْتُمُونِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ وهو تكبر واضح بذلك على ذلك أنه لما قال ذلك في قصة الأعراف قال له رب العزة: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَإِنَّكُونَ لَكَ أَنْ تَسْكَبَرَ فِيهَا﴾ ﴿١٣﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولكن قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِإِشَرِ خَلْقَتُمُ مِنْ صَلَصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْتُونٍ﴾ ﴿٣﴾ وهذا هو المناسب لكلمة (أبي) ذلك أن هذا القول يدل على الرفض والامتناع لا على الاستكبار. فإنك إذا قلت: (لم أكن لأفعل هذا) لم يفدي قوله الاستكبار عن فعله، ولكن يفيد الامتناع عنه.

هذا علاوة على أن جو سورة الحجر عموماً هو الامتناع والرفض، وجو سورة (ص) هو الاستكبار والعلو.

فقد ذكر في الحجر أن قسمًا من الكفار يرفضون الهدایة ولو جثتهم بكل أسبابها قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَنَّحَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لقالوا إنما سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بِلَمَنْ نَعْرِفْ قَوْمًا مَسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

وذكر فيها أن قوم لوط رفضوا عرض نبيهم لهم حين طلب منهم الكف عن التعرض لضيفه، قال تعالى على لسان نبيه لوط: «قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضِلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَقْرَأُوكُمُ اللَّهَ وَلَا تُخْرُجُونَ ﴿١٩﴾» فأجابوه قائلين: «أَوْلَئِمْ تَنْهَكُ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴿٢٠﴾».

وذكر فيها أن أصحاب الحجر رفضوا الآيات التي جاء بها نبيهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: «وَإِذْنَنَاهُمْ مَا يَتَنَافَكُلُوا عَنْهَا مَعْرِضِينَ ﴿٢١﴾».

في حين أن جو سورة (ص) يشيع فيه الاستكبار والعلو - كما أسلفنا - .

فقد ذكر في أول السورة أن الذين كفروا في عزة وشقاق: والمراد بالعزّة هنا «الاستكبار عن الحق»^(١) وعدم الانقياد له. وهذا كما قال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقَ اللَّهُ أَحَدَهُ أَعْزَهُ بِالْإِثْرِ ﴿٢٢﴾» [البقرة].

ثم ذكر قصة الخصميين اللذين بغي أحدهما على صاحبه واستكبر عليه. والباغي مستعمل ظالم مستكبر^(٢).

وذكر الطاغين وعذابهم قال تعالى: «هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرٌّ مَّا يَرَى ﴿٢٣﴾ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَإِنَّهُمْ أَمْهَدُوا ﴿٢٤﴾» [ص].

والطاغية: هو الأحمق المستكبر الظالم الذي لا يبالي ما أتى^(٣).

وذكر الذين اتخذوا غيرهم سخرياً، والذي يسخر من الناس مستكبر عليهم يراهم دونه. قال تعالى: «وَقَالُوا مَا نَنْرَى بِرِجَالًا كَانُوا دُهُونَ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٢٥﴾ أَتَخَذَنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَرُ ﴿٢٦﴾».

ومن هذا نرى أن كل قصة وضع في مكانها أحسن موضع وأجمله، وأن الجانب الذي عرضت له ملائمة أحسن ملاءمة مع جو السورة الذي وردت فيه.

(١) روح المعاني / ٢٤ ١٦٣ وانظر التفسير الكبير / ٢٦ ١٧٥ .

(٢) انظر لسان العرب وتاج العروس مادة (بغى).

(٣) لسان العرب وتاج العروس: (طغى).

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما جاء في البقرة بالقصة كاملة ما يتعلق منها بآدم وما يتعلق بإبليس جمع فيها ما تفرق في الحجر و (ص) فقال:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبْيَ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [البقرة: ٣٤]. في حين قال في الحجر (أبي) وقال في (ص) ﴿أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [٦٧].

٣ - قال في الحجر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبْيَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [٣١].
وقال في (ص): ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [٦٨].

فذكر السجود في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أن جو السجود شائع في قصة الحجر وسورتها أكثر مما في (ص). فقد ورد السجود في قصة الحجر ست مرات، في حين ورد في قصة (ص) ثلاث مرات. وقد ختمت السورة بالسجود أيضاً فقال تعالى: ﴿فَسَيِّخَ مُحَمَّدُ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٦٩].

وهذا بخلاف ما في (ص) فإنه حتى إنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ لَمْ تَابْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّه سَجَدَ بل قال: ﴿فَاسْتَغْفِرَ رَبِّهِ وَحْرَ رَأْكَهُ وَأَنَابَ﴾ [١١].

فوضع كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في إبليس: ﴿أَبْيَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أمر رسوله بأن يكون من الساجدين فقال له: ﴿فَسَيِّخَ مُحَمَّدُ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. وهذا تناقض في التعبير جميل ومغالفة أصلية لإبليس.

٤ - أضاف اللعنة إلى نفسه في قصة (ص) فقال: ﴿وَلَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِنَّ يَوْمَ الْلِّيْلَيْنِ﴾ [٦٩].

ولم يفعل مثل ذلك في الحجر بل قال: ﴿وَلَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنَّ يَوْمَ الْدِيْنِ﴾ [٢٢].

وذلك أنه لما قال في (ص): ﴿لِمَا حَلَقْتُ بِيَدِي﴾ فأضاف الخلق إلى ذاته وإلى يديه العليتين قال: ﴿وَلَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فأضاف اللعنة إلى نفسه. ولما لم يكن كذلك في الحجر قال: (اللعنة).

ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات.

قال في الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ .

وقال في (ص): مثل ذلك وزاد عليه قوله:

﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَىٰ﴾ فكان كل تعبير مناسباً لجو القصة التي ورد فيها. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: إذا كان المراد باللعنة وبلغتي شيئاً واحداً فما بال اللغظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام وفي سورة (ص) مضافاً؟ وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال: إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدئت في المعتمد بالذكر وهو خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَّلُ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر] ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدئت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [٧] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فَسَاجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ آجْمَعُونَ [٨] إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [٩] قَالَ يَأَيُّلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَىٰ أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١٠] .

فلم تفتح ذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر.

ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ جاء بدلالة ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتَ يَدَىٰ أَسْتَكَبَرَتَ﴾ فجعل بدل (الساجدين): ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتَ يَدَىٰ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله، أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: (بيدي) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَىٰ﴾

فكان الاختيار في التوقفة بين الألفاظ الذي افتتحت به الآية واستمرت إلى آخرها هذا^(١).

٥ - قال في (ص): ﴿ قَالَ فِيْرَّاتُكَ لِأَغْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ٦﴾ .

وقال في الحجر: ﴿ إِمَّا أَغْوَيْنِي لِأَرْتِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ٧﴾ .

فأقسم في (ص) بعزته، وأقسم في الحجر باغوائه^(٢)، وذلك لما تقدم في (ص) ذكر اسمه العزيز قال تعالى: ﴿ الْعَزِيزُ الْوَهَابٌ ﴾ وقال: ﴿ الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ ﴾ . وقد بدئت السورة بالعزة أيضاً فقال: ﴿ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِرَقٍ وَشَقَاقٍ ٨﴾ [ص] فناسب أن يقسم بعزته سبحانه.

في حين أقسم في الحجر باغوائه لما تردد من ذكر الإغراء، قال تعالى: ﴿ وَلَا أَغْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ٩﴾ وقال: ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِينَ ١٠﴾ .

فناسب أن يضع كل تعبير في مكانه الذي هو أنساب له.

٦ - قال في الحجر: ﴿ لِأَرْتِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ١١﴾ . وقال في (ص): ﴿ لِأَغْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ١٢﴾ .

فذكر التزيين في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أنه ورد ذكر الزينة في الحجر ولم يرد في (ص)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَاهَا لِلنَّظَارِ ١٣﴾ .

وقال في موطن آخر من السورة: ﴿ لَا تَمْدَنَّ عَيْنِيكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ١٤﴾ .

وهذا من التزيين في الأرض.

فناسب ذلك ذكر التزيين في قصة الحجر دون (ص).

(١) درة التنزيل ٢٥٢-٢٥١ .

(٢) وقد قيل أيضاً: إن الباء في (بما أغويتني) للسبب لا للقسم وعلى أية حال فإن الجواب واحد.

٧ - قال في الحجر: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُنَاوِينَ﴾ .

وقال في (ص): ﴿لَا تَلِأْنَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَعَكَّمْ مِنْهُمْ أَجْعَنَ﴾ .

فذكر الاتّباع بالتشديد في الحجر وذكر اتّباعه بالتخفيض في (ص) وذلك أنه لما جاء بعد القصة في الحجر قوله تعالى: ﴿تَبَعَ عِبَادِي أَقْرَبَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ناسب ذلك أن يخفف على عباده ويرحمهم بأن لا يدخل النار إلا من بالغ في اتباع إبليس، ولما لم يرد مثل ذلك في (ص) كان التحذير أشد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ان قصة آدم في الحجر وردت بعد ذكر نعم الله على البشر: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدَنَاهَا وَأَقْيَسَنَا فِيهَا رَوْسَى وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَجَرٍ وَمَوْرُوفِينَ ١١ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْمَتْ لَهُ بِرْزَقُنَ ١٢ وَلَمْ يَنْ شَرَّ إِلَّا عِنْدَنَا خَرَابَتِهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا يُقْدَرُ مَعْلُومٌ ١٣ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْقَحَ فَازْلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاهُمُوهُ وَمَا أَنْشَرْ لَهُ بِخَزِينَ ١٤﴾ .

في حين وردت قصة آدم في (ص) بعد ذكر عقوبات أهل النار في النار فناسب السياق في الحجر التخفيض على عباده والتفضل عليهم، بخلاف السياق في (ص). وبهذا ناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

وهذا التعبير مشابه لما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى في البقرة: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَىٰ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ١٥﴾ وقوله في طه: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَىٰ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ١٦﴾ غير أن هذا في التحذير والترهيب وذلك في الإطماء والترغيب، فجمع الترغيب والترهيب في هذه القصة على أتم وجه وأكمل صورة، والحمد لله رب العالمين.

قصة سيدنا موسى (عليه السلام)

١ - في البقرة والأعراف

إن قصة سيدنا موسى في البقرة والأعراف تشتراكان في قسم من المواطن وتحتليان في الكثير. ففي سورة الأعراف يذكر أموراً لا يذكرها في البقرة، كما يذكر أموراً في البقرة لا يذكرها في الأعراف.

وقد اخترنا نموذجاً من المواقف المشابهة لنبين الحشد الفني فيه.

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَبِيبَتْ مَارَقَتْكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾٦٧ إِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حَطَّةٌ تَغْزِلُ لَكُمْ خَطَبَتْكُمْ وَسَزَرِيدُ الْمُخْسِنِينَ ﴾٦٨ فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَّمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَّمُوا بِخَرَازِ الْسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾٦٩ وَإِذْ آسْتَسْقَى مُوسَى لِرَقْمِهِ فَقُلْنَا أَصْرِبْ بِعَصَالَكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أَنْتَنَا عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلَمَ كُلُّ أَنْوَاسٍ مَشَرِّبَهُمْ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾٧٠﴾ .

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَمِنْ قَوْمٍ مُؤْسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهُ، يَعْدُلُونَ ﴾٧١ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَقَ عَشَرَةَ أَسْبَاطًا أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُؤْسَىٰ إِذْ آسْتَسْقَهُ قَوْمُهُ، أَنْ أَصْرِبْ بِعَصَالَكَ الْحَجَرَ فَانْجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَانَا عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلَمَ كُلُّ أَنْوَاسٍ مَشَرِّبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَبِيبَتْ مَارَقَتْكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾٧٢ إِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حَطَّةٌ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا تَغْزِلُ لَكُمْ خَطَبَتْكُمْ سَزَرِيدُ الْمُخْسِنِينَ ﴾٧٣ فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَّمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ بِخَرَازِ الْسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾٧٤﴾ .

والآن انظر الفروق التعبيرية بين المقطعين:

في الأعراف

في البقرة

وإذ قيل لهم	وإذ قلنا
اسكروا	ادخلوا
وكلوا	فكروا
-	رغداً
وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً	وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة
نغر لكم خطئاتكم	نغر لكم خطاياكم
ستزيد	وسززيد
الذين ظلموا منهم	الذين ظلموا
فأرسلنا	فأنزلنا
عليهم	على الذين ظلموا
يظلمون	يفسدون
إذ استسقاه قومه	وإذ استسقى موسى لقومه
وأوحينا إلى موسى ... أن اضرب	فقلنا اضرب
فانبجست	فانفجرت
-	كروا واشربوا من رزق الله
	فما سر هذا الاختلاف؟

إن سر الاختلاف يتضح من الاطلاع على سياق الآيات في السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، ويبدأ الكلام معهم بقوله: ﴿ يَتَبَّعُ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]. ثم يأخذ بسرد النعم عليهم ويدركهم بها.

أما في سورة الأعراف مقام تقرير وتأنيب فإنّ بنى إسرائيل قوم لا يتعظون فإنّهم بعد ما أنجاهم من البحر وأغرق آل فرعون طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها. وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل. وإنّهم كانوا يتّهكون محارم الله فقد طلب الله منهم أن يعظموا حرمة السبت فانتهكوهـا وأخذـوا يصطادونـالحيـتانـفيـهـإلىـغـيرـذلكـ.

فالفرق واضح بين السياقين فناسب بين كل تعبير والمقام الذي ورد فيه وانظر إلى توضيح ذلك .

قال تعالى في سورة البقرة: (وَادْعُوا رَبَّ الْقَوْلِ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: (وَادْعُوا لَهُمْ) بِبَنَاءِ الْفَعْلِ لِلْمُجْهُولِ.

والقرآن الكريم يسند الفعل إلى الله سبحانه في مقام التشريف والتكريم ومقام الخير العام والتفضيل بخلاف الشر والسوء فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيهاً له عن فعل الشر وإرادةسوء. فإنه مثلاً عندما يذكر النعم ينسبها إليه لأن النعمة خير وتفضيل منه. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَعْمَلٌ﴾ [المائدة]. وقال: ﴿قَدْ أَنْعَمْتَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ [النساء] وقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّنَ﴾ [النساء] وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِحَانِيَةٍ وَلَمَّا مَسَهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوَسَّا﴾ [الاسراء]. وفي النعمة أظهر نفسه فقال: (أنعمنا) وفي الشر قال: (وإذا مسه الشر) ولم يقل (مسنناه بالشر) أو (أصبناه بالشر). وقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الصَّالِحِينَ﴾ [الفاتحة] وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف] وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِي﴾ [الجاثية] وإذا مرضت فهو يشفينـ [الشعراء]. فأنت ترى أنه نسب الخير إلى ربه فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِي﴾ ونسبسوء إلى نفسه فقال: ﴿وَلَدَّا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيْنِ﴾ ولم يقل (وإذا أمرضني) فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى .

وقال: ﴿وَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رُشْدًا﴾ [الجن] فبني إرادة الشر للمجهول (أشـرـ أـرـيدـ) ونسبـالـخـيرـوـالـرـشـدـإـلـىـالـرـبـ(ـأـرـادـبـهـمـرـيـشـدـاـ).

ومن ذلك ما جاء فيه في قصة موسى والرجل الصالح، قال:

﴿أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِسَدِيقِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَثُ أَنَّ أَعْيَبَاهَا وَكَانَ رَءَاءُهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ عَصَبَا ﴾٦٧﴿ وَأَمَا الْجَلْمُ فَكَانَ أَبُواهُ مُؤْمِنَيْنَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقُهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾٦٨﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبِّهِمَا حَيْرًا مِنْهُ رَكْوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾٦٩﴿ وَأَمَا الْجَدَارُ فَكَانَ لِقَلْمَنْيَنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِيْنَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كُنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاكَارَدَ رَبِّكَ أَنْ يَلْعَفَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخِرُ حَاكَنَزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَا عَنْ أَمْرِيْ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَنْيَهُ صَبَرَا ﴾١٠﴾ [الكهف].

فقال في خرق السفينة: «فَأَرْدَثُ أَنَّ أَعْيَبَاهَا» وقال في قتل الغلام: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبِّهِمَا» وقال في إقامة الجدار: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَلْعَفَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخِرُ حَاكَنَزَهُمَا». فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً له فقال: «فَأَرْدَثُ أَنَّ أَعْيَبَاهَا»^(١). أما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً لأن العمل مشترك، فإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء، وإبدال خير منه وهو خير، فجاء بالضمير المشترك للعمل المشترك ثم قال: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبِّهِمَا حَيْرًا مِنْهُ» فأسنده الإبدال إلى الله وحده.

وأما إقامة الجدار فعمل كله خير فأسنده إلى الله سبحانه وتعالى: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَلْعَفَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخِرُ حَاكَنَزَهُمَا».

ومن ذلك قوله تعالى: «وَلَكَنَّ اللَّهَ حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيْسُهُ فِي الْقُلُوبِ وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفَّرُ وَالْفُسُوقُ وَالْوَصْيَانُ ﴾١﴾ [الحجرات] فأسنده تزيين الایمان في القلوب إلى ذاته سبحانه. وقال: «رُزِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النَّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنْطَرَةِ مِنْ الدَّهَرِ وَالْفَضْكَةِ ﴾٢﴾ [آل عمران] فبني تزيين حب الشهوات للمجهول ولم ينسبه إلى نفسه. وقال: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكِبِ ﴾٣﴾ [الصفات] وقال: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبَرِيَّ ﴾٤﴾ [الملك] وقال: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَتَهَا لِلنَّاظِرِ ﴾٥﴾ [الحجر] فأسنده هذا التزيين الحسن إلى ذاته.

(١) انظر بدائع الفوائد ١٨-١٩، التفسير القيم ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦.

وقال: «زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» [البقرة: ١١١]. وقال: «بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» [الرعد: ٣٣]. وقال: «كَذَّالِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٦٧]. وقال: «أَفَمَنْ زَيْنَ لِهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَرَاءُهُ حَسَنًا» [فاطر: ٨]. وقال: «وَكَذَّالِكَ زَيْنَ لِفَرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ» [غافر: ٢٧]. وقال: «زَيْنَ لَهُمْ سُوءٌ أَفْكَلُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» [التوبه: ٩٧]. وقال: «بَلْ طَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَنْقِلَّ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبْدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ طَبَّ السَّوْءَ» [الفتح: ١١].

فأنت ترى أنه ينسب تزيين الخير إلى نفسه بخلاف تزيينسوء. إنك قد تجد مثل قوله: «زَيَّنَاهُمْ أَعْمَالَهُمْ» [النمل] ولكن لا تجد: (زيينا لهم سوء أعمالهم) فإن الله لا ينسب السوء إلى نفسه.

ومن هذا الباب ما تراه في القرآن الكريم في الكلام على الذين أوتوا الكتاب، فإنه على العموم إذا كان المقام مدام وثناء، أظهر ذاته ونسب إيتاء الكتاب إلى نفسه: «أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ» وإذا كان المقام مدام وتقرير قال: (أوتوا الكتاب). ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: «وَإِذَا أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ نَهْتَدُونَ» [البقرة: ٥٦] وقوله: «وَلَقَدْ أَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْأَطْيَابِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَنَائِينَ» [الجاثية: ١١] وقوله: «الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يَتَلَوُهُ حَقًّا تَلَوْتُه» [البقرة: ١١٩] وقوله: «الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يَعْرُفُونَهُ كَمَا يَعْرُفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» [البقرة: ٢٠] وقوله: «وَالَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَرْزُلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» [الأنعام: ١١١] وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» [الأنعام: ١١٢] وقوله: «وَالَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكُمْ» [الرعد: ٢٧]. وقوله: «الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يَتَلَوُهُمْ قَاتَلُوا إِمَانًا يَدْعُوا إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا» [القصص: ٥٣] وقوله: «وَكَذَّالِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ فَالَّذِينَ مَا أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» [العنكبوت: ١٧] وقوله: «فَقَدْ أَتَيْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَبَ وَالْمُكَمَّةَ وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٥].

فأنت ترى أنه أسند الإيتاء إلى نفسه في مقام المدح والثناء، في حين قال: «بَسَدَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَبَ كِتَبَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» [البقرة: ١٣] وقال:

﴿ وَلَئِنْ أَذِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ لِيَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا أَنَّهُ يُفْلِي عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝ وَلَئِنْ أَتَيْتَهُمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ بِكُلِّ إِعْيَةٍ مَا تَبْغُوا قِبْلَتَكَ ۝ ﴾ [البقرة]. فهو في مقام ذم لهم لأنهم يعلمون الحق ثم يروغون عنه.

وقال: « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ فَسِيرُهُمْ ۝ يَنْهَا ۝ ﴾ [آل عمران].

وقال: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَهَا مِنَ الْكِتَبِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَبِ اللَّهِ يَخْتَمُ بِيَنْهَمْ ثُمَّ يَتَوَلَّ فِرِيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ ﴾ [آل عمران].

وقال: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فِيهَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ يَرْدُوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارِينَ ۝ ﴾ [آل عمران].

وقال: « وَلَسْمَعْنَ ۝ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْعَى كَثِيرًا ۝ ﴾ [آل عمران].

وقال: « وَإِذَا خَذَ اللَّهَ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ لَتَبِعُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُمُوهُ فَبَدُوهُ وَرَأَ طُهُورُهُمْ وَأَشْرَقَاهُمْ ثُمَّ نَأَلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [آل عمران].

وقال: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَهَا مِنَ الْكِتَبِ يَشْرُونَ الْصَّلَاتَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَنْصُلُوا السَّيِّلَ ۝ ﴾ [النساء].

وقال: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَظْمَسَ وُجُوهُهَا فَنَرَدَهَا عَلَى أَدَبِرِهَا أَوْ تَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبَتَ ۝ ﴾ [النساء].

وقال: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَهَا مِنَ الْكِتَبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبِتِ وَالْأَطْعَوْتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّلَاءَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سِيَلًا ۝ ﴾ [النساء].

وقال: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْسِدُوا الَّذِينَ أَنْهَذُوا دِسْكُرْ هُزُوْ وَلَعِبَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارُ أَوْلَاهُمْ ۝ ﴾ [المائدة].

وقال: « قَدِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرِ وَلَا يُحِمِّلُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدْرِسُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ أَوْلَاهُمْ حَتَّى يَعْطُوا الْجِزَيْةَ عَنْ يَدِهِمْ صَغِرُونَ ۝ ﴾ [التوبه].

وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَبَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَطَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد]. وغير ذلك من الآيات.

فأنـت ترى أنه في مقام الذم يعني فعل الإيتاء للمجهول.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَّى بَدْرَكَنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَءَانَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَعْدَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَبَ هُدًى وَذَكَرَى لِأُولَئِي الْأَلْبَى﴾ [غافر].

يـاستـاد الفعل إلى ذاته في مقام المدح في حين قال: ﴿وَلَئِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى].

وقال: ﴿مَثُلُ الَّذِينَ حَمَلُوا الْتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمْثُلُ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [ال الجمعة] في مقام الذم^(١).

فـأنـت ترى أن الله سبحانه يذكر ذاته في الخير العام وينسبه إلى نفسه، بـخلاف الشر والسوء^(٢).

فـبني القول للمجهول في الأعراف ولم يظهرـربـ نفسه لأنـهمـ هنا لا يستحقـونـ هذا التـشرـيفـ، وهو نحو قوله تعالى: ﴿إِاتَّيْنَاهُمُ الْكِتَبَ﴾ وـ(ـأـوتـواـ)ـ الكتابـ.

(١) انظر التـفسـيرـ الـقيـمـ ٥٥٦ - ٥٥٥.

(٢) ليس معنى هذا القول: إن الله سبحانه لا ينسب إلى نفسه عقوبة أو غضباً أو نحو ذلك، بل إنه ليفعل ذلك لأنـهـ منـ الخـيرـ العـامـ ولكـنهـ لاـ يـنسـبـ إلىـ نـفـسـهـ سـوءـاـ فإـنـهـ منـ أـكـبرـ الـخـيرـ أنـ يـهـلـكـ الطـغـاةـ الـظـالـمـينـ وـيـسـتـأـصلـ شـأـفـهـمـ، ولـذـاـ تـرىـ فيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ منـ مـثـلـ قـولـهـ تعالىـ: ﴿لَتُهـلـكـ كـلـ الـظـالـمـينـ﴾ [ـإـبـراهـيمـ]ـ وـقـولـهـ: ﴿ثـمـ أـخـذـتـ الـلـيـنـ كـفـرـاـ فـكـيـفـ كـانـ تـكـيـرـ﴾ [ـفـاطـرـ].

وقال في سورة البقرة: ﴿أَذْلَّوْا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُّوا﴾ أي: أن الأكل يكون عقب الدخول، لأن الفاء تفيد التعقيب، أي: بمجرد دخولكم تأكلون توأً. وأما في سورة الأعراف فقال: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوا﴾ فالأكل لا يكون إلا بعد السكن والاستقرار وليس بعد الدخول.

ثم لاحظ الفرق أيضاً فقد قال في سورة البقرة: (فكروا) أي: أن الأكل يكون بعد الدخول توأً: ولم يأت بالفاء في الأعراف وإنما جاء بالواو ليفيد أنه ليس هناك من تعقيب، وأن الأكل سيحصل مع السكن ليس موقوتاً بزمن.

وفرق كبير بين الأمرين فهما كما تقول لشخص: أنت بمجرد دخولك يجئك الأكل، أو تقول له: اذهب واسكن وإن الأكل يأتيك (غير محدد بزمن).

وقد تقول: إنك جعلت الواو مع السكن أكرم من الفاء في قصة آدم في البقرة والأعراف، فلماذا جعلت الفاء هنا أكرم؟

والجواب: أن الأمر مختلف، ذلك أن قصة آدم ذكرت السكن في السورتين. قال تعالى في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَغَادِمُ أَسْكُنْ أَنَّ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾^(٢٥). وقال في الأعراف: ﴿وَيَغَادِمُ أَسْكُنْ أَنَّ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا﴾^(٢٦).

أما في قصة موسى فقد ذكرت الفاء مع الدخول والواو مع السكن. قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْلَّوْا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُّوا مِنْهَا﴾^(٢٧). وقال في الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوا مِنْهَا﴾^(٢٨). فالأمر مختلف وذلك أن الأكل في الأولى بعد الدخول، وفي الثانية مع السكن، فقال في البقرة: إن الأكل الواقع في عقب الدخول فإذا دخلتم أكلتم فوراً من كل مكان شئتم رغداً. وقد جعله في الأعراف مع السكن والاستقرار ولم يحدد لهم الوقت. والدخول غير السكن لأن السكن لا يكون إلا بعد الدخول، فجعل الطعام في البقرة مهياً قبل السكن والاستقرار. وفي الأعراف مع السكن بلا تعقيب، فقد يطول الزمن وقد يقصر، فكان الموقف في البقرة أكرم وأفضل.

وقال في سورة البقرة: (رغداً) لأنه مناسب لـتعداد النعم ولم يقل: (رغداً) في سورة الأعراف لأن المقام تقرير وتأنيب وأنهم لا يستحقون رغد العيش.

ثم انظر إلى تناظر هذه القصة مع قصة آدم فقد قال في قصة آدم: (رغداً) في البقرة دون الأعراف، نظير ما فعل في قصة موسى، لأن جو البقرة جو تكريم لأدم وتكريم لذراته من بني إسرائيل، في حين كان الجو في الأعراف جو عقوبات وتأنيب فلم يذكر الرغد في القصتين.

فانظر هذه الدقة في مراعاة جو السورة.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدم (الرغد) في الجنة وأخره في الدنيا، فقال في الجنة: «وَكُلُّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ» وقال في الدنيا: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا» [البقرة]. لأن الرغد في الدنيا قليل.

ومن ناحية أخرى انه لو وضعهما موضعًا واحدًا لكان المعنى أنهما متساويان في الرغد، وهذا بعيد فإنه ليس من المعقول أن تتساوى الجنة والدنيا الدينية في الرغد. كما أن فيه إشارة إلى أن رغد الجنة مقدم على رغد الدنيا، فليعمل العاملون لنيل ذلك الرغد أولاً. فانظر هذا التأليف العجيب.

وقدّم السجود في سورة البقرة على القول فقال: «وَآذُخُلُوا الْبَابَ شُبَكًا وَقُلُوْا حَجَّةً» [٥٨] لسببين والله أعلم:

الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك، فقد جاءت هذه القصة في عقب الأمر بالصلاحة قال تعالى: «وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَإِذَا أَذَّكُرَوْا مَعَ الرَّكْعَيْنِ ٥٧ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِإِلْزَامِ وَتَنْسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ الْكِتَبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٥٨ وَأَسْتَعِينُوْا بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْحَشِيشِينَ ٥٩ الَّذِينَ يَطْلُنُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوْرَبِهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجُعُونَ ٦٠ يَتَبَعِّجُ إِسْرَئِيلَ أَذْكُرُ وَأَنْتَمْ إِلَيْهِ أَعْنَمُتُ عَيْنَكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ٦١».

فناسب هنا تقديم السجود لاتصاله بالصلوة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخر السجود.

وقال في سورة البقرة: «**تَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**»^(٥٨) بجمع الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة، وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم، أي: مهما كانت خطاياكم كثيرة فإننا نغفرها لكم. وقال في سورة الأعراف: (خطايانكم) بجمع القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة، أي: يغفر لهم خطائين قليلة، وهو مناسب لمقام التقرير والتأنيب.

وقال في سورة البقرة: (وستزيد) فجاء بالواو الدالة على الاهتمام والتنويه، ولم يجيء بها في سورة الأعراف والسبب واضح.

وقال في سورة البقرة: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا**»^(٥٩).

وقال في سورة الأعراف: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**»^(٦٠) وذلك لأنه سبق هذا القول في هذه السورة قوله تعالى: «**وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ إِلَيْلَقٍ وَيَهْدِلُونَ**»^(٦١).

أي: ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة من السوء، فناسب هذا التبعيض التبعيض في الآية السابقة. جاء في (التفسير الكبير): «قال الله تعالى في سورة البقرة: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا**»^(٥٩) وفي الأعراف: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا**»^(٦١) فما الفائدة في زيادة كلمة (منهم) في الأعراف؟

الجواب: سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة هنا مبني على التخصيص بلفظ (من) لأنه تعالى قال: «**وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ إِلَيْلَقٍ وَيَهْدِلُونَ**»^(٦١) ذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم. فلما انتهت القصة قال الله تعالى: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**»^(٦١) ذكر لفظة (منهم) في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله، فيكون الظالمون من قوم موسى يازاء الهدادين منهم، فهناك ذكر أمة عادلة وهن ذكر أمة جاثرة... وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: «**فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا**» تميزاً وتخصيصاً حتى

يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق»^(١).

ومن ناحية أخرى إن في ذكر (منهم) تصريحاً بأن الظالمين كانوا منبني إسرائيل، ولم يذكر في البقرة (منهم) فلم يصرح بأنهم منهم تكريماً لهم. وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه كما هو ظاهر.

وقال في سورة البقرة: (فأنزلنا). وقال في سورة الأعراف: (فأرسلنا).

ذلك لأن الإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، قال تعالى في أصحاب الفيل:

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ تَرْمِيمُهُ بِحَجَارَقَ مَنْ سِجِّلَ ﴿ فَعَصَمُتُمْ كَعَصِيفٍ مَأْكُولُمْ ﴾ [الفيل]. وكل منها يناسب موطنه.

جاء في (التفسير الكبير): «لم قال في البقرة: ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْرًا ﴾ و قال في الأعراف: (فأرسلنا)؟

الجواب: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالأخرة»^(۱).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن لفظ الإرسال كثُر في الأعراف دون البقرة. فقد ورد لفظ الإرسال ومشتقاته في الأعراف ثلاثين مرة، وفي البقرة سبع عشرة مرة، فوضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها. جاء في (البرهان) للكرمانى أنه عبر بالإرسال في الأعراف دون البقرة «لأن لفظ الرسول والرسالة كثُرت في الأعراف، فجاء ذلك وفقاً لما قبله، وليس كذلك في سورة البقرة»^(۲).

وقال في سورة البقرة: ﴿ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ .

وقال في سورة الأعراف: (عليهم) وهو أعم من الأول. أي: أن العقوبة أعم وأشمل وهو المناسب لمقام التقرير.

وقال في سورة البقرة: ﴿ إِمَّا كَانُوا يَنْفَسُونَ ﴾ .

(۱) التفسير الكبير / ۳ / ۹۴.

(۲) البرهان ۹۰ وانظر تسهيل السبيل للبكري.

وقال في الأعراف: «**يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**» لأن الظلم أشد من الفسق، وهو المناسب لـ (إرسال) العذاب فذكر في كل سياق ما يناسبه.

وقال في سورة البقرة: «**وَلَذَا أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ**» فموسى هنا هو الذي استسقى ربه لقومه.

وقال في سورة الأعراف: «**إِذَا أَسْتَسْقَهُ قَوْمُهُ**» أي أن قوم موسى استسقوا موسى، والحالة الأولى أكمل وأبلغ في النعمة.

وقال في سورة البقرة: «**فَقُلْنَا أَضْرِبْ**».

وقال في سورة الأعراف: «**وَأَوْجَحَنَا إِلَى مُوسَى... أَنْ أَضْرِبْ**».

فإن القول المباشر من الله أكمل وأشرف من الإيحاء.

وقال في سورة البقرة: «**فَأَنْفَجَرَتْ**».

وقال في سورة الأعراف: «**فَأَنْبَجَسَتْ**».

وثمة فرق بين الانفجار والانبعاث فإن الانفجار للماء الكثير، والانبعاث للماء القليل. وكل تعبير يناسب موطنه. فإنه المقام في سورة البقرة مقام تعدد النعم كما ذكرنا. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إيجابه بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحياً، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبعاث⁽¹⁾ والله أعلم.

وثمة سبب آخر دعا إلى ذكر الانفجار في البقرة والانبعاث في الأعراف علاوة على ما سبق، ذلك أنه قال في البقرة: «**كُلُوا وَشَرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ**» فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك

(1) انظر معرك القرآن / ١ - ٨٧ - ٨٨ .

أن يبالغ في ذكر الماء في البقرة . جاء في (البرهان) للكرماني : « قوله : (فانفجرت) وفي الأعراف : (فانجست) لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانباجاس ظهور الماء وكان في هذه السورة : ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا﴾ فذكر بلفظ بلغ . وفي الأعراف ﴿كُلُوا مِن طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وليس فيه : (واشربوا) فلم يبالغ فيه^(١) .

وقيل : إن الماء أول ما انفجر كان كثيراً ثم قلّ بعصيائهم ، فعبر في مقام المدح بالانفجار وفي حالة الذم بالانباجاس .

ومن مقام التكريم في البقرة أنه جمع لهم بين الأكل والشرب فقال : ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا مِن زَكِيرَ اللَّهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف بل قال : ﴿كُلُوا مِن طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ . وقد قال مثل هذا القول في البقرة : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَى كُلُوا مِن طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَاكُمْ كَانُوا أَنفَسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ . وزاد عليه الجمع بين الأكل والشرب .

ومقام التكريم واضح بين ، جاء في (معترك الاقران) : «إن آية البقرة في معرض ذكر النعم عليهم حيث قال : ﴿يَبْقِي إِنْرَهِيلَ أَذْكُرُوا يَعْقِي أَلَّيْ أَنْعَتُ عَلَيْكُمْ﴾ فناسب نسبة القول إليه تعالى ، وناسب قوله : (رغداً) لأن النعم به أتم . وناسب تقديم : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ وناسب : (خطاياكم) لأنه جمع كثرة . وناسب الواو في : ﴿وَسَزِيدُ الْمُخْسِنِينَ﴾ لدلالتها على الجمع بينهما ، وناسب الفاء في (فكروا) لأن الأكل قريب من الدخول .

وآية الأعراف افتتحت بما به توبتهم وهو قوله : ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِنَّهَا كَمَا هُنَّ مَالِهُمْ﴾ ثم اتخاذهم العجل فناسب ذلك : (وإذ قيل لهم) وناسب ترك (رغداً) والسكن يجامع الأكل فقال : (وكروا) وناسب تقديم مغفرة الخطايا وترك الواو في (ستزيد) . ولما كان في الأعراف تبعيض الهدادين بقوله : ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

(١) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل .

ولم يتقدم في البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا، لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم. والإرسال أشد وقعاً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة. وختم آية البقرة بـ: (يفسقون)، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق فناسب كل لفظ . . .

كذا في البقرة: (فانفجرت) وفي الأعراف: (انجست) لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء»^(١).

فانظر جمال هذا التعبير وقدر أيكون هذا من كلام البشر؟

(١) معرك القرآن ١/٨٧ - ٨٩ وانظر درة التنزيل ١٤ - ٢٠ والبرهان للكرماني ٨٨ - ٩٠.

١ - قصة موسى في الأعراف والشراة

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ثُمَّ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ يَأْتِينَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِئِيهِ فَظَلَمُوا إِلَيْهَا فَأَنْظَرْرَ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الْمُقْسِدِينَ ﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَأْتِيَنَا إِلَيْنَا رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنَّ لَا أَقُولُ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْنَكُمْ بِيَتْلُوٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مِمَّ بَيْنَ إِشْرَاعِيْلَ ﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ حِشَّتِ يَأْتِيَنَا فَأَنْتَ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعَبَانُ مُبِينٌ ﴾ وَزَرَعْ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْجِكُمْ مِّنْ أَرْطُوكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ قَالُوا أَنْجِهُ وَأَخْاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ ﴾ يَا أَتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ وَجَاءَ السَّاحِرُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْغَلَبِينَ ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمَنِ الْمُقْرَبِينَ ﴾ قَالُوا يَأْمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ تُكُونَ مُنْعِنَ الْمُلْقِيْنَ ﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَاهُمْ سَاحِرُوْنَا أَعْيَنَ النَّاسِ وَأَسْرَهُوْهُمْ وَجَاءَهُ وَسِخِرٌ عَظِيمٌ ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا مُوسَىٰ أَنَّ أَلْقِ عَصَاكُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ نَوْقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فَعَلِيلُوا هُنَالِكَ وَأَلْقَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ وَالْقِيَ السَّاحِرُ سَاجِدِينَ ﴾ قَالُوا مَامَنَّا إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهُدُوْنَ ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَامِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرَمَكُمْ مَكْرَمُوْهُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِتُخْرُجُوْهُ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْقِيْتُمْ لَا صَلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَيْنَا مُنْتَهِيُّوْنَ ﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ مَامَنَّا يَأْتِيَنَا إِنَّا جَاهَنَّمَ رَبِّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَنَا مُسْلِيْنَ ﴾ .

* * *

وقال في سورة الشراة:

﴿وَلَذَنَادِيْ رَبِّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَنْقُوْنَ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنَّ يُكَذِّبُونَ ﴾ وَيَضْبِيْعُ صَدَرِيْ وَلَا يَسْطِلُقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيْ هَذِهِرَوْنَ ﴾ وَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ فَلَا خَافُ أَنَّ يَقْتَلُوْنَ ﴾ قَالَ كَلَّا فَأَدْهَبَنَا يَأْتِيَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِمُوْنَ ﴾ فَأَتَيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَنَّ أَرْسِلْ مَعَنَا بَقِيَ إِشْرَاعِيْلَ ﴾ قَالَ أَلَرْ تُرِيكَ فِيْنَا وَلِيْدَا وَلِيْتَ فِيْنَا مِنْ غُمْرَكَ سِينِيَ ﴾ وَفَعَلَتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلَتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَفِرِيْنَ ﴾ قَالَ فَعَلَنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾ فَفَرَرَتْ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّيْ مُحَمَّدا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسِلِيْنَ ﴾ وَتَلَكَ فَقْمَهُ تَنَاهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَدَنَّ بَيْنِ إِشْرَاعِيْلَ ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَمَا إِنْ كُنْتُ

مُؤْقِنَيْنَ ﴿١﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ أَلَّا تَأْتُونَ ﴿٣﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
 الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنُونٌ ﴿٤﴾ قَالَ رَبُّ الشَّرِيفِ وَالْمَعْرِيبِ وَمَا يَنْهَا إِنْ كُنْتُمْ تَقْفِلُونَ ﴿٥﴾ قَالَ لِئِنْ
 أَحْدَثْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِيْنَ ﴿٦﴾ قَالَ أُولَئِنَّوْ جِئْنَكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٧﴾ قَالَ فَإِنِّي
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨﴾ فَالْقَوْنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُبَّانٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ وَرَبِّ يَمْ دُفِيَ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
 لِلنَّاظِرِيْنَ ﴿١٠﴾ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ سِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا أَرْجِهُ وَآخُهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِيْنَ ﴿١٣﴾ يَا أَتُوَافَ بِكُلِّ سَاحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١٤﴾
 فَجَمِيعُ السَّاحِرَةِ لِمِيقَاتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿١٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ جُنُّمُمُونَ ﴿١٦﴾ لَعَلَّنَا نَتَّيَعُ السَّاحِرَةَ إِنْ
 كَانُوا هُمُ الْغَلَيْبِيْنَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّاحِرَةُ قَالُوا لِفَرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لَأْجَرًا إِنْ كَانَخْنُ الْغَلَيْبِيْنَ ﴿١٨﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمُقْرَبِيْنَ ﴿١٩﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقْوَا مَا أَنْتُ مُلْقُونَ ﴿٢٠﴾ فَالْقَوْأِجَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا يَعْرَةُ
 فِرْعَوْنَ إِنَّا لَعَنِ الْعَنَابِيْلِيْنَ ﴿٢١﴾ فَالْقَوْنِي مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٢٢﴾ فَالْقَوْنِي السَّاحِرَةُ
 سَيِّدِيْنِ ﴿٢٣﴾ قَالُوا إِمَّا نَبْرِيْتِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٢٤﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَنُوْنَ ﴿٢٥﴾ قَالَ مَا مَنَسَّمْ لَهُ فَبَلَّ أَنْ إِذَنَ لَكُمْ إِنْهُ
 لَكِيرِيْكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّاحِرَ فَلَسْوَقَ تَعَمُّ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيْكُمْ وَأَرْجَلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا صِلَبَتَكُمْ
 أَجْعَيْنَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ لِنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَبِيْلِيْنَ ﴿٢٧﴾ إِنَّا نَطَّمْ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا دِينَنَا خَطَّيْنَا إِنْ كُنَّا أَوْلَى
 الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٢٨﴾ .

* * *

إن موضوع القصة في سورة الأعراف هو تاريخبني اسرائيل ، بدءاً من قصة موسى مع فرعون إلى ما بعد ذلك من أحداث . أما موضوعها في الشعراء فهو ذكر قصة موسى مع فرعون بالتفصيل إلى غرق فرعون وقومه . ومعنى ذلك أن ما في سورة الشعراء إنما هو جانب مما في الأعراف . ونحن يعني هنا ذكر الجانيين المتشابهين ، اللذين يتضح فيهما الحشد الفني من النظر في أوجه التشابه والاختلاف بين النصوص في الموطنين .

إن القصة في سورة الشعراء تتسم بسمتين بارزتين هما :

١ - التفصيل في سرد الأحداث .

٢ - قوة المواجهة والتحدي .

وقد بنيت القصة على هذين الركنين، وجاءت كل ألفاظها وعباراتها لتحقيق هذين الأمرتين.

أما القصة في سورة الأعراف فقد بنيت على الاختصار من ناحية، كما أنها ليس فيها قوة المواجهة التي في الشعراء. وبملاحظة النصوص الواردة في كلا الموطنين يتجلى ما ذكرناه واضحاً.

تبدأ القصة في الأعراف بدعة موسى فرعون إلى الهدى بأقصر كلام: ﴿إِنِّي
رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنَّ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْنُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ
رَبِّكُمْ فَأَنْزَلْتُ مَعِيَ تَنْزِيلَ ﴾ .﴾

أما في الشعراء فقد بدأت بالأحداث السابقة لذلك، فقد بدأت بأمر الرب لموسى أن يذهب إلى فرعون ليبلغه دعوه ربه وليرسل معهبني إسرائيل. فأظهر موسى خوفه من أن يكذبه وأن لا ينطق لسانه. وذكر أن لهم عليه ذنباً حاف أن يقتلوه به وطلب أن يعينه بهرون. فطمأنه ربه بأنه معهما.

ثم ذكر المحاوره بينه وبين فرعون، وقد ذكر فرعون متنه عليه بتربته في بيته وأنه فعل ما فعل من قتل المصري، فأقر بذلك موسى وذكر من أمر فراره منهم ما ذكر.

ثم ذكر المحاجة بينهما في أمر الألوهية والربوبية. فقد سأله فرعون موسى قائلاً: ﴿وَمَارِبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .﴾

فأجابه موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُ مُوقِنِينَ ﴾ .﴾ [الشعراء]. فلا يرد عليه فرعون بالحجفة ولكن حاول أن يؤلب عليه من حوله ليسخروا منه. ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ إِلَّا تَسْمَعُونَ ﴾ .﴾ فيمضي موسى قائلاً: ﴿رَبِّكُنَّ وَرَبِّ
ءَاتَائِكُمُ الْأَوَّلَيْنَ ﴾ .﴾ فيضيق فرعون بموسى ويرمي بالجنون قائلاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي
أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْحُونٌ ﴾ .﴾

فيمضي موسى يعرض دعوته من دون أن يلتفت إلى ما رماه به من الجنون. فقد أدرك موسى أن فرعون حاول أن يصرفه عن الكلام في العقيدة إلى الانتصار لنفسه، فقوت الفرصة عليه ومضى فيما هو فيه فقال معرضاً بعقولهم: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُ تَقْلُوْنَ ﴾ .﴾، مما ملك من هذا؟!

فانظر كيف ناسب قوله: «إِن كُثُرْ تَعْقِلُونَ» ما رماه به من الجنون وعدم العقل.
ولما أعيته الحيلة وأعوزه المنطق توعده وتهده بالسجن قائلاً: «لَئِن أَخَذْتَ إِلَهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ السَّاجِدِينَ». (٢١)

ولم يشر إلى هذه المحاجة في الأعراف لأن القصة بنيت هناك على الاختصار
وعدم التفصيل كما ذكرنا. كما أنها ليس فيها مثل هذه القوة في المواجهة.

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين القصة في السورتين لتتبين كيف بنيت كل قصة
بحسب السياق الذي وردت فيه:

في الأعراف

في الشعراء

قال الملا من قوم فرعون	قال للملأ حوله
يريد أن يخرجكم من أرضكم	يريد أن يخرجكم من أرضكم
وأرسل في المداين	وابعث في المداين
بكل ساحر	بكل ساحر
قالوا لفرعون	قالوا لفرعون
إن لنا لأجرًا	إن لنا لأجرًا
وإنكم إذن لمن المقربين	وإنكم إذن لمن المقربين
وألقي السحرة ساجدين	وألقي السحرة ساجدين
قال فرعون آمنت به	قال آمنت به
فسوف تعلمون	فلسوف تعلمون
ثم لأصلبناكم أجمعين	والأصلبناكم أجمعين
قالوا إننا إلى ربنا منقلبون	قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون
وإليك إياض ذلك:	

١ - قال في الأعراف : « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فَرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحْرُ عَلَيْهِ ۝ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ». (٢٦)

وقال في الشعراء : « قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلَيْهِ ۝ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ سِرِّيْهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ». (٢٧)

فالقائلون في آية الأعراف هم ملأ فرعون . في حين أن الذي قال في آية الشعراء هو فرعون نفسه . وذلك أن المحاجة كانت معه . وفي الآية الأولى كان فرعون في مقام غطرسة الملك والترفع عن الكلام . وأما في آية الشعراء فإن انقطاعه أمام موسى أنساه غطرسة الملك وكبرياته ودفعه إلى أن يقول هو وأن يتكلم هو وأن يستعين بهمائه .

وزاد كلمة (بسحره) لمناسبة مقام التفصيل في الشعراء وللتاكيد على السحر فيها .

٢ - جاء في الأعراف : « قَالُوا أَتَجِهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ ۝ » وجاء في الشعراء : « قَالُوا أَتَجِهُ وَأَخَاهُ وَبَعَثَ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ ۝ » فقال في الأعراف : (وأرسل) وقال في الشعراء : (وباعث) وذلك لكثره تردد فعل الإرسال في الأعراف كما سبق أن ذكرنا ، فقد تردد فعل الإرسال ومشتقاته ثلاثين مرة في الأعراف ، وتردد في الشعراء سبع عشرة مرة ، فناسب ذلك ذكر الإرسال في الأعراف دون الشعراء .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المقام في الشعراء يقتضي ذكر الفعل (ابعث) دون (أرسل) ذلك أن البعث فيه معنى الإرسال وزيادة ، فإن فيه معنى الإثارة والإنهاض والتهييج .

جاء في (السان العربي) أن « البعث في كلام العرب على وجهين : أحدهما : الإرسال كقوله تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى ۝ » [الأعراف] معناه : أرسلنا . والبعث إثارة بارك أو قاعد تقول بعث البعير فانبث ، حل عقاله

فأرسله أو كان باركاً فهاجمه. وفي حديث حذيفة: أن للفتنة بعثات ... قوله:
 (بعثات) أي: إثارات وتهسيجات «^(١)».

وفي (مفردات الراغب) أن «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته
 فابعث» «^(٢)».

والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر بل يكون بإنهاض
 شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا
 يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ» ^{٨٦} وهذا إنما يكون يوم القيمة، ومعناه:
 يوم ننهض ونقيم، وليس معناه: يوم نرسل. ومن ذلك قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى
 الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذَا قَاتَلُوا لِتَبَرُّ لَهُمْ أَبْتَهَ أَنَّا مَلِكُكُمْ قُلْدَلِلٌ فِي سَكِينٍ
 اللَّهُ عَزَّ ذِيَّلَهُ» ^{٤٧} [البقرة].

ومعناه: «أنهض للقتال منا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه ونتهي إلى
 أمره» «^(٣)».

فأجاب الله طلبهم قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» ^{٢٩} ومعناه:
 أنهضه فيهم، وليس معناه: أنه أرسله إليهم.

فالبعث قد يكون فيه معنى الإرسال وقد يكون فيه معنى الإنهاض. فلما
 كان المقام في الشعراء مقام زيادة تحدى وقوة مواجهة قال ملا فرعون: «وَأَيَّعَثَ فِي
 الْمُدَّانِ حَشِيرِينَ» ^{٣٠} فلم يكتفوا بالإرسال بل أرادوا أن ينهضوا من المجتمع
 حاشرين علاوة على الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة وتهسيج الناس على
 موسى. وهذا المعنى لا يؤديه لفظ (أرسل). فاقتضى كل مقام اللفظة التي
 وردت فيه.

(١) لسان العرب (بعث).

(٢) مفردات الراغب ٥٢.

(٣) الكشاف ١ / ٢٨٧ ، البحر المحيط ٢ / ٢٥٥.

٣ - قال في الأعراف: «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلَيْمٍ ﴿١٧﴾» وقال في الشعراة: «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلَيْمٍ ﴿٢٧﴾».

فقد جاء في الأعراف بصيغة اسم الفاعل (ساحر)، وجاء في الشعراة بصيغة المبالغة (سحار)، وهذه الصيغة في الشعراة تتناسب مع المبالغة في قوة التحدى وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وتتناسب مع غضب فرعون البليغ واندفاعة للنيل من موسى. فهم أرادوا سحراً بليغاً في السحر لا مجرد ساحر. وهذا يتناسب أيضاً مع مقام التأكيد على السحر، فإن السحر أكد وكرر في الشعراة أكثر مما في الأعراف، فقد ذكر في الأعراف سبع مرات وفي الشعراة عشر مرات. فانظر كيف اقتضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

٤ - زاد في الشعراة قوله: «فَجُمِيعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتٍ يَوْمٌ مَعْلُومٍ ﴿٢٨﴾ وَقَيْلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ بُعْتَمَعُونَ ﴿٢٩﴾ لَعَنَا نَتَّيْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَنَّلِينَ ﴿٣٠﴾» وهو المناسب لمقام التفصيل ومقام التأكيد على السحر.

٥ - جاء في الأعراف: «وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَنَّلِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَيْسَ الْمُقْرَبُينَ ﴿٣٢﴾».

وجاء في الشعراة: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفَرْعَوْنَ إِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَنَّلِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمْ يَنْلِمُوا لَيْسَ الْمُقْرَبُينَ ﴿٣٢﴾».

فانظر إلى الفرق بين التعبيرين، وكيف أن كل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه.

أ - قال في الأعراف: (قالوا) وقال في الشعراة: (قالوا لفرعون).

فذكر في الشعراة أنهم قالوا لفرعون، ولم يذكر في آية الأعراف أنهم قالوا له، وكل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه، وذلك أنه ذكر في الأعراف أن ملأ فرعون هم الذين قالوا: «إِنَّ هَذَا سَهْرٌ عَلَيْمٌ ﴿٢٠﴾». وذكر في الشعراة أن فرعون هو الذي قال ذلك وأنه هو الذي تولى هذه المهمة بنفسه، فناسب ذلك أن يواجهوا فرعون بالقول، بخلاف ما في الأعراف.

ولا يفهم من هذا أن ثمة تناقضاً بين الموقفين، فقد قال فرعون هذا القول وردده ملؤه، فذكر القول عنه مرة وذكره عن الملاً مرة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق.

ب - قال في الأعراف: «**فَالْأُولُو إِنَّ لَنَا أَجَراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**» (١١٧). وقال في الشعرا: «**فَالْأُولُو لِفَرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا أَجَراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**» (١١٨).

فقد حذف همزة الاستفهام في الأعراف وذكرها في الشعرا، وذلك أنه لما كان المقام مقام إطالة ومباغة في المحاجة جيء بهمزة الاستفهام لتشترك في الدلالة على قوة الاستفهام والتصریح به.

ففي الآية الأولى أضمر المقول له وأضمر همزة الاستفهام، وفي الثانية صرخ بالمقول له وبهمزة الاستفهام.

ج - قال في الأعراف: «**قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ**» (١١٩). وقال في الشعرا: «**قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمْنَ الْمُقْرَبِينَ**» (١٢٠).

فزاد كلمة (إذن) في الشعرا لتدل على قوة الوعد وتوكيده وربط تقریبهم بالغلبة، وذلك أن (إذن) حرف جواب وجاء، وذكرها يدل على أن ما بعدها مشروط حصوله بحصول ما قبلها. وذلك نحو أن يقول لك شخص: (سأزورك) فتقول له: إذن أكرمك.

ف (إذن) تدل على أن إكرامك له مشروط بالزيارة. والمعنى: إن زرتني أكرمتكم وإلا فلا.

ونحوه قوله تعالى: «**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٌ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَيْهِ بِمَا خَلَقَ**» (١٢١) [المؤمنون]. والمعنى: إنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق. فـ (إذن) أفادت معنى الشرط. والمجيء بها في آية الشعرا أكد اشتراط تقریب السحرة بالغلبة. وذلك أنهم سألوا فرعون: أين غلبنا أعطينا أجراً؟ فقال لهم: نعم وإنكم إذن لمن المقربين؟ فذكر الشرط في السؤال وفي الجواب. وأما في الأعراف فكان الجواب ما يأتي: «**نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ**» (١٢٢).

فلم يُعد الشرط في الجواب، وإنما اكتفى بالشرط الذي في السؤال. ولا شك أن إعادة الشرط في الجواب تفيد التوكيد وزيادة الاهتمام. وهذا نظير أن يقول لك شخص: إنْ فعلت ذاك أكرمني؟ فنقول له: نعم أو تقول له: نعم إنْ فعلت ذاك.

فأنت كررت الشرط في جوابك الثاني للاهتمام به وتوكيده، بخلاف الجواب الأول. وهذا التكرار يدل على لهفة فرعون على غلبة موسى من ناحية، ومن ناحية أخرى إن مقام التحدي وقوة المواجهة في الشعراً اقتضى ذكرها فيها بخلاف الأعراف.

ثم إنهم لما أكدوا السؤال بزيادة الهمزة في الشعراً أكد لهم الجواب بذكر (إذن). وعلاوة على ذلك فإنه ذكرها مناسب لمقام التفصيل في الشعراً دون مقام الأعراف المبني على الإيجاز والاختصار.

٦ - أقسم السحرة بعزة فرعون في الشعراً. قال تعالى: ﴿فَأَلْقُوا حِجَالَهُمْ وَعَصِّيَّهُمْ وَقَالُوا يَعْزَّزُ فِرْعَوْنَ إِنَّا تَعْنَى الْغَنَابِوْنَ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك أن المقام هنا مقام الانتصار لعزة فرعون التي نال منها موسى في مواجهته ومحاجته له. وهم في مقام التزلف إليه والحظوظة برضاه.

ثم انظر كيف ذكر الحال والعصي في الشعراً وهو المناسب لمقام التفصيل فيها، ولم يذكر ذلك في الأعراف لأن المقام مقام إجمال.

٧ - ثم انظر بعد تأكيد الوعود وتنمية السحرة بالقربى منه والقسم بعزمته كيف انقلب الأمر فجأة من دون مهلة: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤١﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَدِّيْدِيْنَ ﴿٤٢﴾ [الشعراً].

هكذا بالترتيب والتعقيب من دون فاصل زمني بين اللقف والسجود: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَدِّيْدِيْنَ ﴿٤٤﴾﴾.

وهذا المشهد هو المناسب لقوة التحدي، فإن سرعة النصر الحاسم بعد قوة التحدي هو المناسب لمثل هذا المقام.

فِي حَيْنٍ لَا تَجِدُ مِثْلَهُ تَعْقِيبٌ فِي الْأَعْرَافِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ أَنَّ الَّتِي عَصَاكُمْ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِيكُنَّ ﴾ [١٦] فَوْقَ الْحَقِّ وَبِطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ فَعَلِمُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَبُوا صَنْفَيْنِ ﴾ [١٧] وَاللَّهُ أَكْبَرُ السَّمَاءُ سَجِيدَيْنِ ﴾ [١٨] .

ولا ندري كم مضى من الوقت بين انقلابهم صاغرين وسجودهم، فإنه جاء باللواو، واللواو لا تفيد التعقّب كما هو معلوم، ولم يأت بالفاء كما فعل في الشعراء، وذلك لأن الموقف ليس فيه تلك المواجهة وذلك التحدي، فجعل كل تعبير في الموطن اللائق به.

وليس ثمة تناقض بين القولين فإن ألفاء لا تناقض الواو وإنما هي واقعة في أحد أزمنتها المحتملة.

فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الألفاظ والحراف.

- قال في الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَمْتَهُ بِهِ، قَبْلَ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ﴾^{١١٣} وقال في الشعراء: ﴿قَالَ مَا أَمْتَهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ﴾^{٤٤} ومعنى (آمنت به): آمنت بالله. ومعنى (آمنت له): انقدتم لموسى وصدقتم به.

فالضمير في (به) يعود على الله وفي (له) يعود على موسى . وذلك لأن موسى أغضبه في الشعراء أكثر مما في الأعراف ، فقد نال منه بالقول وأفحمه بالحجـة ، ولذا كان تصديقـهم به أكثر إغـاظـة له ، فذكرـه فيـ الشـعـرـاءـ وـلـمـ يـذـكـرـهـ فيـ الأـعـرـافـ .

٩ - قال في الشعراء: ﴿إِنَّمَا لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (٤٨) ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك لأن الكلام في الشعراء كان على موسى فإنه قال: (أمنت به). أي لموسى، والكلام في الأعراف كان على الله، فإنه قال: (أمنت به) وواضح أنه لا يصح أن يقال مثل هذا القول في الأعراف، فإنه لا يصح أن يقال في الله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (٤٨). وهو يدل أيضاً على شدة غضبه من موسى.

١٠- قال في الأعراف: «فَسُوقَ تَعْلَمُونَ» (١١٧). وقال في الشعراء: «فَسُوفَ تَعْلَمُونَ» (٦٩) فاًكِد تهديده باللام، وذلك لأن الموقف موقف غضب زائد وتميز من الغنظ.

١١- قال في الأعراف: ﴿لَا قُطْعَنَّ أَيْدِيهِمْ وَأَذْبَلُكُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَا صِلَبُكُمْ أَجْعَبَهُمْ﴾ .

وقال في الشعراء: ﴿لَأُقْطِعَنَّ أَتَيْكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَّتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ .
 فأعطاهم مهلة في الأعراف ذلك أنه قال: ﴿ثُمَّ لَأُصِلَّتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .
 (وثم) تفيد التراخي، ولم يعطهم مهلة في الشعراء وذلك لزيادة غضبه
 واحتراق قلبه من الغيظ.

١٢ - قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ . وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لَا
 ضَيْرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ . فزاد (لا ضير) في الشعراء وهو المناسب لمقام
 التفصيل من ناحية، ثم إنه المناسب لمقام التهديد الشديد والوعيد
 المؤكد. فإن تهديده في الشعراء أشد وأكد مما في الأعراف، فلو أنهم
 قالوا في الأعراف: (لا ضير) دون الشعراء لظن أنهم هابوا التهديد الشديد
 فلم ينطقوا بما يدل على عدم الاكتتراث، إذ من المعاد أن يرهب الإنسان
 التهديد الكبير دون الصغير، أما إذا استهانوا بالتهديد الكبير ولم يكرثوا
 به فإن ذلك يدل - ولا شك - على أنهم أقل اكتتراثاً بالتهديد الأدنى وأقل
 رهبة له. فناسب هذا أن يقولوه في موطن التهديد الشديد دون الأدنى.

وقد تقول: ولماذا لم يذكروه في الموطنين ؟

والجواب: إن ذكره في موطن التهديد الكبير يعني عن ذكره في الموطن
 الأدنى، وذلك من باب الأولى فيكون كأنهم ذكروه في الموطنين.

ثم إن ذكره في الموطنين مدخل بالإيجاز، إذ إن ذلك مفهوم من الموطن
 الأول. ثم إن بناء القصة في الشعراء قائم على التفصيل، وبناءها في الأعراف
 قائم على الاختصار، وذلك يقتضي أن يفصل ما يقتضي التفصيل، ويختصر ما
 هو معلوم وما لا حاجة لذكره؟ فاقتضى ذلك أن يذكر القول في الشعراء الذي
 هو مقام الرهبة الشديدة ومقام التفصيل دون الأعراف الذي هو مقام التهديد
 الأدنى ومقام الاختصار.

ثم إن ذكره في الموطنين على السواء معناه أن المقامين متتشابهان ولا فرق
 بينهما، ومن المعلوم أنهما ليسا متتشابهين، فاقتضى أن يذكر في كل موطن ما
 يتناصف معه من الأمور، فوضع كل تعبير في مكانه اللائق به تماماً.

ثم يمضي في الشعراء في غير الوجهة التي يمضي بها في الأعراف، فيمضي في الأعراف لذكره أحوال بني إسرائيل وتاريخهم والآيات التي أروها ومعاصيهم واستهانهم بالنعم والآيات.

ويمضي في الشعراء لنهاية فرعون ونجاة بني إسرائيل.

وغني عن القول أن اختيار الألفاظ والعبارات كان مقصوداً لخدمة الناحية الفنية في أدق معانيها وأكمل صورها.

تفسير سورة (التين)

ولنضرب مثلاً في تفسير سورة من قصار السور ونبين طرفاً مما فيها من أمور فنية ولتكن هذه السورة سورة التين.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْتَّيْنَ وَالْزَّيْتُونَ ﴾١﴿ وَطُورِ سَيْنَاءَ ﴾٢﴿ وَهَذَا الْبَلْدَ الْأَمِينَ ﴾٣﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾٤
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَدْلَيْنَ ﴾٥﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ عَيْنُ مَنْتُونٍ ﴾٦﴿ فَمَا يَكِيدُ بَكَ بَعْدَ
بِالْدِينِ ﴾٧﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ الْخَلَقِينَ ﴾٨﴾.

ابتدأت السورة بالقسم بالتين والزيتون. والتين والزيتون قد يكون قصد بهما الشجران المعروفة، وقد ذكر المفسرون لاختيار هذين الشجرين للقسم بهما أسباباً عدة، فقد ذكروا أنه أقسم بنوعين من الشجر، نوع ثمره ليس فيه عجم، نوع فيه عجم، وأنه ورد في الأثر أن التين من شجر الجنة، فقد روي أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم». وقد ذكر أن آدم خصف من ورقه ليستر عورته حين انكشفت في الجنة.

وأما الزيتون فإنه شجرة مباركة كما جاء في التنزيل العزيز.

وقد ذكروا أموراً أخرى لا داعي لسردها هنا.

ولا ندري هل لبدء السورة بالقسم بالشجر الذي يذكر أن له أصلاً في الجنة يعني التين له علاقة بعدد آيات هذه السورة أو لا؟ فإن عدد آيات هذه السورة ثمانية وهن بعدد أبواب الجنة. قد يكون هذا القول خرضاً محسناً وأنا أميل إلى ذلك، ولكن قد وجدنا شيئاً من أنواع هذه العلاقات في القرآن. فقد تكرر - كما سبق أن ذكرنا - قوله: ﴿فِيَّ أَلَّا رَيْكَمَا تَكِيدَبَان﴾ [الرحمن] عند الكلام في وصف الجنة ثماني مرات بعد أبواب الجنة، وحصل ذلك مرتين في السورة، وتكرر في الوعيد سبع مرات بعد أبواب جهنم ابتداء من قوله: ﴿سَنَفَرُكُمْ كُمْ أَلَّهَ أَثْقَلَان﴾^(١) [الرحمن].

(١) انظر ملاك التأويل ٨٨٨/٢

وقالوا : إن سورة القدر ثلاثة كلمة بعد أيام شهر رمضان ، وإن قوله : (هي) في قوله تعالى : « سَلَمٌ هِيَ حَنَّ مَطْلَعَ الْفَجْرِ » هي الكلمة السابعة والعشرون ، وهي إشارة إلى أن هذه الليلة هي الليلة السابعة والعشرون من رمضان .

وعلى أي حال فإن كثيراً من هذه العلاقات ربما كانت موافقات والله أعلم .

وقيل : إن المقصود بالتين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور زيتنا وطور زيتا لأنهما منبتا التين والزيتون^(١) .

والعلاقة بين التين والزيتون وما بعدهما ليست ظاهرة على هذا إلا بتتكلف .
وقيل : « هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام . والثاني : طور سينين وهو طور سيناء الذي كلام الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم »^(٢) .

وجاء في (التبیان فی أقسام القرآن) : « فأقسام سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة . فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس ... وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم . كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكلمته موسى ، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه .

ثم أقسام بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم الأنبياء ورسله سيد ولد آدم . وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه . ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى : (جاء الله من طور سيناء ، وأشار من ساعير ، واستعلن من فاران) .

فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ، ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم »^(٣) .

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ٩ ، روح المعانى ٣٠ / ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٢٦ .

(٣) التبیان ٥٣ - ٥٥ .

وهذا هو الراجح فيما أرى لأن المناسبة بين هذه المحال المقصّم بها ظاهرة على هذا.

ثم لننظر إلى ترتيب هذه الأشياء المقصّم بها.

فقد بدأ بالتين فالزيتون. والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة قال تعالى: «يُوَدُّ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَّكَةٍ زَيْتُونٌ» [النور] وهي فاكهة من وجه إِدَامٌ من وجه وزيتها يُسْتَعْمَلُ في إنارة المصابيح والسرّاج.

ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم رب عليه موسى وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز^(١).

قال تعالى: «وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيِّنَاءَ تَبَتُّ بِالْدُّهُنِ وَصَبَغَ لِلْأَكْلِينَ» [المؤمنون] وهذه الشجرة هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين. قال الواحدى: «ومفسرون كلهم يقولون إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون»^(٢).

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة: مكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين^(٣). وهو أفضل البقاع عند الله وأحبها إليه كما جاء في الحديث الشريف، فتدرجَ من الفاضل إلى الأفضل ومن الشريف إلى الأشرف.

فأنت ترى أنه تدرج من التين إلى الزيتون إلى طور سينين إلى بلد الله الأمين. فختم بموطنه رسالة الخاتمة أشرف الرسالات.

وقد وصف الله هذا البلد بصفة (الأمين) وهي صفة اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يسُدُّ مسداً لها وصف آخر.

فالأمان وصف يحتمل أن يكون من الأمانة، كما يحتمل أن يكون من الأمان. وكل المعنيين مراد.

(١) انظر في ظلال القرآن / ٣٠ / ١٩٣ .

(٢) انظر فتح القدير / ٣ / ٤٦٣ ، روح المعاني / ١٨ / ٢٢ - ٢٣ .

(٣) روح المعاني / ٣٠ / ١٧٣ .

فمن حيث الأمانة وُصفَ بالأمين لأنَّه مكانُ أداء الأمانة وهي الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدي في مكانِ أمين. فالرسالة أمانة نزل بها الروح الأمين وهو جبريل، وأدَّاها إلى الصادق الأمين وهو محمد، في البلد الأمين وهو مكة. فانظر كيف اختير الوصف هنَا أحسنَ اختيار وأنسبه.

فالأمانة حملها رسولٌ موصوف بالأمانة فأدَّاها إلى شخص موصوف بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة. جاء في (روح المعاني): «وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يُؤتَمِنُ عليه»^(١).

وأما من حيث الأمان فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمن قبل أن يكون بلداً وبعد أن صار بلداً فقال أولاً: «رَبِّ أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا»^(٢) [البقرة] وقال فيما بعد: «رَبِّ أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا»^(٣) [إبراهيم] فهو مدعو له بالأمن من أبي الأنبياء. وقد استجاب الله سبحانه هذه الدعوة قال تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا»^(٤) [آل عمران]. وقال: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمِنًا»^(٥) [البقرة].

فـ(الأمين) على هذا (فعيل) للعبارة بمعنى الآمن. ويحتمل أن تكون (الأمين) فعلياً بمعنى مفعول، مثل: جريح بمعنى مجروح وأسير بمعنى مأسور، أي: المأمون، وذلك لأنَّه مأمون العوائل^(٦).

جاء في (روح المعاني): «الأمين فعال بمعنى فاعل أي الآمن من أُمُنَ الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين... وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يُؤتَمِنُ عليه... وأما بمعنى مفعول أي: المأمون من (أمنه) أي: لم يَخْفُهُ، ونسبته إلى البلد مجازية. والمأمون حقيقة الناسُ أي: لا تخاف غوايهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال أي: المأمون فيه من الغوائل»^(٧).

وجاء في (البحر المحيط): «وأمين للعبارة أي: آمنٌ مَنْ فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان، أو من أُمُنَ الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين كما يحفظ

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٣، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠، الكشاف ٣ / ٣٤٨.

(٣) روح المعاني ٣٠ / ١٧٣.

الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمه لأنه مأمون
الغوايل «^(١)».

وقد تقول: ولم اختار لفظ (الأمين) على (الأمن) الذي تردد في مواطن أخرى من القرآن الكريم؟ قال تعالى: «أَوْلَمْ نُسْكِنْ لَهُمْ حَرَماً مِّمَّا شَاءُوا» ^{٥٩} و قال: «أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً مِّمَّا شَاءُوا وَنَسْخَطْنَا مِنْ حَوْلِهِمْ» ^{٦٧}.

والجواب: أنه باختياره لفظ (الأمين) جمع معنوي الأمان والأمانة، وجمع معنوي اسم الفاعل واسم المفعول، وجمع الحقيقة والمجاز، فهو أمين وأمن ومأمون، وهذه المعاني كلها مراده مطلوبة.

ثم انظر إلى جواب القسم وهو قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمِ [التي]نَّ» كيف تناسب مع المقصَّم به تناسباً لطيفاً ولاءمه ملاءمة بدعة. فإنه أقسم بالرسالات على بداية الإنسان ونهايته ^(٢) فقال: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمِ [التي]نَّ» وهذا بدايته، ثم قال: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ» ^{٦٨} [التي]نَّ وهذه نهايته.

«ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم من أجاب ومنهم من أبي، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين» ^(٣) والآخرين وهم المؤمنون الذين لهم أجر غير ممنون.

ولما كانت الرسالات إنما هي منهج للإنسان وشريعة له، كان الجواب يتعلق بالإنسان طبيعة ومنهجاً، فذكر طبيعة الإنسان في قوله: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمِ [التي]نَّ» وذكر المنهج في قوله: «إِلَّا الَّذِينَ مَأْمُونُوا وَعَلُوا الصَّلَاحَتِ» ^{٦٩} [التي]نَّ.

وفي هذه إشارة إلى أن المنهج لا بد أن يكون ملائماً مع الطبيعة البشرية غير منافق لها وإلا فشل.

فكان الجواب كما ترى أوفى حواب وأكمله وأنسب شيء لما قبله وما بعده.

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٩٠ وانظر الكشاف ٣ / ٣٤٨ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ٥٥ .

(٣) التبيان ٥٦ .

ثم انظر من ناحية أخرى إلى قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَفْoيِيرٍ» ﴿٤﴾ فإنَّه أَسْنَدَ الْخَلْقَ إِلَى نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْنِهِ لِلْمُجْهُولِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَوْطِنٍ بَيْانٍ عَظِيمٍ قَدْرَتِهِ وَحَسْنَ فَعْلِهِ وَبِدِيعِ صَنْعِهِ فَأَسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ خَطِّاً وَاضْعَافِ، فَإِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ وَفِي مَقَامِ النِّعَمَةِ وَالْتَّفَضْلِ يَسْنَدُ الْأَمْرَ إِلَى نَفْسِهِ قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ حَلَقَنَا أَمْمَةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهُدُونَ بِالْأَعْرَافِ» ﴿١٨﴾ [الأعراف]

وقال: «أَوَلَئِرَبُوا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مَمَّا عَمِلْتُ أَيْدِيهِنَّا أَنْعَمْنَا فَهُمْ لَهُمَا مَالِكُوْنَ ﴿٦﴾ وَذَلِكَنَّهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوْهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُوْنُ ﴿٧﴾ [يس].

فانظر كيف أَسْنَدَ الْخَلْقَ فِي مَقَامِ النِّعَمَةِ وَالْتَّفَضْلِ إِلَى ذَاتِهِ فِي حِينِ قَالَ: «وَخَلَقَ الْإِنْسَنَ ضَعِيفًا» ﴿١٩﴾ [النساء] بِيَنَاءِ الْفَعْلِ لِلْمُجْهُولِ لَمَّا كَانَ الْقَصْدُ بَيْانَ نَقْصِ الْإِنْسَانِ وَضَعْفِهِ. وَقَالَ: «خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَجَلٍ» ﴿٢٠﴾ [الأنباء] وَقَالَ: «إِنَّ الْإِنْسَنَ خُلِقَ هَلْوَعًا» ﴿٢١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَرَوْعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنْوَعًا ﴿٢٢﴾ [المعارج].

فانظر إِلَى الْفَرْقِ بَيْنِ الْمَقَامَيْنِ. وَقَدْ مَرَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي مَوْطِنٍ سَابِقٍ.

هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ أَسْنَدَ الْخَلْقَ إِلَى نَفْسِهِ لَأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامٌ بِيَانِ مَنْهَجِ الْإِنْسَانِ، فَأَرَادَ أَنْ يَبْيَنَ أَنَّ وَاسْطَاعَ الْمَنْهَاجُ لِلْإِنْسَانِ هُوَ خَالِقُ الْإِنْسَانِ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا هُوَ أَنْسَبُ لَهُ، وَلَوْ بَنِيَ الْفَعْلُ لِلْمُجْهُولِ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ صِرَاطَةً.

فَأَنْتَ تُرِي أَنَّ إِسْنَادَ الْخَلْقِ إِلَى ذَاتِ اللَّهِ الْعُلِيَّةِ أَنْسَبُ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ. وَقَدْ تَقَوَّلَ: وَلِمَ أَسْنَدَ الرَّدُّ أَسْفَلَ سَافَلِينَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: «ثُمَّ رَدَدَتْهُ أَسْفَلَ سَافَلِينَ ﴿٢٣﴾ [التين] وَهَذَا لَيْسُ مَقَامٌ تَفْضُلُ وَلَا بَيَانٌ نِعَمَةٌ؟

فَنَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْإِسْنَادَ أَنْسَبُ شَيْءٍ هُنَّا وَلَا يَلِيقُ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَنْ بِيَدِهِ الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ أُولَآ وَآخِرَآ لَا مَعْقُوبٌ لِحُكْمِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي الْبَدَايَةِ وَالْخَتَامِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَى ذَاتِهِ الْعُلِيَّةِ.

أَلَا تُرِي أَنَّهُ لَوْ قَالَ: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَفْوِيْرٍ ثُمَّ رَدَّ أَسْفَلَ سَافَلِينَ) لَكَانَ يَفْهَمُ ذَلِكَ أَنَّ هُنَّا رَادَّاً غَيْرَهُ يَفْسُدُ خَلْقَهُ وَيَهْدِمُ مَا بَنَاهُ؟

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَفْوِيْرٍ» أَنَّهُ صَيْرَهُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى وَالْإِدْرَاكِ وَفِي كُلِّ مَا هُوَ أَحْسَنُ^(١) مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

(١) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٥، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

وقال بعدها: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾» فجاء بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، لأن كونه أسفل سافلين لا يعقب خلقه بل يتراخي عنه في الزمن، فهي من حيث الوقت تفيد التراخي، كما أنها من حيث الرتبة تفيد التراخي، فرتبة كونه في أحسن تقويم تراخي وتبعد عن رتبة كونه في أسفل سافلين، فشمة بَوْنُ بعيد بين الرتبتين فأفادت (ثم) هنا التراخي الزمانى والتراخي في الرتبة.

واختلف في معنى «أَسْفَلَ سَافِلِينَ» فذهب قسم من المفسرين إلى أن المقصود به أرذل العمر، والمراد بذلك: الهرم وضعف القوى الظاهرة والباطنة وذهول العقل حتى يصير لا يعلم شيئاً^(١).

ومعنى الاستثناء على هذا أن الصالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع^(٢) يُكتب لهم في وقت شيخوختهم كما كان يكتب لهم في وقت صِحَّتهم وقوتهم. وفي الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا رُدَّ لِأَرْذَلِ الْعُمُرِ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قُوَّتِهِ» وذلك أجر غير ممنون^(٣) أي: غير منقطع.

وذهب آخرون إلى أن المقصود به أسفل الأماكن السافلة وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار.

ومعنى الاستثناء على هذا ظاهر، فالصالحون مستثنون من الرد إلى ذلك.

وركز بعضهم على الخصائص الروحية. جاء في (ظلال القرآن): «والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. فهو مهياً لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين... بينما هذا الإنسان مهياً حين يتৎكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ». حيث تصبح البهائم أرفع وأقوم لاستقامتها على فطرتها...».

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، فهو لاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح. ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها»^(٤).

(١) روح المعاني / ٣٠، ١٧٦، البحر المحيط / ٨، ٤٩٠.

(٢) الكشاف / ٣، ٣٤٨.

(٣) البحر المحيط / ٨، ٤٩٠.

(٤) في ظلال القرآن / ٣٠، ١٩٤.

وظاهر أن معنى الآية يتسع لكل ما ذكره، وهي تفيد أيضاً أن حياة غير المؤمن نكد وغم، وعيشة ضنك وشقاء قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَتَحْسِرُهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه] وقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ مِنَ الْخَرَقِ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْفِفُهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهُويْ بِهِ الْأَرْبَعُ فِي مَكَانٍ سَجِيقٍ﴾ [الحج].

فحياة هؤلاء هابطة سافلة بل هم في أسفل سافلين. ثم لننظر إلى الاستثناء وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ﴾ [التين] فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين من آمن وعمل صالحًا ولم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ﴾ وذلك لاختلاف المواطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما ينجي من دركات النار، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ﴾ فيبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنعه من الخسران الذي يفوته فيما لو توافق بالحق وبالصبر فإن كل من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله، فانظر الفرق بين المواطنين وبين الاستثناءين.

جاء في (التبیان): «وتأمل حکمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [التین] فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ﴾ [العصر] ولما قال: ﴿تَعَرَّدَتْهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين] وسَعَ الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ﴾ [العصر] ولم يقل: (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان. وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب. فهؤلاء إذا توافقوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب

عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به. وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء^(١).

ثم قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٌ﴾ [التين] قيل: ومعنى غير ممنون غير منقوص ولا منقطع، وقيل: معناه غير مقدر بالمن عليهم^(٢). والحق أن كل ذلك مراد وهو من صفات الثواب، لأنه يجب أن يكون غير منقطع ولا منغصاً بالمنة^(٣).

فقال: (غير ممنون) ليجمع هذه المعاني كلها، ولم يقل: غير مقطوع ولا نحو ذلك فيفيد معنى دون آخر.

ثم انظر كيف زاد الفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٌ﴾ ولم يفعل مثل ذلك في آية شبيهة بها وهي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّدِيقَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٌ﴾ [الإنشقاق] بدون فاء. وذلك لأن السياقين مختلفان. فسياق سورة الإنفاق أكثره في ذكر الكافرين، وقد أطال في ذكرهم ووصف عذابهم فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ وَرَأَهُ ظَهِيرَةً فَسَوْفَ يَدْعُوَنَا بُورُوا وَيَصِلُّ سَعِيدًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ طَنَّ أَنَّ لَنْ يَحْجُرَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الإنشقاق] ثم قال مقرعاً للكافرين مؤنباً لهم: ﴿فَنَاهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَذِقُوا عَنْهُمُ الْقَرْءَانَ لَا يَسْجُدُونَ بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوَعِّدُونَ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّدِيقَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٌ﴾ [الإنشقاق].

في حين لم يزد في الكلام على المؤمنين عن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ يَسِيهِهِ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقُبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الإنشقاق].

فانظر كيف أطال في وصف الكافرين وأعمالهم وعقابهم، وأوجز في الكلام على المؤمنين، ولذا حذف الفاء من جزاء المؤمنين في سورة الإنفاق مناسبة للإيجاز. في حين لم يذكر الكافرين في سورة التين ولم يزد على أن قال: ﴿رَدَدَتْهُ أَسْقَلَ سَقِيلَيْنِ﴾ يعني الإنسان، وهو غير صريح في أن المقصود به الكافرون أو غيرهم كما أسلفنا.

(١) التبيان . ٩١

(٢) انظر البحر المحيط / ٨ ، ٤٩٠ ، روح المعاني / ٣٠ ، ١٧٦ .

(٣) التفسير الكبير / ٣٢ ، ١١ .

ثم انظر إلى كل من سورتين كيف تناولت الكلام على الإنسان. فقد بدأت سورة الإنشقاق بذكر كدح الإنسان ومشقته ونصبه: ﴿يَكْأبُهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَيْكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾^(١) وتوعده ربُّه برُوكب الأهوال والشدائد المتابعة التي يفوق بعضها بعضاً في الشدة فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾^(٢) ﴿وَلَيْلٍ وَمَا وَسَقَ﴾^(٣) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا أَسَقَ﴾^(٤) لِتَرْكِينَ طَبَقًا عَنْ طَبِيقِ﴾^(٥).

في حين بدأ في سورة التين بتكرير الإنسان فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمِ﴾^(٦) فناسب ذلك تأكيد استمرار أجره وعدم تنفيذه، وذلك بزيادة الفاء في التين دون الإنشقاق.

ثم قال بعدها: ﴿فَمَا يَكْدِبُكَ بَعْدُ إِلَّا تَنِين﴾^(٧). والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالجزاء بعد هذا الدليل الواضح؟ والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدریجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي مع تحويله من حال إلى حال، أوضح دليل على قدرة الخالق على الحشر والنشر^(٨) فإن الذي خلقك أقدر على أن يعيده بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه خلقك الأول^(٩).

فانظر جلاة ارتباط هذا الكلام بما قبله.

ثم انظر كيف استدل على الجزاء بالأدلة النقلية والعقلية. فالدليل النقلاني هو ما أخبرت به الرسالات السماوية، وقد ذكر من هذه الرسالات كبراهما وهي رسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والدليل العقلي هو الاستدلال بخلق الإنسان في أحسن تقويم وتدریجه في مراتب الزيادة والتقصّ.

ثم انظر كيف اختار كلمة (الدين) ولم يختار كلمة الجزاء أو الحساب أو النشور ونحوها، وذلك لما تقدم ذكر مواطن الرسالات ناسب ذلك ذكر الدين، لأن هذه أديان، ولأنه قد يراد بذلك معنى (الدين) علاوة على معنى الجزاء. والمعنى أي شيء يجعلك مكذباً بصحة الدين بعد هذه الأدلة المتقدمة؟ فالذي خلقك

(١) الكشف / ٣، التفسير الكبير / ٣٢ / ١٢ .

(٢) التبيان . ٦١

في أحسن تقويم يرسم لك أحسن منهج تسعد به في الدنيا وفي الآخرة. فجمعت كلمة (الدين) معنى الدين ومعنى الجزاء في آن واحد، ولو قال: فما الذي يكذبك بالجزاء لم يجمع هذين المعنين.

فأنت ترى أنه اختار كلمة (الدين) لتقع في موقعها المناسب لها تماماً. ثم قال بعدها: «أَتَيْسَ اللَّهَ بِإِحْكَمَ الْحَاكِمِينَ» . و(أحكام الحاكمين) يحتمل أن يكون معناه: أعظم ذوي الحكمة وأحسنتهم تدبيراً، ويحتمل أن يكون معناه، أقضى القاضين، لأن (حكم) يحتمل أن يكون من الحكم، ويحتمل أن يكون من القضاء وهو الفصل في المحاكم.

وعلى الوجه الأول يكون المعنى: أليس الذي فعل ذلك بأحكام الحاكمين صُنعاً وتدييراً وأن حكمته بالغة لا حدود لها. وإذا تبين أن الله سبحانه أحكم الحاكمين - وهو يَبْيَنُ - تعينت الإعادة والجزاء لأن حكمته تأبى أن يترك الإنسان سدى ولا يحاسب على أعماله، فكيف يليق بأحكام الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءاته؟ وهل ذلك إلا قبح في حكمه وحكمته^(١)؟

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أليس الله بأقضى القاضين^(٢) فيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، كما قال تعالى: «أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» [الزمر].

فانظر قوة ارتباط هذه الآية بما قبلها على كلا الوجهين، فإن حكمته تقضي الإعادة والجزاء. والجزاء والفصل بين الخلائق يقتضي وجود قاضٍ، بل يقتضي وجود أقضى القاضين.

فجمع بهذه العبارة معنين: القضاء والحكمة، بل لقد جمع معاني عدة بهذا التعبير، إذ كل لفظ من (أحكام الحاكمين) يحتمل أن يكون بمعنى القضاء والحكمة فيكون قد جمع أربعة معان كلها مراده وهي (أحكام الحاكمين) بمعنى: أكثرهم حكمة و (أقضى الحكماء) و (أقضى القضاة) و (أحكام القضاة).

فانظر كيف جمع أربعة معان تؤدي بأربع عبارات في عبارة واحدة موجزة. ولو قال: (أقضى القاضين) لدللت على معنى واحد.

(١) انظر التبيان ٣٣ وما بعدها، التفسير الكبير ٣٢ / ١٢ .

(٢) روح المعاني ٣٠ / ١٧٧ ، مجمع البيان ١٠ / ٥١٢ .

ثم انظر كيف جعل ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري ولم يجعله بأسلوب الخبري فهو لم يقل: (إن الله أحكم الحاكمين) ولا نحو ذلك، وإنما قرر المخاطب ليقوله بنفسه وليشترك في إصدار الحكم فيقول: بلـي ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ بَنَانٌ
الشَّهِيدُونَ﴾.

ثم انظر إلى ارتباط خاتمة السورة بفاتحتها، فإن فاتحة السورة في ذكر مواطن الرسالات العظمى وارتباطها بخاتمتها واضحٌ بينَ، فإن الذي أنزل هذه الشرائع العظيمة وما تضمنته من أحكام سامية هو أحكم الحاكمين.

ثم انظر إلى التنسيق الجميل في اختيار خواتم الآي، فإن خاتمة كل آية اختيرت لتجمع عدة معانٍ في آن واحد. فاختيرت (الأمين) للتجمع معنوي الأمان والأمانة، وأسفل ساقلين) للتجمع معنوي أرذل العمر ودركات جهنم السفلية. و(غير ممنون) للتجمع معنوي غير مُنقطع ولا مُنْعَصِّي بالمية عليهم، وكلمة (الدين) للتجمع الجزاء والدين - وأحكام الحاكمين) للتجمع الحكمة والقضاء.

فانظر هذه الدقة في الاختيار وهذا الحُسْنَ في التنسيق. أليس الذي قال ذلك بأحكام الحاكمين؟ بلـي و أنا على ذلك من الشاهدين.

المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطى - ط ٣ / ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.
- الإعجاز العددى للقرآن الكريم - عبدالرزاق نوبل ط ٣.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي ط ٦ / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م، مطبعة الاستقامة في القاهرة.
- أنوار التنزيل - القاضي البيضاوى - المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ.
- الإيضاح للقزويني - تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر - مطبعة السنة المحمدية.
- البحر المحيط لأبي حيان ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية - الطباعة المنيرية.
- بدیع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق حفني شرف ط ١ مكتبة نهضة مصر.
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط ١ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية.
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - محمد بن حمزة الكرمانى. رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حققها الطالب ناصر بن سليمان العمر - مكتوب بالآلية الكاتبة.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - الزملکاني. تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب - مطبعة العاني - بغداد ط ١ / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هرون ط ٢ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتب الهلال بيروت.

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي منشورات مكتبة الحياة - بيروت، تصوير، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ.
- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم - مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ - بتحقيق عصام فارس الحرستاني .
- تحرير التحبير لإبن أبي الإصبع المصري تحقيق حفيظي شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة .
- تسهيل السبيل في فهم معانى التنزيل لمحمد تاج الدين أبي الحسن البكري مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٢٣٢٠ .
- التصوير الفني في القرآن - سيد قطب .
- التعبير الفني في القرآن - الدكتور بكري شيخ أمين - دار الشروق ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوى - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦ هـ - ١٩٧٣ م.
- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر .
- تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- حاشية الصبان على شرح التصریح للشیخ یس بن زید الدین العلیمی الحمصی طبعت مع شرح التصریح - دار إحياء الكتب العربية .
- حاشية ابن المنیر على الكشاف طبعت مع الكشاف .
- دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي - مطبعة العاني - بغداد سنة ١٩٦١ م.
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ١/١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي، إدارة الطباعة المنيرية – دار إحياء التراث العربي.
- سيرة النبي ﷺ لمحمد بن إسحاق هذبها ابن هشام تحقيق محمد محبي الدين عبدالحميد – نشر محمد علي صبيح وأولاده، مطبعة المدنى ١٣٨٣ هـ - م ١٩٦٣.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبدالله الأزهري – دار إحياء الكتب العربية.
- شرح الدماميني على مغني اللبيب طبع بهامش حاشية الشمني على مغني اللبيب – المطبعة البهية بمصر.
- الطراز ليحيى بن حمزة العلوى – مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - م ١٩١٤.
- فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ط ١ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩ هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب – الطبعة الأولى.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوایل في وجوه التأویل - لجبار الله الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ - م ١٩٤٨.
- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري - مصور على طبعة بولاق.
- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي - كتا بفروشی إسلامیة – طهران.
- معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل صالح السامرائي ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت.
- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي -

— معرك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد علي الбجاوي — دار الثقافة العربية للطباعة.

— معنى الليب عن كتب الأعaries لابن هشام الأنباري تحقيق محمد محبي الدين عبدالحميد.

— المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسيني بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني — طهران.

— ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد — دار النهضة العربية للطباعة والنشر — بيروت ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.

— من بلاغة القرآن — أحمد أحمد بدوي — مطبعة لجنة البيان العربي.

— همع الهوامع شرح جمع الجواجم لجلال الدين السيوطي ط ١ سنة ١٣٢٧هـ مطبعة السعادة بمصر.



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٧	التعبير القرآني
٢٢	البنية في التعبير القرآني
٤٩	التقديم والتأخير
٧٤	الذكر والحذف
١٢٥	التوكيد في القرآن الكريم
١٧٣	التشابه والاختلاف
٢١٧	فوائل الآي
٢٣٧	السمة التعبيرية للسياق
٢٥٢	الحسد الفني
٢٨٣	الحسد الفني في القصص القرآني
٢٨٥	قصة سيدنا آدم عليه السلام
٢٨٥	١ - قصة آدم في سورة البقرة والأعراف
٢٩٧	٢ - قصة آدم في سورة الأعراف و (ص)
٣٠٢	٣ - قصة آدم في الحجور و (ص)
٣١١	قصة سيدنا موسى عليه السلام
٣١١	١ - في البقرة والأعراف
٣٢٥	٢ - في الأعراف والشعراء
٣٣٧	تفسير سورة التين
٣٤٩	المراجع